الاتجاهات الوطنية
في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الاسكندرية

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه دائمين عاطرين على رسوله الأمين، الذى هدانا الله به وأحيانا، ولولا فضل الله ورحمته لكنا من الضالين الهالكين.

وبعد فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب (الاتجاهات الوطنية) فى جزئه الأول أدخلت عليها بعض التعديل فى الفصل الأخير «نزعات إصلاحية». ولم يكد يطرأ عليها بعد ذلك شىء يذكر فى بقية فصول هذا الجزء إلا قليلا. ويستطيع القارىء أن يلمس مواضع التعديل بالمقارنة بين ذلك الفصل كما جاء فى هذه الطبعة، وبين ملخصه كما يبدو فى مقدمة الطبعة الأولى التى أبقيتها كما هى دون تعديل. ولم يكن من هذا التعديل بد بعد أن بدا التناقض واضحاً بين ما جاء فى هذا الفصل وبين ما كتبته بعد ذلك بسنتين فى الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثانى لهذا الكتاب، ولا سيما ما يتعلق منه بمحمد عبده وحركته. وقد اجتمعت لى منه مادة صالحة لا يتسع لها هذا الكتاب أرجو أن يتاح لى نشرها فيما بعد. وهى تكشف عن جوانب أغفلها الذين كتبوا عنه وأرخوا له.

وقد كنت أحب أن أنجز فى هذه الطبعة للجزء الأول ما وعدت به فى تقديم الجزء الثانى من تعميم هذه الاتجاهات لكى تشمل العالم العربى كله — وظروفه فى تقديرى متشابهة فى خطوطها الكبيرة، يصدق فى كل قطر من أقطاره ما صح فى مصر. فكلها قد مر فى فترة التعلق بفكرة الجامعة الاسلامية. حين كانت جميعاً جزءاً من دولة إسلامية كبرى تعتبر امتداداً للخلافة الإسلامية وهى الدولة العثمانية. وكلها قد ظهر فيها صراع بين هذه النزعة الإسلامية التليدة الموروثة وبين النزعات القومية الطارئة التى بدأت طلائعها تظهر واضحة فى سائر البلاد العربية منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى. وكلها قد مر بفترة صراع بين النزعات الإقليمية وبين النزعة العربية التى ترد العرب إلى الوحدة الإصيلة

بعد الفرقة الطارئة . وكلها قد دارت فيه معارك حول تصوير العروبة : هل هي امتداد للإسلامية السابقة ؟ أم هي صورة من القوميات الغربية اللادينية ؟ وكلها قد شغل بالبحث والمناقشة حول أمثل الطرق والأساليب للنهوض ولاستعادة القوة والتخلص من أسباب الضعف وآثاره . ولم يكد الخلاف فيها جميعاً يخرج عن اتجاهات ثلاثة : اتجاه يدعو إلى العودة لينابيع الإسلام الأولى ؛ واتجاه آخر يدعو لاحتذاء الغرب وتتبع خطاه ؛ واتجاه ثالث يدعو إلى إسلامية متطورة يفسر فيها الإسلام تفسيراً يطابق الحضارة الغربية ، ويبرر أنماطها وتقاليدها . وكلها قد شغل بمصير الخلافة الاسلامية وواجب المسلمين إزاء إلغاء الحركة الكمالية للخلافة الإسلامية في تركيا ، وكلها قد دارت فيها معارك فكرية وأدبية بين المتمسكين بالتقاليد الاسلامية والعربية وبين الداعين إلى الحضارة الأوروبية والمفتونين بأساليبها وأنماطها .

كنت أحب أن أنجز وعدى ذلك ، فأعمم هذه الاتجاهات التي تحدثت عنها في هذا الكتاب بجزئيه ولكن ظروفي الراهنة لم تسمح به . فأرجو المعذرة . ولعلي أفي بهذا الوعد فيما بعد ، أو لعل غيري ينهض به . وقد نهض صديقي الدكتور ماهر حسن فهمي بشطر منه حين أصدر كتابه (القومية العربية والشعر المعاصر) في سلسلة « مع العرب » التي تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقدر الذي سمح به حجم الكتاب وطبيعته . وقد تفضل مشكوراً بتصحيح تجارب هذا الجزء لبعدي عن مصر أثناء طبعه .

والله سبحانه وتعالى هو المستعان . له الحمد في الأولى والآخرة . ولا حول ولا قوة إلا به ؟

محمد محمد حسين

بنغازي في صباح السبت ١٢ من رمضان المبارك ١٣٨١

(١٩٦٢/٢/١٧ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

كان اتجاهى أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية فى شعر شوقى . ولما اجتمعت لى مادة البحث، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلموه ظلماً بيناً فى وطنيته. ونظرت فإذا شوقى ليس وحده هو الذى مدح السلطان عبد الحميد ، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعاً . ونظرت فإذا شوقى لم يكن وحده الموالى لتركيا ، فقد كانت مناصبة تركيا وقتذاك لا تعنى إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الانجليز . ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذى مدح عباساً — وإن تكن صناعته ووظيفته قد اقتضته ذلك — فقد كان عباس فى الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء بل وموضع حب المصريين جميعاً وآمالهم .

ورجعت إلى كتابات العصر، وصحفه وتاريخه، فإذا كل ذلك يوحى بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هى وطنيتنا ، وأن قيمها لم تكن هى قيمنا ، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا . فالخطأ فى الحكم يرجع فى معظمه إلى تغير مفهوم (الوطنية) على مر الأيام ؛ فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة فى الجاهلية ، لا ينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية فى القرن العشرين . والذين يدرسون شعراء ما قبل الإسلام يظلمون إذا وزنوهم بموازين الإسلام . والجيل الذى يولد فى هذه الأيام يخطىء إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاما أو ثلاثين لحكم على الذين مجدوا (الملكية) بالخيانة . وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقى . لاموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الاسلامية . وغضوا من قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقدوتهم فى مقاومة الاحتلال فى شطر من حياته .

وعند ذلك خطر لى أن لا أقصر تاريخ الوطنية على شوقى ، وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية فى الشعر العربى فى مصر جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث

قد يصحح كثيراً من الأحكام السابقة العاجلة، وقد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها ، فليس من الانصاف أن يحاسب الناس على أسس مباينة كل المباينة أو بعض المباينة لأسس العصر الذى عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمى أن يدرس الشاعر منفصلا عن بيئته التى استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث فى لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية فى دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لى من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٩) كانت حداً فاصلا بين عصرين متباينين فى فهم مدلول (الوطنية) . ولذلك رأيت أن أقسم بحثى عن (الاتجاهات الوطنية فى الشعر المعاصر) إلى قسمين، ينتهى أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القراء .

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول :

تكلمت فى الفصل الأول عن (الجامعة الاسلامية) فبينت أنها كانت هى النزعة الغالبة على تفكير العصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هى المسيطرة على القلوب والافهام ، وحين كانت الظروف التى تسود العصر توحى بأن الخصومة بين الشرق والغرب هى خصومة بين الاسلام والمسيحية ، أو هى استمرار للحروب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هذا التصور ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية و بين الدول الأوروبية الطامعة فى اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادى بتحرير الشعوب الاوربية فى جنوب أوروبا من وحشية المسلمين . وتلك تنادى بتماسك الشعوب الاسلامية واتحادها أمام الجشع الاوربي . كما أعان عليه مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابه للإسلام والمسلمين ، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الاسلام الذى لا يصلح فى زعمهم لأن يكون شريعة أمة متمدينة راقية ، وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ، بتشجيع كل مناوىء لها وخارج عليها وتضييع لسلطانها وتصوير لفساد الحكم فيها .

وبينت فى هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الشعراء السلطان عبد الحميد لم يكن فى حقيقة أمره إلا تمسكا بخليفة المسلمين الذى يلى أمرهم ويجمع شملهم،وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعنى فى أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين . وتتبعت ذلك فى مختلف المناسبات والأحداث ، مثل الحركة العربية التى كان يظن أن إنجلترا هى التى تثيرها ، مستعينة بها على نقل الخلافة الإسلامية التى كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربى تضمه تحت حمايتها ، فتتسلط عن طريقه على الرأى الإسلامى العام ، ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧ ، والدستور العثمانى ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١، وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢ . وقدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الإسلامية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الانجليزى ، وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركى سهل ميسور .

وتكلمت فى الفصل الثانى عن (الجامعة المصرية) ، فتتبعت تطور القومية المصرية التى كانت فكرة ناشئة فى ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية . فكانت صدى للاتجاه العام نحو تطور القوميات فى القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العرابية ، التى كانت تعبيراً عن شعور المصريين بالاضطهاد وإزالة عنصر غريب عنهم هو العنصر الجركسى . ورأيت أن فكرة الوطنية فى ذلك الوقت مختلفة بعض الاختلاف عما نعنيه منها اليوم ، وأنها كانت مختلطة بالفكرة الإسلامية ، لا تدعو إلى الانفصال عن تركيا وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجركسى والنفوذ الأوروبى . وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه ، تحفزه إلى الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه

نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أيدى أصحاب الثقافات الاوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . ودعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الاقطار الإسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الاوروبية الطامعة فى استعمارها .

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمناً بعد فشل الثورة العرابية ، حتى انبعثت من جديد فى مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الاوروبية ، واتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثا عاطفياً ، ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقته ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلا فى مصطفى كامل وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ، ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الانجليز . وكان الفريق الثانى ممثلا فى لطفى السيد كاتب حزب الأمة الاول . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لانها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الاسلامية لانها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية . ويبدو أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب ، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وأن انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعاتها كانوا من كبار الملاك الذين لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادى والمصالح المشتركة ، وإلى أنهم قد انصرفوا إلى الكلام عن الاصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يوادونه حرصا على مصالحهم .

ونختم هذا الفصل بالاشارة إلى ما صحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخى فى الشعر نحو إحياء المجد الفرعونى والمجد العربى ، الذين يمثلان النزعتين

السابقتين : القومية المصرية والقومية الإسلامية واتخاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت في الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التي بدت في المؤتمر القبطي سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصري سنة ١٩١١ . وبينت أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وإلى عدم توافر الثقة بين العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية . وإلى الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التي دعت القبط إلى أن ينطووا على أنفسهم ويقصروا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر . وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالي رئيس الوزراء القبطي سنة ١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصرياً خان وطنه وأعان عليه المستعمرين ، وبلغت الخصومة قمتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطي في أسيوط ٥ مارس سنة ١٩١٠ . مطالباً ببعض المطالب التي كانت موضوع نقاش عنيف حاد في الصحف، مما دعا إلى عقد مؤتمر مصري تم انعقاده في ٢٩ إبريل سنة ١٩١١ . رد على مطالب المؤتمر القبطي التي لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ، ولكنها تقوم على أساس الدين وحده .

ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق بين عنصري الأمة وتصفية ما بين جيران الوطن من سوء الظن . وانتهيت إلى أن هذا الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية ، وأنه وإن كان ثمة الخلاف بين عنصري الأمة ، فقد مهد في الوقت نفسه للوحدة القومية المصرية التي بدت في أقوى مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت في الفصل الرابع عن (تيارات سياسية) كانت تتنازع الناس

فى هذا العصر . وجعلت الثورة العرابية هى نقطة البداية فى اهتمام الناس بالمسائل السياسية. فقد كثر فيها حديثهم عن الظلم والظالمين . وعن حقهم فى محاسبة السلطان، وعن الدعوة إلى النظام النيابى وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبى . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكى مفضلة عليه النظام الجمهورى .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعد ما كان من ركود الحركة حيناً واستكانة الناس للهزيمة . فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبينت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الانجليزى قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته فى أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله . وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للانجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرومر . ثم تكلمت عما كان من تراجعه أمام الإنجليز وعدم صبره للكفاح ، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستعرضت سياسته المضطربة المتقلبة التى أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الانجليز ، حين أرضى جورست — خليفة كرومر — جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفدت الحركة الوطنية جهدها فى مهاجمة عباس ، واستراح الانجليز من اجتماع الشعب والخديوى على حربهم . وقدمت صوراً من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباساً فى أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف فى ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذى يعرضه للسجن . ومنهم من يرفق فى ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق .

ثم تكلمت عن السلطتين اللتين كانتا تتنازعان تصريف الشئون فى ذلك الوقت ، سلطة الاستعمار وسلطة الخديوى ، أو السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس ومؤيد لكرومر . وتكلمت عن سعى الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ، تحقيقاً

لسياسته التي رسمها لنفسه منذ الاحتلال في أن لا يحكم بطريق مباشر ، وفي أن ينفذ إرادته بأيد مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأي العام ، فتواجه ثورته ، وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ويستنفدون جهدهم في هذه الخصومة .

ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركي والنفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة التركي حامي المسلمين ، ومنهم من يلتمسه عند الفرنسيين المنافسين للاستعمار الإنجليزي . ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين فهو يدعو إلى الالتفاف حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش في حاضره ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمع في أكثر من دعوتهم إلى الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده بالحق والباطل .

ثم تكلمت عن تأسيس الأحزاب السياسية في سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطني ومن ورائه الكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف في خصومته للاستعمار . بدأ عهده مؤيدا لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، ولكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية في الحالين . وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح ، وهو يرى أن ذلك هو الطريق الطبيعي إلى الاستقلال . وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى عباس ، فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمي نفسه بالحزب الوطني الحر ، وما هو بوطني وما هو بحر ؛ فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ، ويتمثل في صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف في الخصومة وإسراف في الاتهام ضاق به المصلحون فارتفعت صيحاتهم منكرة هذه المهاترات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتكلمت في الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور الفكري والسياسي . وكان دعاتها خليطا من المشتغلين بالسياسة ، وممن كرهوا أن

يزجوا بأنفسهم فى هـذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان . وكان بعض هؤلاء ينظر إلى علل المصريين الخلقية والاجتماعية ، يحاول أن ينبه إليها ويرسم الطريق إلى معالجتها ، مستوحياً فى ذلك الحضـــارة الغربية وأساليبها ونظمها . وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم للاسلام محاولا أن يقيم الإصلاح على أساس دينى . ثم بينت أن التفكير الأوروبى قد تجلى فى دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة ، شغلت الرأى العام فى مستهل القرن العشرين ، وهى : الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية ، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة فى الحيـاة . وبينت أن الدعوتين الأوليين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع فى الحكم العثمانى الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين .

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامى التى تزعمها محمد عبده ، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه . وقسمت جهوده فيها إلى قسمين ، اتجه فى أولهما ـ أيام اتصاله بالأفغانى ـ إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال . واتجه فى الشطر الثانى إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة ، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الاسـلام من شبهات ، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه ، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع . وكان من أهم ما اتخذه لذلك من وسائل مشاريعه فى إصلاح الأزهر ، وفتاويه التى كان يجيب بها على السائلين من مختلف الأقطار الإسلامية ، ودروسه التى كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء .

ثم بينت أثر تجاور هـذين التيارين فى انقسام المفكرين والناس فى مختلف نواحى الحيـاة إلى مجددين ومحافظين : مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من الفريقين . فكان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بالجمود

والتخلف والجمود . وكان الفريق الثانى يتهم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ، وربما ذهب فى ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذناب المستعمر وأعوانه ، يساعدونه عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن تجاور هذين التيارين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، فى البيت الواحد فى بعض الأحيان ، مما وضح أثره فى شاعر كشوقى ، تجاوز فى شعره وصف الرقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الاسلام .

وانتهيت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التى كانت تأخذ الناس من كل الجهات قد ساعدت على تنبيه الوعى القومى وإنضاج التفكير ، فكانت أشبه شىء بالفوضى التى تمهد للنظام ، وبالسديم الذى يتكشف عن الأجرام ، وبالشك الذى يلد اليقين .

ولم يكن يعنينى فى هذه الفصول أن أستقصى الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل . لكن عنايتى قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ، والتيارات الأساسية ، التى ظهرت فى هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطا ذلك من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية . وأرجو أن أكون قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المفاهيم النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من لبس أو غموض .

ولا يفوتنى فى ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمى لما قدم لى من عون فى تأريخ كثير من قصائد شوقى بالرجوع إلى تاريخ نشرها فى الدوريات ، وفى إعداد فهارس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد ؟

رمل الاسكندرية { ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣ / ٢ مايو سنة ١٩٥٤ } محمد محمد حسين

الفصل الأول

الجامعة الاسلامية

كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين . ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي، وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم تخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه ، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمداً منه السلطة في كل ما يفعل(١). ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي وبأن « جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين »(٢) وهذا هو قرار الجمعية العمومية الذي صدر بتأييد عرابي عندما عزل الخديوي توفيق يختم بالاعتراف بالولاء للسلطان ، إذ ينص على وجوب « عرض القرار على الأعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات »(٣) . ويقول عرابي في مذكراته « وبعد إمضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية ، وصار إبلاغه إلينا رسمياً وإلزامنا بالمداومة على الدفاع وإعطاؤنا لقب (حامي البلاد المصرية) »(٤) . وهذه هي المنشورات التي كان يصدرها الخديوي توفيق مستعيناً على تنفير الناس من عرابي بتصويره خارجاً على الخلافة ، عاصياً أوامر أمير المؤمنين(٥) . وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الحض على الدفاع

---

(١) مذكرات عرابي ١ : ٧١ ، ٢٢٢

(٢) مذكرات عرابي ١ : ١١٧

(٣) الثورة العرابية ٣٩٠

(٤) مذكرات عرابي ١ : ١٩٧

(٥) مصر للمصريين ٥ : ١٨٠ - ١٩٣ ، مذكرات عرابي ١ : ١٩٨

عن الدين الإسلامى[١] . وظل عرابى يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده ، حتى أعلن عصيانه تحت ضغط انجلترا ، فكان لهذا الإعلان أسوأ الأثر كما يقول عرابى نفسه فى مذكراته[٢] .

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة بلون دينى يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبى فى العصور الوسطى . وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوربية فى هذه الشعوب جميعاً . فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين[٣] . وكانت العرائض تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين[٤] . وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بانجلترا يلقى الخطب الرنانة ، ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسبا إلى تركيا اضطهاد المسيحيين، مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله « الشيطان » و « عدو المسيح »[٥] . وهذا هو المستر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) سكرتير سفارة انجلترا فى الأستانة يكتب تقريراً مطولا عن المسألة البلقانية يذكرنا بتقاريره المشهورة عن مصر ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة فى الانتقام من المسيحيين ، مقترحاً أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين[٦] . وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر فى باريس[٧] .

---

(١) مصر المصريين ٥ : ١٩٤ — ١٩٨

(٢) مصر المصريين ٥ : ٢٠٠ — ٢٠١ مذكرات عرابى ٢ : ١٢ — ٢٠

(٣) عبد الحميد ظل الله على الأرض ٧٢ — ٧٣ ، تاريخ الدولة العلية ٣٤١ ، صداقة أربعين عاما ص ٢٧٤

(٤) عبد الحميد ٧٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩

(٥) عبد الحميد ٨٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩

(٦) تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ — ٣٤١

(٧) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٠١

وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليها الأمداد بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الاسلامية ، وينبث الدعاة فى كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الإسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الإمبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أى مسيحى آخر[1] . وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، وحين كانت تتجاوب الصيحات فى بلاد البلقان « اقذفوا بالمسلمين إلى البحر » ، كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا ، فتتجاوب صيحاتهم : « الآن سوف يسود الإسلام »[2] .

ويغذى هذه الفتنة الدينية ما يتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة فى البلقان ، التى لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم[3] . ويجيب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها فى إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤م[4] . ويكتشف السلطان عبد الحميد فى مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التى يستطيع بواسطتها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانفراط وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الاسلامية ونشر شعاره المعروف : « يا مسلمى العالم اتحدوا »[5] .

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها ، فيدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والمتأمل لأدب هذه الفترة فى مصر ، شعراً أو نثراً ، يجد ذلك واضحاً كل

---

(١) عبد الحميد ٩١ .

(٢) عبد الحميد ٩٣ ، صداقة أربعين عاما ٢٧٤ .

(٣) عبد الحميد ٩٤و١٠٣ — ١٠٤ ، والدولة العلية ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) صداقة أربعين عاما ص ٦٨ — ٢٨٣ .

(٥) عبد الحميد ١٦٨ — ١٦٩ و ١٧٢ — ١٧٥ .

الوضــوح . لجريدة العروة الوثقى تكتب فى سنة ١٨٨٤ مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، منها مقال عنوانه (الجنسية والديانة الإسلامية) جاء فيه :

« وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية ، التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للحاكم أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها . وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض . بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم . فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هـذا . ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى ـ اتباع الشريعة ـ (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له فى جنسه ، ولا امتياز له فى قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشىء من حسبه ونسبه . وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه . . . هـذا ما أرشدتنا إليـه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين . لهـذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليـه من أشكالها وانتقالهـا من قبيل إلى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها ... (١) » .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٣ - ٢٢٧ .

وفى مقال آخر عنوانه (التعصب) ، يرد جمال الدين الأفغاني[1] على من يجحدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين فى كل ما تجرى عليه سياستهم[2] . ويقول فى مقال ثالث له عنوان (الوحدة الإسلامية) :

« لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم . فتعدد الملك عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة والسلاطين فى جنس واحد . وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم . . . ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجئوا الاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل »[3] .

ويقول عبد الله النديم فى مقال له طويل فى مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ عنوانه (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) :

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة . ولكن المغايرة وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الاسلامى أوجب هـــذا التحامل الذى أخرج كثيراً من ممالك

---

(١) المعروف أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب الفكرة فى مقالات « العروة الوثقى » التى كانت تصدر فى باريس ، وأن محمد عبده هو الذى يصوغ هذه الأفكار بعبارته .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٤٩ — ٢٥٨ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٢٧٦ — ٢٨٢

الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين تحكمتهم قوالبهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة . فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدوانى ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانِ عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة فى قطعة تختلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ، مع اتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للتنقل والتجول ، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ، ووجودها تحت رحمـــة الله تعالى ، إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت ، وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوروبية ما قاومت هذه العواصف أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى »[1] .

ويقول مصطفى كامل فى مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذى ظهر سنة ١٨٩٨ : « وإنى أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد خاص وقلب صادق ، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدى ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعة وأن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ، وللإسلام إمامه وناصره جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى وأن يحفظ لمصر فى ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوى عباس حلمى الثانى . إن ربى سميع مجيب »[2] .

ويقول : « اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسألة الشرقية هى مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها . وبعبارة أخرى هى مسألة وجود الدولة العلية نفسها فى أوروبا . وقد قال كتاب

---

(١) سلافة النديم ٢ : ٦١ — الأستاذ : عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٤ .
(٢) المسألة الشرقية ص ٤ .

آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية »(١) .

ويقول بعد ذلك في تصوير إثارة إنجلترا للأقليات المسيحية في الإمبراطورية العثمانية : « وأما العناصر التي كالأرمن استعملها بعض الدول كإنجلترا ، فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جليا في المسألة الأرمنية ، وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكايد ضد الحكومة العثمانية . فمسألة الدين في الدولة العلية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات، وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة إنما يثورون ضد أنفسهم ، ويقضون على حياتهم وسعادتهم بجهلهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . والذين ماتوا في كريد ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها »(٢) .

ويقول في تمجيد السلطان عبد الحميد : « إن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي . فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب . فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لإعلاء قدرها »(٣) .

ويقول في ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية وتصوير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية : « ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري

---

(١) المسألة الشرقية ص ٥

(٢) المسألة الشرقية ص ٨ ، ٩

(٣) المسألة الشرقية ص ١٠

النوع البشرى ، وأن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق ..وقد أحس المكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام ان بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون بجلبة للأخطار ، أكبر الأخطار ، ومشعلة لنيران يمتد لهيبها بالأرض شرقها وغربها . شمالهـــا وجنوبها ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرباً دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية .

« وإن الذين يدّعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيى الشرق عموما قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالأنهار والبحار فى كل واد »(١) .

ويقول فى سعى انجلترا لهدم الخلافة التركية وتعضيدهم لكل خارج عليها :
« وقد علمت انجلترا أن احتلالها لمصر كان ـ ولا يزال يكون ما دام قائماً ـ سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية ، وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقا الاتفاق مع إنكلترا على بقائها فى مصر . . . ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية فى طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات فى سبيل امتلاكها مصر ، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء فى مصر ووضع يدها على وادى النيل هى هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإســــلامية إلى أيدى رجل يكون تحت وصاية الإنكليز ، وبمثابة آلة فى أيديهم . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان فى وجه الدولة العلية . . . ولذلك أيضا كنت ترى الإنكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية مشروع تقسيم الدولة العلية ـ حماها الله ـ جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب : أى السلطة العامة على المسلمين .

(١) المسألة الشرقية ص ١٣ — ١٤

والذى يبغض الإنكليز على الخصوص فى جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية . . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الإنكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما فى وسعهم . فإن مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز فى هذا الموضوع ، ومنهم المستر بلانت المعروف فى مصر ، فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأمانى الانكليز فى مستقبل الاسلام . وقد كتب فى فاتحة كتابه :

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن فى النظام وأجملا

« أى أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين ، بل إن هذا العقد العثمانى ينثر ليعود عقداً عربياً أحسن وأجمل . ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربى فى جيد بريطانيا لا فى جيد الاسلام !! . . . ويبين المستر بلانت أيضاً ، أن مركز الخلافة الاسلامية يجب أن يكون مكة ، وأن الخليفة فى المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً ، لا ملكاً دنيوياً ، أى أن الأمور الدنيوية تترك لانكلترا لتدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « إن خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لحليف ينصره ويساعده ، وما ذلك الحليف إلا إنكلترا !! » وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى — وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه — أن الأليق بالاسلام أن ينصب إنكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً!!»(1).

ويختم مصطفى كامل الفصل الاول من كتابه بالدعوة إلى الاتفاق حول الراية العثمانية بقوله : « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنكلترا الدولة

---

(١) المسألة الشرقية ص ١٩ — ٢٢

العلية فبين لا يذكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قوام، ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدا ، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والإرواح ؛ ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية(١) » .

وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقاً معه فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين . يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية) يقول فى مقدمته : « على أن الملك العثمانى قد لم من شعث الولايات الاسلامية وقطع من تقاطعها ما رد على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرقية ، على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الأوروبية ، واتفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثمانى ، وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول ... فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الاسلامى زمنا طويلا . رأيت من الواجب على خدمة الحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد ، أن أدون هذا التاريخ ... راجياً منه تعالى أن يوفقنى لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من روابط التابعية ، وأن يحفظ خديوينا المعظم عباس حلمى الثانى ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها إنه السميع المجيب » .

ومما يدل على حسن تقبل الرأى العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٨٩٣ ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٨٩٦ ، مع قلة عدد القراء فى ذلك الوقت . ومما يدل على ثبات مؤلفه على آرائه فيه أنه طبعه

---

(١) المسألة الشرقية — ٢٣

المرة الثالثة سنة ١٩١٢ حين بلغ الخصام بينه وبين الخديوى عباس ذروته .

وقد صور كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) الذى ظهر عقب مغادرته مصر سعة انتشار فكرة الرابطه الاسلامية بين المصريين ، واعترف بما تتمتع به الخلافه التركيه من نفوذ واسع فى مصر ، فتكلم عن الحجاب الكثيف من التعصب الدينى الذى يقوم بين الانجليزى الراغب فى إصلاح مصر — حسب زعمه — وبين المصريين[1] . كما تكلم عن تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلاميه المتغلبه على الوطنيه بمعناها الإقليمى ، والتى تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر أقطار الأرض[2] . وتكلم فى موضع آخر من كتابه عن هيبة المصريين المركزة فى أعماق نفوسهم للترك المستعمرين[3] ، وعن عطفهم على الخليفه التركى كلما وقع فى محنة مستشهداً على ذلك بما حدث سنة ١٨٩٢ حين عارضت إنجلترا صدور الفرمان التركى ، وفى سنه ١٩٠٦ حين اختلفت إنجلترا وتركيا على حدود مصر الشرقية فى سيناء . فقد أثار شعور المصريين — كما يقول — أن تذل دولة مسيحية خليفة المسلمين[4] .

* * *

هذه النزعه الاسلاميه التى رأيناها واضحة فى كتاب العصر وقادته ومفكريه ، نستطيع أن نتتبعها فى الشعر فنجدها فى مثل هذا الوضوح . فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك ، على اختلافهم وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر فى مدح الخليفه التركى ، والإشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على إعلاء كلمة الدين . وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره فى حروب تركيا وأحداثها الجسام . مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثمانى

---

(١) Modern Egypt ٢ : ١٣٩

(٢) المرجع نفسه ٢ : ١٣٢ — ١٣٣

(٣) المرجع نفسه ٢ : ١٦٩

(٤) المرجع نفسه ٢ : ١٧٠

وسقوط عبد الحميد . وهم يرون أن الخليفة ، هو الجامع لشمل المسلمين ، وأنه حين يحارب إنما يحارب دفاعا عن الاسلام وتمسكا بإعلاء كلمته بين الدول التى تتربص به ، وهم يدعون إلى اتحاد كلمة المسلمين فى ظل راية الخلافة ، محذرين من الإصغاء إلى دعوة التفرقة التى لا تصيب الأمم الاسلامية جميعاً إلا بالشر .

يقول شوقى :(١)

رَضِىَ المسلمون والاسلام ... فرع عثمان . دُمْ فداك الدوام
إيه عبد الحميد جلَّ زمان ... أنت فيه خليفة وإمام
عُمَرَ أنت ، بيد أنك ظل ... للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجتَ بالخلافة حتى ... تُوج البائسون والايتام
ولأنت الذى رعيَّته الأسْدُ ... ومسرى ظلالها الآجام
أمة الترك والعراق وأهلو ... ه ولبنان والربى والخيام
عالم لم يكن لينتظمَ لولا ... أنك السِّلْم وسْطه والوئام

ويقول حافظ من قصيدة له أنشدت فى عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ : (٢)

لقد مكن الرحمن فى الأرض دولة ... لعثمان لا تغفو ولا تتشعب
بناها فظنتها الدرارى(٣) منزلا ... لبدر الدجى تبنى وللسعد تنصب
وقام رجال بالإمامة بعده ... فزادوا على ذاك البناء وطنّبوا
وردوا على الاسلام عهد شبابه ... ومدوا له جاها يُرَجّى ويرهب
أسود على البسفور تحمى عرينها ... وترعى نيام الشرق والغرب يرقب

ويقول محرم : (٤)

يا آل عثمان مِن تركٍ ومن عرب ... وأى شعب يساوى الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علما ... لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا

---

(١) الديوان ١ : ٢٩٦ .
(٢) الديوان ٢ : ١٧ .
(٣) الدرارى: الكواكب المضيئة، جمع درى،
(٤) الديوان ٢ : ٤ .

أبو الخلائف ذو النورين (1) مورثنا   ملك الجلال وهـذا المجد والحسبا
يا تاج عثمان إن اليوم موعدنا   نجدّد العهد والذّوق الحب والرّغبا
لو ضاع عهدك أو حام الرجاءُ بنا   على سِواكَ لقينا الحَينَ والعطبا

ويقول : (2)

لولا بنو عثمان والسّنن الذى   شرعوا لما وضح السبيل الأقومُ
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلى   عنها من الحدثان ليل مظلم
فهمو ولاة أمورها وكفاتها   وهمو حماة ثغورها ، وهمو همو
تهتز آناً بالسلام وتارة   بالحرب يزخر فى نواحيها الدم
فبتلك يُكتفى الملك ذا شحنائه   ويصان من كيد الخصوم ويعصم

ويقول : (3)

إنا بنى عثمان أعلام الورى   والأرضُ تشرف فوقها الأعلام
إنا السنام إذا الأنام تفاخرتْ   والناس فيهم مَنسِم (4) وسنام
إنا يسوس أمورنا ويقيمها   ملك بأمر إلهه قوّامُ
رحب الذراع كفى الذى نعنى به   رأىٌ له فى المشكلات حسام
عبد الحميد أتاح فى أيامه   للملك ما ذهبت به الأيام
لولا صرامتُه وشدة بأسه   ومضاؤه لتضعضع الإسلام
ما زال يحمى حوضه مذ جاءه   وكذاك يحمى غِيله الضرغام
دُمْ يا أمير المؤمنين فما لمن   عاداك بين العالمين دوام
لا زلت يا ركن الخلافة شامخا   تعنو إليك الأعراب والأعجام

ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى عيد جلوس السلطان عبد الحميد

---

(1) ذو النورين هو عثمان الأول الذى تنسب إليه دولتهم المتوفى سنة ١٢٣٦ م

(2) الديوان ٢ : ٤٣   (3) الديوان ٢ : ٣٣

(4) المنسم : خف البعير ، أى أن فى الناس الكبير والحقير .

سنة ١٩٠٠ : (١)

يا ناصر الإسلام إنّ زماننا بك صار فى عز وفى استكبار
ومعزّ كل مسالم لك خاضع ومذلّ كل معاند جبار
ومعيد أدوار الشباب لموطن كم للحوادث فيه من أدوار

ويقول من قصيدة له يرثى بها خاله ، مبينا فضله عليه فى إرشاده وتربيته تربية إسلامية صحيحة : (٢)

وقد كنت المعين على صلاحى ومرشدى العظيم إلى الكمال
تعلمنى الرماية والقوافى وآداب الخطابة والجدال
وتلهمنى المعانى باهرات أسيل بهن كالسحر الحلال
وتوضّح لى المسالك والمساعى فأبلغ كلّ ممتنع المنال
وتشربُنى بعلمك حبّ دينى وقومى والخليفة والهلال

ويقول نسيم من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر : (٣)

أقمت عرشك بين الحق والسدد فزاده الله تثبيتا إلى الأبد
فكيف نفزع فى الدنيا لطارئة وأنت تحمى ذمار الفازع الخضد (٤)
خليفة الله يا ابن الغر من نُجُب لله درك يوم الرَّوْع من عضد
جاهدت فى الملك تحميه وتحفظه جهاد طه مع الأنصار فى أحُد
والسيف يكتب آىَ الفتح محكمة على البلاد بنفس من دم جسد (٥)
وقد أعدتَ إلى الاسلام نضرته حتى زهى بك واستذرى إلى سند

(١) الديوان ١ : ٨

(٢) الديوان ١ : ١٤٧

(٣) الديوان ١ : ١٩

(٤) الخضد : العاجز عن النهوض .

(٥) الجسد : الدم ، وهو توكيد .

ويقول فى قصيدة أخرى : (١) .

وقد أمست إلى الإسلام نضرته حتى ارتدى روضة باليانع الخضل
وبت ترعى الرعايا فى مراقدها وصرت تحمى ذمار الفازع الوجل
وكان قبلك قلب السيف مضطربا فقر بعدك قلب السيف فى الخلل
فلا برحت لهـذا الدين تكلؤه حتى يعود الى أيامـه الأول

ويقول عبدالمطلب من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الدستور:(٢)

يا عيد حى وأنت خير نهار عبد الحميد بدولة الأحـرار
ملك أقام على الخلافة مشيئم حرماً وقاها صولة الأشرار
من بعد ما كاد الوماد يحيلها بالجور دار مـذلة وبوار
عهد مضى لا عاد ، كبـل دولة الـ إسلام فى الأغلال والآصار(٣)
فرمت مقاتـلها يد الأطماع من دول كلفن بحب الاستعمار
هذى تطالب بالدخول وهذه تحتال فى وطر من الأوطار(٤)
لولا أمـير المؤمنين يحوطها لرأيتها خبراً من الأخبار

ويقول فى قصيدة له تزيد على مائتى بيت فى الحرب العالمية الأولى ، حين أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤(٥) ، وقد بدأ قصيدته بتحية العلم التركى :

هلال الهدى فى دارة المجد أشرق ودونك ليل الغى بالرشد فامحق
ويا علم الأعلام كم خفقت قلو ب قوم إلى مرأى حفافيك فاخفق

ثم مضى فى تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها ، إذ يساقون مرغمين إلى الموت ، مقاتلين تحت الراية البريطانية ، مخلفين وراءهم أرامل وأيتاما وأمهات ثاكلات ، ثم تكلم عن مواجهة أساطيل الحلفاء للقسطنطينية مقر خلافة المسلمين ،

---

(١) الديوان ١ : ١٢٩
(٢) الديوان ٩٣ — ٩٤
(٣) الآصار جمع إصر ، بكسر الهمزة ، وهو الثقل والذنب.
(٤) الوطر: الحاجة والجمع أوطار .
(٥) الديوان ١٤٩ — ١٧٤

مظهراً شماتته بعودة أساطيلهم خائبة مهزومة :

فأبلغ بنى التاميز عنا وحلفهم ... بباريس أنباء النذير المصدق
عشية يعدون الأساطيل شرعا ... على اليم تعبر فى الحديد المطبّق
تشن على دار الخلافة غارة ... من البحر إن تقرع بها الدهر يفرق
... تألفن بالعدوان ، يجرين باسمه ... إلى غرض من مدحض الهون مزلق
فأقبلن فى شمل من البغى جامع ... وعدن بشمل بالهوان مفرّق
... ومن يتحرش بالردى يتكرع الردى ... زعافا ومن يستنبث النار يحرق(١)

* * *

وشعراؤنا المعاصرون فى هذه الحقبة يعلقون على تركيا آمالا جساما فهم يعلنون ولاءهم لخليفة المسلمين فى شتى المناسبات ، شاكين إليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لانقاذهم . بل إنهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه رعاية شئونهم وحياطة دولهم ، يعاتبونه - وقد يقسون فى العتاب - إن تخلف عنه .

يقول شوقى : (٢) .

عالىَ الباب ، هزّ بابُك منا ... فسعينا وفى النفوس مرامُ
وتجليتَ فاستلمنا كما اسْتَا ... س بالركن ذى الجلال استلام
نستميح الإمامَ نصراً لمصر ... مثلما ينصر الحسامَ الحسامُ
فلتمصرُ - وأنت بالحب أدرى - ... بك يا حامى الحمى استعصام
يشهد الله للنفوس بهذا ... وكفاها أن يشهد العلاّم
وإلى السيد الخليفة نشكو ... جور دهرٍ أحراره ظلاّم
وعدوها لنا وعوداً كبارا ... هل رأيت القرى علاها الجَهامُ ؟(٣)

(١) يتكرع أى يشرب ، استنبث النار: كشف عنها التراب .
(٢) الديوان ١ : ٢٩٩ .
(٣) الجهام (بفتح الجيم) السحاب لاماء فيه . يشبه وعودهم بالسحاب الذى لا يمطر.

ويقول فى ختام قصيدته الطويلة فى الوقائع العثمانية اليونانية (١) :

وإنى لتطربُ النيلَ لا طير غيره ... وما النيل إلا من رياضك يحسبُ
فلازلت كهف الدين والهادى الذى ... إلى الله بالوافى له نتقرّبُ

ويقول حافظ من قصيدة له ، يشكو فيها نُوَب الزمان سنه ١٩١٠ ، ويبكى مجد الترك والعرب ، ويصور ما يلقى المصريون فى ظل الاحتلال من هوان ، عاتبا على الترك إهمالهم أمر مصر وتركها لقمة سائغة فى يد المستعمرين (٢) :

فإن نمكن نسبق الشرق مائمتى ... حقا ، فواهاً (٣) لمجد الترك والعرب
وقاضبات لهم كانت إذا اخترطت ... تدثر الغربُ فى ثوب من الرّهب
وجمرة لهم فى الشرق ما همدت ... حتى علاهـا رماد الختل والكذب
متى أرى النيلَ لا تحلو موارده ... لغـير مرتهب فى الله مرتقب
فقد غدت مصرُ فى حال إذا ذُكرت ... جادت جفونى لهـا باللؤلؤ الرطب (٤)
ياآل عثمان ما هـذا الجفاء لنا ... ونحن فى الله إخوان وفى الكتب
تركتمونا لأقـوام تخـالفنا ... فى الدين والفضل والأخلاق والأدب

ويقول الكاشف من قصيدة له فى عيد جلوس الخديوى عباس سنة ١٩٠٣ ، مشيراً إلى سعى ممدوحه فى توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبينا نفع هـذه السياسة فى القضية المصرية : (٥)

إن اتصـالك بالخليفة ضامن ... ردّ المغير مروّعا مغلوبا
والحجة البيضـاء فى يدك التى ... فتحت مجالا للجهاد رحيبا (٦)

ويقول من قصيدة له فى الثورة العرابية يختمها بالحسرة على احتلال انجلترا

---

(١) الديوان ١ : ٤٧ ... (٢) الديوان ٢ : ١١٨ — ١١٩

(٣) واها كلمة تعجب ، وتأتى للتحسر (فتقول واها على مافات) أى ياحسرتى على ما فات .

(٤) اللؤلؤ الرطب : أى الدمع ، وهى مستعارة فى غير موضعها ، فليس هـذا موضع تشبيه الدمع باللؤلؤ .

(٥) الديوان ١ : ٣٣

(٦) يقصد أنه حجتك الكبرى فى عدم شرعية الاحتلال . لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، التى اعترفت فيها انجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبقائها تحت السيادة العثمانية .

لمصر ، مترقبا اليوم الذى تجلو فيه عنها ، فتعود إلى راية الإسلام ورعاية خليفة المسلمين : (١)

ويا بلادى مالى كلمـــا نظرت   عيناى ما فيك من جند وأعوان
وسطوة الدخيل المعتدى اضطربت   روحى وقرح سكب الدمع أجفانى
واجر شـوقى إلى يوم أراك به   فى مأمن منه بل واطول تحنانى !
فلا نطيع سوى عبد الحميد ولا   نرضى أميرا سوى عباسك الثانى
هناك أهتف بالأشعار منتشيا   مهنئا أطرب الدنيا بألحـــانى
يا مصر دام لك النيل الوفى ولا   أقلتنى فيك غصن غير ريان

ويقول من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، يحض فيها المصريين على التمسك بعرى العثمانية داعيا عباساً إلى العودة لأحضان الخلافة بعد ما كان من جفاء . (٢)

إن الذى جعل الخلافة فيكم   جعل المـــودة والمحبة فينا
إن ائتلاف قلوبكم وقلوبنا   ليـــد أيديكم إلى أيدينا
يا آل مصر، وفى الحوادث عبرة   فتصفحوهـا اليوم معتبرينا
فدعوا القضـــية الخليفة عليكم   بعد الوداد إليهمُ تاجونا
ما كان من حرج على مصر إذا   جربتمُ بعـد الجفـاء اللينا

ويقول من قصيدة يهنىء فيها عباسا بعودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ ، مستبشراً بوصل ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبد الحميد مفنداً أقوال الذين يزعمون أن الاستعمار الإنجليزى العادل خير من عودة مصر إلى أحضان الحكم التركى الظالم ، مهاجما الإنجليز الذين استعدوا للحرب دفاعا عن مصر فيما يزعمون ، وكأنها قد وكلتهم فى الدفاع عنها . وليس معقولا أن يستعين عباس بعدوه على أهله(٣) :

---

(١) الديوان ١ : ٥٤   (٢) الديوان ٢ : ٢٢   (٣) الديوان ٢ : ٣٧

تغــدو مُتبُوعاً الخليفة علماً ... وتروح بالجمتم العلى مشغولا
هل بعـــد ما حدثته وشهدته ... بذلان يحسبه العـــداة عليلا
... صف الرعية كيف مكّن عرشه ... في المشرقين وشيـــد الأسطولا
وافضح عباداً يزعمون الشرّ في ... أن يستعيد إلى الفرات النيـــلا
م أرجفوا بالحرب يبتدرونها ... وتوهموا التدمير والتقتيـــلا
قالوا استعان بنا على سلطانه ... من أن يمد يداً إليـــه طويلَ
هل تستغيث بضيفك المملول(١) من ... أهليـــك والمولى الأعزّ قبيلا
متباينون هم ونحن شرائعاً ... وطبائعاً ومنـــازعاً وأصولا

ويقول رداً على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنما يريد أن يستبدل استعماراً باستعمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفتها ألمانيا من احتلال مصر بعد طرد الإنجليز . وذلك من قصيدة له في عيد جلوس الخديوى عباس(٢) :

ولأى ذنب صدَّ عنى معشرى ... يوم الحساب وخانني إخوانى
لم أدر من أغضبته وأثرته ... قومى ؟... أم الخصم الذى أعيانى ؟
أوَ كلما سمعوا بمصر منادياً ... قالوا أجير الترك والألمـــان
قومان متحـــدان يرتمهما على ... خصميهما وغداً سيختصمان
إن يرضيا - ومن المحال رضاهما - ... دفع المقيم ، فمن لنا بضمان ؟ ...
هلاّ تبدلتَ مسيطراً بمسيطر ... وتفر من نَهِـم إلى غرثان

يجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :

ماذا ينال التركُ من مصر إذا ... سلمتْ وساورها مغـــيرٌ ثانى
أتقول : غير صحيحة دعواكم ... فينا ، وإن ثقلتْ على الآذان ؟

ويقول ، من قصيدة كتبها في عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣ ،

(١) يقصد بالضيف المملول الاستعمار الإنجليزى ، وبالأهل : تركيا .
(٢) الديوان ٢ : ٤٠ .

وقسا فيها على الترك حين عاتبهم على تخليهم عن القضية المصرية ، بعد ما وقع من جفاء بين السلطان عبد الحميد والخديوى عباس بسبب جزيرة طاشوز :(١)

كنتم إذا ما شكونا جورَ غالبنا ... كذبتمُ وادّعيتم أنه بَطِرُ
واليوم لا نشتكى شُحّا ولا سَحَجا ... ولا نعوذ بكم مما أتى القَدَرُ
ولا نكلفكم حرب الطبيعة إذ ... لا بيضُكم عندها تُغنى ولا السمر(٢)
ولا سألناكمُ مالاً يكون لنا ... عونا ، فلسنا إلى ذى الفقر نفتقر
لكننا نرتجى منكم مجاملةً ... نسلو بها وعلى الأهوال نصطبر
بكى بنو الصين من أخبارنا جزعاً ... وما استفزكم من أمرها عبر
... هلا ذكرتم لنا صنعاً ومأثرة ... إن كان للذكر فى ألبابكم أثر ؟!
فكم جهرنا وأعلنا محبتكم ... رغم الذين بقاسى بغضكم جهروا
وأنذرونا(٣) فودناكم مظاهرة ... حتى اكتفيتم وما أغنتهم النُّذُرُ
ولا نمن عليكم أو نفاخركم ... بطلاتات أياديـنا ونفتخر(٤)
فالقوس منكم ، ومنا السهم والوتر ... والأسْدُ أنتم ونحن الناب والظفر
... ياآل عثمان والدنيا موليّة ... عنا وعنكم إذا لم تنفع العبرُ
وإن بقيتم على هجر فشملكمُ ... وشملنا شَذَرٌ بين العِدَى مَذَرُ
عودوا بلاداً أصيبت فى عزائمها ... وما لها وبنيها فى مُحتضَر
فلم يقم شعراء النيل موسمهم ... ولا استفزتهم الألقاب والبِدَر
قد كان ينظم درّ التهنئات فى ... فاليوم تنثر من أجفانى الدرر
... إنى وإن كنت فى سخط لمعترف ... بأنكم لو نصرتم مصر تنتصر

(١) الديوان : ١٠٥ وتراجع تفاصيل مشكلة طاشوز فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) البيض : السيوف ، والسمر : الرماح .

(٣) الضمير فى أنذرونا مقصود به الإنجليز الذين كانوا يحاربون النفوذ التركى فى مصر .

(٤) يشير إلى مساعدات مصر لتركيا فى حروبها .

وإن تغير ماضيكم بحاضركم ... فان تحل بقلبى المخلص الغيرُ
اضحت أيامى الأولى سدى فقدتُ ... تلومنى فيكم أيامى الأخرُ (١)

ويقول على الغاياتى ، من قصيدة له وجهها إلى السلطان عبد الحميد فى عيد الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ : (٢)

أمير المؤمنين مضت قلوبٌ ... إليك يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معيناً ... وأنت لها على الدهر المعين
وأمك أمامها الأمل المرجّى ... وفيك لدائها البرءُ المبين
فيا أمل القلوب ، إليك مصر ... تشير وبين جنبيها حنين
تحن إليك يا رب المعالى ... وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشرِّ قومٍ ... لهم فى كل مظلمة شئون
قضت فى عصرهم مصر ، ولولا ... رجاءٌ فيك ما قرّتْ عيون
فاعززْ يا حمى الإسلام شعباً ... بعزك لا يذل ولا يهون

* * *

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوروبية حين تتذرع بالدين فى طلب حماية الأقليات المسيحية فى البلقان ، فتثير فيها الفتن التى لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعاً فى اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم يخفونْ مطامعهمْ السياسية تحت ستار الدين .

يقول شوقى من قصيدة له فى الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ (٣) :

---

(١) كان من آثار عنف الكاشف فى هذا العتاب وخشونته أن لامه صديقه الشاعر محرم ـ إذ توهم أنه انصرف عن العثمانية إلى موالاة الانجليز فأجابه بقوله :

أتدرى بعذرى فى شكاتى وتعلم ... وتنكر لومى ؟ . . إنك الآن تظلم
توهمتَ أنى حلت عن مبدئى الذى ... نشأت عليه . . بئس ما تتوهم
فأخذتنى بالعتب عند وجوبه ... وعتبى على الترك انصراف إليهم

(٢) وطنيتى ص ٥٥ ... (٣) الديوان ١ : ٢٦٠

هب النسيم على مقدونيا بَرَداً من بعد ما عصفت بحرٍ سوافيها(١)
تغلي بساكنها ضِغْناً وثائرةً غلّ الصدور إذا ثارت دواعيها
عاثت عصائب فيها كالذئاب عدت على الأقاطيع لما نام راعيها
خلا لها من رسوم الحكم دارسها وغرها من طلول الملك باليها
فسامر الشر في الأجبال رائحها وصبّح السهلَ بالعدوان غاديها
مظلومة في جوار الخوف ظالمة والنفس مؤذية مَن راح يؤذيها
رثت لها وبكتها من رقةٍ دولٌ كالبوم يبكي ربوعاً تَعِرٌ باكيها

ويقول الكاشف، من قصيدة له في حرب البلقان سنة ١٩١٢، مشيراً إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان المسيحية من جرائم بشعة في التنكيل بجيرانهم من المسلمين(٢) :

صليبية يا قـــوم أم عنصرية حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك ؟
وجيرانكم أعداؤكم أم حماتكم ؟ وأعداء عيسى المسلمون أم الترك ؟
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا (٣) وهل كان من أخلاقه البغي والفتك ؟
أقـــرّ بأضغان النفوس ملوككم ومن كان في شك فقد ذهب الشك

ويقول من قصيدة أخرى في الموضوع نفسه (٤) :

أأصبر حتى يسقط العرش بينهم وتلتهم النيران تلك الخمائلا ؟
حيالي لمغلوبين عادوا مكايداً صليبية قبل الوغى وحبائلا
إذا استنجدوا بالمسلمين تخلفوا وكم وجدوا من قوم عيسى مُخاتلا
فيا آل عثمان انعاظاً فإنها تجاريب أيقظن الشعوب الغوافلا

---

(١) السافية : الريح التي تسفى التراب أي تثيره وتذروه، والجمع سوافٍ، يشير إلى هدوء الفتن بعد الدستور .

(٢) الديوان ٢ : ٢٢ (٣) الخنا : الفحش يشير إلى هتك أعراض المسلمات.

(٤) الديوان ٢ : ٢٤ .

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في عيد الدستور(1) :

عهد مضى — لا عاد — كبّل دولة الـ إسلام في الأغلال والآصار(2)
فرصت مقـاتلها يدُ الأطماع من دول كـأمثـنَ بجب الاستعمار
مذي تطالب بالدخول ، وهذه تحتال في وطر من الأوطار
لولا أمـير المؤمنين يحوطها ارأيتها خبراً من الأخبار

* * *

وذلك الذي أشرنا إليه منذ قليل من مهاجمة مصطفى كامل لمشروع الخلافة العربية الذي يراه إحدى دسائس الإنجليز للتفريق بين المسلمين ووضع خلافتهم تحت النفوذ البريطاني ، له نظائر في الشعر .

يقول شوقي ، من قصيدة « ضجيج الحجيج » التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة ، مما أدى إلى تهديد الحجاج ، طالباً إليه ألا يتهونَ في تأديب الثائرين ، وأن لا تأخذه بهم رحمة(3) :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها خليفة الله ، أنت السيد الحكَمُ
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ألشريف عليها أم لك العلَمُ ؟
... أدِّبه أدِّب ، أميرَ المؤمنين فما في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيـه وقاراً للرسول فما بينه البغاء وبين المصطفى رحم
... في كل يوم قتـال تقشعر له وفتنة في ربوع الله تضطرم
أذوى الشريف أحرابه الشريف بها وقسموها كإرث الميت واقتسموا
لا تجزم منك حلماً واجزم عنتاً في الحلم ما يسم الأفعال أو يصم

---

(1) الديوان ٩٤ .
(2) يشير إلى عهد الدسائس والجواسيس الذي سبق منح الدستور .
(3) الديوان : ٢٦٣ - ٢٦٦ .

كفى الجزيرة ما جرّوا لهـا سفهاً | وما يحاول من أطرافها العجم[1]
تلك الثغور عليها - وهي زينتها - | مناهل عذبت للقوم فازدحموا
في كل لج حواليها لهم سفن | وفوق كل مكان يابس قدم
والاهو أمراء السوء واتفقوا | مع العداة عليها ، فالعداة هم
جرد السيف في وقت يفيد به | فإن للسيف يوماً ، ثم ينصرم

ويقول حافظ ، من قصيدة يهنىء فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ويشير فيها إلى ما كان يضمره والى الحجاز والشريف من عصيان السلطان : [2]

منى على دار السلام تحيـة | وعلى الخليفة من بني عثمان
وعلى رجال الجيش من ماش به | أو راكب أو نازح أو دانى
وعلى الأولى سكنوا إلى الحسنى سوى | ذاك الذى يدعو إلى العصيـان
والى الحجاز الخارجيّ وما به | إلا اقتناص الأصفر الرنان
ما للشريف المنتمى حسباً إلى | خير البرية من بنى عدنان
أمسى يمالئه وينصر غيّه | وضلاله بعشائر العربان
تالله لو جندتما رمل النقا | ونزلتما بمواطن العقبان
وغرستما أرض الحجاز أسنة | وأسلتما بحراً من النيران
وأقمتما فيهـا المعاقل منعة | من أرض نجد إلى خليج عمان
لدهاكما ورماكما وذراكما | ماحى الحصون وماسخ البلدان
إن تأتيا طوعاً ، وإلا فأتيا | كرهاً بلا حول ولا سلطان

ويقول محرم من قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١٢[3] :

---

(١) يشير إلى مطامع الدول الاوروبية في بترول العراق الذى أصبح موضع تنافسهم منذ أول القرن العشرين . كما يشير إلى تسربهم للمحميات في جنوب جزيرة العرب ، والشواطىء الخليج العربي في شرقها . واصطناعهم أولياء من أمراء هذه البلاد .

(٢) الديوان ١ : ٤٩ . (٣) الديوان ٢ : ٣٧ .

ألا إن من شق العصا لمذمم ... وإن الذى يبغى الفساد لآثم
ومن كان يأبى أن يوالى إمامه ... طواعية والله والأنف راغم
سيعلم من خان الخليفة أنه ... مواقع أمر شره متفاقم
أطاع هواه واستزلته فتنة ... تعرض تلوّى فى لهاها الأراقم
له الويل ، ماذا هاج من نزواته ... فثار يرامى ربه ويراجم ؟
أيطلب مُلكا أم يريد خلافة ... تقام لها فى المشعرين المواسم ؟
تباركت ربى ،كيف يعصيك مسلم ... فيوقع بالإسلام ما أنت عالم ؟
تباركت ، إن المسلمين كما ترى ... تفاريق ، منها مستطير ورازم

ويقول مشيراً إلى أن قوة الترك وحسن بلائهم فى الدفاع عن الإسلام بما يجعلهم أحق من العرب فى القيام على خلافة المسلمين ورعاية شعوبهم : (١) .

أسد الخلافة إن دب الضراء لها ... عادى الثعالب أوضارى السراحين(٢)
صانوا عارمها بالبأس فامتنعت ... على المبيح وعافت خطة الهون
وألبسوها ثياب العز ضافية ... تمشى تجرّرها فوق العرانين
حاكوا سوابغها من نافذ ذرب ... وقاطع من سيوف الله مسنون
شدوا دعائمها من بعد ما اضطربت ... ودارکوها بتأييد وتمكين
تمر بالدهر والأحداث هازئة ... تخوض أهوالها شتى الأفانين
ما للخلافة إلا الترك تحرسها ... الله يحرسهم فى آل ياسين
وللأعاريب حق لا نضيّعه ... وإن رمينا بتفريط وتهوين
بنو أبينا وإخوان الزمان على ... ما كان من شدة يوماً ومن لين
منا ومنهم حماة الملك ، يجمعنا ... عند اللواءين عهد غير موهون

ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى عيد الدستور العثمانى ، (٣) يهاجم فيها

---

(١) الديوان ٢ : ٥٩
(٢) دب الضراء : أى مشى مستخفياً . والسراحين : الذئاب .
(٣) الديوان ٢ : ٢٨ — ٢٩

الثائرين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية ، ويقول : إن تعاليم الإسلام سوّت بين المسلمين ، ولم تختص بخلافتهم أمة دون أمة ، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها :

ما اختص أحمد بالخلافة أمة ... علماً بأن الدائرات تدور
أولى بها مَن صانها من بعد ما ... عبثت مقادير بها وعصور
وجلا السماءَ السيفُ وهي دجى كما ... ملأ الصرير الأرض وهي تمور
شقيت بما تتوهم الأعداءُ من ... هذا التراث ، وإنه لخطير

ويقول ، من قصيدة أخرى هنأ بها الخديوى عباس فى عودته من الأقطار الحجازية حين زارها حاجاً سنة ١٩١٠(١) :

يا ناصر الإســلام كيف مكانه ... من عرشه تلك اليد وهو العادل ؟ !
أينازعون على الخلافة قادة ... لولام غالَ الخــلافة غائل ؟
الله قدّرها لهم وأعدهم ... ما دام فيهم قارئ ومقاتل
فليسكن العرب الكرام إليهم ... وليهنئوا بأن يفديه المتطاول
هل يفتديها والخطوب جلائل ... من لم يصنها والخطوب قلائل ؟

يقول نسيم (٢) :

خليفة الله ، يا أخشى الورى ملكا ... له الظُبا والوغى والجحفل اللجبُ
إن المنابر — والعبادُ تكنفها — ... تختال باسمك ما قيلت بها الخطب
تتلى عليها عظات النسك مرشدةٌ ... حتى تزول بها الأحقاد والريب
مولاى ما فى ملوك الشرق قاطبةً ... سواك بينهمُ الملك منتخب
وليس فيهم سواك الدهرَ ذو لجب ... تعنو له الترك والأعجام والعرب
فهل يضرك غوغاء خليقتهم ... فى كل مأثرة يروونها الكذب ؟ !

* * *

(١) الديوان ٢ : ٦١

(٢) الديوان ١ : ٧٥

وكان الشعراء يثورون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ، ويرتفع صوتهم في كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

ينتصر الترك في حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقي بملحمته الحماسية الرائعة التي تفيض قوة ، والتي جاوزت مائتين وخمسين بيتاً(١) :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ويُنصر دينُ الله أيان تضرب

يشيد فيها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رءوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلا(٢) :

رفعنا إلى النجم الرءوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوِّب

ومن كان منسوبا إلى دولة القنا فليس إلى شيء سوى العز ينسب

وقد ردت هذه الحرب إلى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون — تحت تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم — أنها قد صارت إلى حال من الضعف والانحلال ، لا تستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد غلا بعضهم بعد هذا النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدويخ أي دولة أوروبية(٣) .

ويعلن السلطان عبد الحميد الدستور ، الذي سوى بين الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ فيرتفع صوت شوقي بقصيدته(٤) :

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وفيها يبين ما أفاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ، وما كان له من أثر في إطفاء الفتن التي لم تنقطع ، بعد أن سكنت إليه الشعوب العثمانية على اختلاف أديانها وأجناسها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها في المجلس النيابي . ويختم قصيدته بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لا ينبغي أن يكون داعياً إلى الخصام ، فكلها يدعو إلى الله ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

(١) الديوان ١ : ٧٥

(٢) « ١ : ٣٠

(٣) تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٩١١

(٤) الديوان ١ : ٣٥٨

ويسكت حافظ ، ولكنه يتكلم فى العيد الأول للدستور بعد عام ، ويلقى قصيدة فى حفل أقيم فى الأزبكية سنة ١٩٠٩ بعد عزل السلطان عبد الحميـــد ، مجداً الجيش التركى الذى تم على يده هذا الانقلاب الذى عم خيره كل البلاد العثمانية كما تزعم(١) :

أجل هذه أعلامه ومواكبه هنيئاً لهم فليسحب الذيل صاحبه
هنيئاً لهم فالكون فى يوم عيدهم مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله وتمت على عهد الرشاد(٢) رغائبه
تآلف فى ظل الهلال إمامه وحاخامه ــ بعد الخلاف ــ وراهبه

ويختم القصيدة بتهنئة السلطان محمد رشاد :

ليهنىء أمير المؤمنين محمـد خلافته فالعرش سعد كواكبه
ستملك أمواج البحار سفينه كما ملكت شم الجبال كتائبه
ممالكه محروسة وثغوره وكتائبه منصورة ومراكبه

ويذيع محرم قصيدته(٣) :

ومن يمنع الليث أن يمتز أو يلبا ما قيمة السيف إن جردته فنبا؟

وفيها يحث على تضامن الشعوب العثمانية من ترك ومن عرب فى سبيل رفع راية الإسلام .

ويقول الكاشف قصيدته(٤) :

دار الخلافة حاطك البسفور وأجل قدرك فى الورى الدستور

يشير فيها إلى فتن العراق واليمن التى يثيرها المنادون بالخلافة العربية فيضيفون إلى متاعب الدولة فى البلقان متاعب جديدة منادياً بأن خلافة المسلمين لمن يحميها

---

(١) الديوان ٢ : ٤٨
(٢) السلطان محمد رشاد هو الذى خلف السلطان عبد الحميد بعد عزله .
(٣) الديوان ٢ : ٤
(٤) الديوان ٢ : ٢٧

وأن اعباءهم لا ينهض بها إلا أقوام ، وبأن العصبية ليست من الإسلام ، مؤكداً حبه وولاءه لدولة الإسلام وخليفة المسلمين ، الذى تتجه إليه وحده أبصارهم فى سائر بقاع الأرض :

حوران مزدجر ومقدونية ثكلى وقد راع العراق نذير
وتنصلت صنعاء من فجاهار وأبى على المتطاولين عسير
لن يخلو البلقان من شر وإن ملأت ثراه جماجمٌ ونحور
من لم يطعك موفقاً مستغفراً فليبق وهو المرغم المقهور
المسلمون على اختلاف بقاعهم فى الأرض ما لهم سواك نصيرُ

ويرتفع صوت عبد المطلب بقصيدته :

يا عيد حيٍّ وأنت خير نهار عيدَ الحميد بدولة الأحرار

ويرتفع صوت الغاياتى بقصيدته :

أميرَ المؤمنين مضت قلوب إليك يحثها الحبُّ الكمين

ويقول عبد الحليم المصرى : (٣)

تهلل الحج والدستور رجب وطلعة العيد لاحت ثم لم تغب
عيد الخلافة عيد الدين ، زانهما عيد المالك من عجم ومن عرب
إن قيل فى مصر إن الترك قد ظلموا فرُبَّ ظلمهم أحلى من الضرَب (٤)
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما أمرّه إن يكن من غير مصطحب
بلوت يا مصر من ظلم الحبيب ومن عدل العدو ، فما يحلو لك اطلبى

ثم يلغى عبد الحميد الدستور الذى أصدره كارها ، بعد حملة صحفية شنعت بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم . ويلجأ زعماء الاتحاديين فى الجيش إلى العنف ،

---

(١) الديوان ٩٣ (٢) وطنيتى ص ٥٥ (٣) الديوان ١ : ٤٣

(٤) الضرب : بفتح الراء : العسل .

فيقتحمون الأستانة ويحاصرون يلدز ويشتبكون مع رجال عبد الحميد في معركة كبيرة تنتهي بالتسليم ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عدداً كبيراً يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية ـــ وكان الاتحاديون هم المسيطرين عليها ـــ فتقرر عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد في ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء في مصر بين مشفق على عبد الحميد يرثي له في بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التي انتهت به إلى هذا المصير ، وشامت به يشنع بما لقي خصومه على يديه من نكال :

أما شوقي ، فقصيدته في هذه المناسبة مشهورة : (١)

سلْ يَلدزاً ذات القصـور هل جاءها نبأ البدور

وهو يرى فيها أن السلطان عبد الحميد في موقفة أجدر بالرثاء لما آل إليه من ذل بعد عز ، فهو يعطف عليه في محنته ، ويحله من نفسه محلا كبيراً ، بين شماتة الشامتين ولوم اللائمين :

شيخ الملوك وإن تضعـ ـضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر المولى له والله يغفر عن كثير
ونراه عند مصابه أولى ببباك أو عذير
ونصـونه ونجله بين الشماتة والنكير
عبد الحميد ! حساب مثـ ـلك في يد الملك الغفور

ولكن ذلك لا يمنعه من أن يلومه لتمسكه بالحكم الفردي ، ومحاربته نظام الشورى الذي :

هو حكمة الملك الرشيـ ـد وعصمة الملك الغرير

كما لا يمنعه من الإشادة بالثوار الذين هبوا ـــ كما يقول ـــ لنصرة الحق ، وعرّضوا أنفسهم في سبيله للهلاك :

يا أيها الجيش الذى لا بالدَّعِيِّ ولا الفخور

(١) الديوان ١ : ١٣٦

يخفق فإن ريح الحمى / لقت البرية بالظهور
كالليث يسرف في الفعا / ل وليس يسرف في الزئير
الخاطب العلياء بالـ / أرواح غالية المهور
عند المهيمن ما جرى / في الحق من دمك الطهور

أما حافظ فهو شديد العطف على عبدالحميد في بلواه ، وقصيدته تفيض بالحزن على مصيره المؤلم (١) :

لا رعى الله عهدها من جدود / كيف أمسيت يا ابن عبدالمجيد(٢)
كنتُ أبكي بالأمس منك ، فمالي / بتُّ أبكي عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى / فيكَ قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم ، وليس من الهمّـ / ـة أن يشمت الورى في طريد
أنت عبد الحميد والتاج معقو / دٌ وعبد الحميد رهنَ القيود
خالد أنت رغم أنف الليالي / في كبار الرجال أهل الخلود

وهو يتناسى سيئاته ، ولا يذكر له إلا الحسنات ، قائلا إن الكمال في الدنيا محال:

لك في الدهر ـ والكمال محال ـ / صفحات ما بين بيض وسود
حاولوا طمس ما صنعتَ وودوا / لو يطيقون طمس خط الحديد(٣)
ولىَ الأمر ثالث قرن ينادي / باسمه كلُّ مسلم في الوجود
كلما قامت الصلاة دعى الدا / عي لعبد الحميد بالتأييد

---

(١) الديوان ٢ : ٤٣

(٢) الجدود: الحظوظ جمع جد بفتح الجيم ، وهو الحظ . عبدالمجيد: هو أبو السلطان عبد الحميد .

(٣) يشير إلى سكة الحديد التي أنشأها السلطان عبد الحميد بين دمشق والمدينة سنة ١٩٠٠ وتمت سنة ١٩٠٨ وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته ولتكاليفه الباهظة التي نهض بها عبدالحميد دون أي عون خارجي، مع سوء الظروف المالية التي كانت تقاسيها تركيا وطول الخط ١٢٠٠ ميل . وقد قدرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات ، اكتتب فيها المسلمون في سائر بقاع الأرض .

فاسم هذا الأمير قد كان مقرو نا بذكر الرسول والتوحيد

ولكن حافظاً يعود فيهاجمه بعد أن يفيق من هول المفاجأة في قصيدته التي ألقاها في الاحتفال بعيد الدستور العثماني في الأزبكية بعد عزله بثلاثة شهور (يوليو سنة ١٩٠٩) فيقول[1] :

ولم يغن عبد الحميد دهاؤه ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه دبابيره والأمر بالأمر حازبه
ولم يخفه عن أعين الحق مخدع ولا نفق في الأرض جم مساربه[2]
وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربه

أما الشاعر عزم فالوفاء يغلب عليه في قصيدته . وهو يرى الناس الذين كانوا يتزلفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيراً خالصاً يأكلون لحمه اليوم ولا يرونه إلا شراً صرفاً وكأنه يردد في نفسه قول الشاعر القديم :

والناس ، من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

يدافع عن عبد الحميد ، فيلقي تبعة ما يتهمه به خصومه من ظلم على عاتق بطانته[3] :

ترى عاثر الآمال يؤنسه الأسى وتوحشه أوطاره ومآربه
كأن جلال الملك لم يبد حوله مهيبا ولم تضرب عليه مضاربه
كأن السرايا والفيالق لم تسر إلى الموت تثني دونه من يحاربه
كأن رءوس الصيد لم تك تختشى لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كأن بغاة الجود والجد لم تفد عليه ولم تهطل عليهم مواهبه

---

(١) الديوان ٢ : ٤٨ .

(٢) يشير إلى ما عرف عن عبد الحميد من شدة حذره ، وكثرة ما أنشأ في قصوره من مخابىء وسراديب.

(٣) الديوان ٢ : ٨ .

كأن بناة الشعر لم تغش بابه
بمستعليات تزدهيها مناقبه

كأن الأولى زانوا المنابر باسمه
أحلوا بدين الله ما لا يناسبه

طووا ذكره واستودعوا الله عهده
وكل امرىء رهن بما هو كاسبه

* * *

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا
عليه وإن كانت قليلا معايبه

ألم يك ظلّ الله(١) بالأمس بيننا
نلوذ به والخطب تغشاك مذاهبه

أنطريه قبلا وتؤذيه مرّهقا
كفى الليث شرا أن تقتّل مخالبه

ألا راحمٌ هل من شفيع أما كفى ؟
أكلُّ بنى الدنيا عدو يغاضبه ؟

أكان يريد السوء بالملك ؟ أم يرى
تمسّكه فى أن تزينْ ترادبه ؟

أكل ماتيه ذنوب ؟ . أكله
عيوب؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟

أكلُّ ذو التيجان بالعدل قائم
أما فيهمُ من لا تعد مثالبه ؟

أليس الأولى فشوه أجدر بالأذى؟
وأولى الورى بالشر من هو جالبه

أما ولى الدين يكن — وهو ينتمى إلى حزب الاتحاد الذى قام بالثورة — فهو لا ينسى لعبد الحميد مطاردته لهم ، وما ذاقوا على يديه من نكال . فقصيدته كلها تشنيع بعهده الذى اقترن — حسن زعمه — بسيادة الجواسيس والجوارى وغلبة الهوى على الإنصاف . فهو شامت لا تختلج فى قلبه خلجة من رحمة ، ولا تفيض عينه بدمعة رثاء . ويزيد فى ثورة نفسه عليه أنه لا ينسى السنين الحالكة التى قضاها منفيا فى سيواس فلم يفرج عنه إلا بعد صدور الدستور . فقد كانت ذكرى هذا الاضطهاد عالقة لم تبرح ، وهو قريب عهد بها لم يمض عليها غير شهور . ولذلك فقد كان حنقه شديداً على شوقى فى قصيدته التى أشرنا إليها منذ قليل، فنقضها عليه بقصيدة من نفس البحر والقافية، يقول فيها : إنك تذكر آلام سكان القصور ولكنك تنسى آلام سكان القبور ، وتذكر ما وهب، ولكنك تنسى ما نهب. وتبكى عليه اليوم، وتنسى أنه أبكى بالأمس كثيراً من الأبرياء . فهو لا يذكر الرجل حسنة واحدة ،

(١) ظل الله على الأرض : لقب الخليفة التركى .

ولا يراه إلا شراً خالصاً ، بل لا يرى الذين يبكونه إلا من عباد الملوك ، الذين يندبون ما ضاع من هبات ذلك الطاغية المفسد(١) :

هاجتك خالية القصور ... وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى ... ونسيت سكان القبور
وبكيته بالدمع الغزير ... ر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير ... وناهب المال الكثير
حامي الثغور الباسما ... ت مضيع آهلة الثغور(٢)
أهدى الفتور لقلبه ... ما باللواحظ من فتور
واستنفرته عن الرضا ... يا كلُّ آنسة نفور
والجند عارية منا ... كبُها مقصَّمة الظهور
خمص البطون من الطوى ... دقت فعادت كالسيور
لله أجساد ثوت ... بين الجنادل والصخور(٣)
باتت على خشن الثرى ... من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة ... لفتى على تلك الزهور
كم خلفها من صبية ... يتمه ومن شيخ كبير
يترقبون مآبها ... إن المآب إلى النشور
من كان يستحل السرو ... ر يموت من تلك الشرور
لما أديل من السري ... ر بكاه عبّاد السرير
نذروا النذور لعوده ... هيهات يرجع بالنذور
أسفوا عليه وإنما ... أسفوا على المال الدثير

---

(١) الديوان ص ٣٠

(٢) الثغور الأولى : أفواه الحسان ، والثانية : البلاد التي على الحدود . يقول إنه كان يحمي النساء ، ولكنه كان يضيع الملك .

(٣) يشير إلى ما كان يشنع به الاتحاديون ويروجونه بين الناس من أنه كان يتخلص من خصومه برميهم في الأصفاد والأثقال وإلقائهم في مياه البسفور ، وهي شائعات لم تثبت صحتها .

طلبوا له عفو الغفور وشذ عن عفو الغفور
فالصُّ ظلالك راحلاً ودع البرية في الهجير .

* * *

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١ ، فتشتبك في حرب مع تركيا التي استنجدت بالدول الأوروبية ، فلم تجد منها إلا فتورا ، وتتألف في مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشىء الشيخ على يوسف جمعية الهلال الأحمر في ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ . ويتطوع في الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز(١) .

وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية في النفوس . فيلقى شوقي قصيدة في حفل جماعة الهلال الأحمر يحث فيها الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد(٢) :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به فالله قد جعل الإسلام بنيانا
البر شعب من الإيمان أفضلها لا يقبل الله دون البر إيمانا
هل ترجعون لعل الله يرحمكم بالبيد أهلا وبالصحراء جيرانا
في ذمة الله ، أوفى ذمة نفر على طرابلس يقضون شجعانا

ويقول حافظ قصيدته(٣) :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم وما استحلت من محارم :

كبلوهم ، قتلوهم ، مثلوا بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى !
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما(٤)

---

(١) مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٦٥ ، ٢٦٧
(٢) الديوان ١ : ٣٠٢ (٣) الديوان ٢ : ٦٦
(٣) الزمنى : ذوو العاهات ، جمع زمن على وزن كتف .

أحرقوا الدورَ ، استحلوا كل ما ... حرَّمت لاهاى فى العهد احتراما(١)

بارك المطرانُ فى أعمالهم ... فسلوه : باركَ القومَ علاما ؟!

أبهـذا جاءهم إنجيلهم ... آمراً يُلتقى على الأرض سلاما ؟!

ويسخر من الجيوش الإيطالية هازئاً : وقد وردت الأخبار الأولى بهزيمتهم :

خبِّروا فكتور(٢) عنـا أنه ... أدهش العالم حرباً ونظاما

أدهش العالم لما أن رأوا ... جيشه يسبق فى الجرْى النعاما

حاتمَ الطليان قـد قلّدتنا ... منّةً نذكرها عاماً فعاما

أنعمَ أهديت إلينا عُدّةً ... ولباسـا وشرابا وطعاما

وسـلاحاً كان فى أيديكم ... ذا كلالٍ فغدا يفرى العظاما

أكثروا النزهـة فى أحيائنا ... ورُبانا إنها تشفى السقاما

وأقيموا كل عامٍ موسما ... يشبع الأيتام منا والأيامى(٣)

لست أدرى ، بعدُ ترعى أمّةً ... من بنى الطليان أم ترعى سواما(٤)

وينشىء محرم ثمانىَ قصائد فى مناسبات مختلفة من هذه الحرب ،(٥) تفيض بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن حياضه ومدافعة أعدائه . يقول فى إحداها :

رويداً بنى روما فالحرب فتنة ... تهيِّج الظُّبا أطرابها واللهاذمِ(٦)

أولئك أبطال الخلافة تحتمى ... بأسيافها إن داهمتها العظائم

هم المانعوها أن يُقتسم فيئها ... وأن تستبَى بيضاتها والمحارمُ

أتذعن للباغى وتعطيه حُكمه ... وفى الترك مقدام وفى العُرْبِ حازم

(١) مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩ انعقد للقضاء على أسباب الحرب وتخفيف ويلاتها

(٢) ملك إيطاليا .

(٣) جمع أيم : بتشديد الياء وكسرها . وهى من لا زوج لها .

(٤) السوام : الإبل التى ترعى .

(٥) الديوان ٢ : ١٨ — ٣٩ .

(٦) اللهاذم : الأسنة القاطعة جمع لهذم على وزن جعفر .

هما أخورا العز الذى دون شأوه ... تخر الصياصى خشعا والخارم (١)
أقمنا على عهدَىْ وفاءٍ وألفةٍ ... فما بيننا قالٍ ولا ثمّ صارم (٢)
على طول ما قال الوشاة وخببت ... حقود الأعادى بيننا والسخائم (٣)

ويقول الكاشف (٤) :

المؤمنون إليك مستبقونا ... لذمارهم وديارهم حامونا
فاحشد كتائبك التى أعددتها ... للحق أبلجَ والرجاء متينــــا

ويقول فيها لإيطاليا : أبهذا العدوان الوحشى أوصاكم المسيح عليه السلام ؟

يا آل عيسى ما لعيسى لم يقم ... مستنكراً ما أنتمُ جانونا ؟
أوصاكمُ بالمعتدين ، فما لكم ... بالآمن المأمون فتاكينا
ماذا جناه المسلمون عليكمُ ... وهم على الأعصار مُقلّبونا ؟

ويهاجم فيها سياسة الإنجليز التى أكرهت مصر على الحياد :

وما للحيود وما لمصر ؟ وما بها ... إلا شجون تستثير شجــــونا
ما كان للمتطوع المختــار أن ... يشكو قيوداً أو يخاف ظنونا

ويذيع عبد المطلب قصيدتين طويلتين تزيد كل منهما عن مائة بيت . كتب الأولى فى ليلتين اثنتين كما يقول ، حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية على طرابلس فجاشت نفسه حزناً على أهلها : (٥)

بنى أمنا ! ! أين الخميس المدرب ؟ ... وأين العوالى والحسام المذرب ؟
إذا اهتز فى نصر الحنيف تساقطت ... نفوس العدا فى حده تتحلّب
خليلى ! ! مالى إذ تذكرت برقة ... بجنبى نيران الأسى تتلهّب ؟ !

---

(١) الصياصى : الحصون . الخارم : المسالك فى الجبال .
(٢) قلاه : كرهه . صرمه : قاطعه وخاصمه .
(٣) خببوا : أفسدوا . السخائم : جمع سخيمة وهى الحقد والبغض .
(٤) الديوان ٢ : ١٧ ... (٥) الديوان ٢٥ : ٣١

نعم . . . راعني من نحو برقة صارخ يهيب بأنصار الهلال : ألا اركبوا
دعا صاروخ الإسلام يا بني الهدى أغار العداه أين الحسام المشطّب ؟
كأنيّ به يدعو الخلافة مسمعا كأني به في المسلمين يثوّب (١)

وهو يعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلا : أين هذا من تعاليم المسيح ؟ ويسخر منهم قائلا إن كنتم راغبين حقاً في الجنة التي وعدكم البابا فنحن خليقون أن نقرّبكم منها :

إذا وقف البابا يبارك جندكم فما كل بابا للمسيح مقرّب
سلوه : أفي الإنجيل للحرب آية ؟ إذا كان في إنجيله ليس يكذب
لكم جنة الباب مآب . فإنما مفاتحها في أرض برقة تطلب
وإن لتدرى أسيافنا ورماحنا بأبوابها علماً ، هلموا جربوا
سلوا جنة البابا بماذا تزينت لتلقى الأولى في لجنة البحر غيّبوا
هلموا نقربكم إليها فإنما صوارمنا تدنى لها وتقرب

ثم أردف هذه القصيدة بالقصيدة الثانية بعد أن احتدم القتال بين الجيشين : (٢)

هي الهيجاء كم طحنت قرونا وكم سحقت حوادثها قرونا

وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوروبية عن عدوان إيطاليا ، ورضاهم عن مسلكها ، في الوقت الذي يهيجون فيه ويموجون حين يرتفع صوت من مستعمراتهم بالشكوى من ظلمهم :

وأهلُ الغرب في لعب ولهو على ما بينهم يتغامزون
دعونا المقسطين فما وجدنا وأشهدنا الملوكَ فأنكرونا
وهمنا ، حين خلفناهم عدولا بما شاء الهوى ، لايحكمونا
بغت روما فلم نسمع نكيراً ولو شاءوا سمعنا المنكرينا

(١) ثوّب الداعي : لوح بثوبه طلبا للإغاثة . (٢) الديوان : ٢٨٥

ولن نغضبْ ، زياداً عن حياض لنا هدمتْ ، إذا هم يسخطونا
ملوكَ الغرب ! ما هذا التمادى ؟ وما لِلحق بينكم مَهينَا ؟

أما ولى الدين يكن فهو يذيع قصيدة قصيرة فى ستة وعشرين بيتا عنوانها (ابْنِيك أماه دعوتِ الكرام)(١) :

من أين جدَّ اليومَ هذا الخصام يا أمَمَ الغرب نقضِ الذمام

وقصيدته تختلف عن سائر القصائد السابقة فى أنها تخلو من كل إشارة للإسلام، فهو لا يستنهض الهمم فيها باسم الدين ولكنه يستنهضها باسم الحمية للأرض الوطن . وذلك لأنه ينتمى إلى جماعة « تركيا الفتاة » أو حزب الترقى والاتحاد كما كانوا يسمونه فى بعض الأحيان ، الذى كان يدعو إلى القومية التركية الطورانية والذى كان يستبعد الإسلام من مقومات الوطنية .

* * *

ويضطرب البلقان فى أواخر ١٩١٢ ، حيث تقوم بلغاريا والصرب والجبل الأسود مطالبة باستقلالها الإدارى عن تركيا، مهاجمة أساليبها الإدارية فى الحكم ، وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل ، وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ فتنشأ اللجان والجمعيات فى مصر لجمع التبرعات ، وينعقد مؤتمر لندن فى أوائل ديسمبر للنظر فى المسألة البلقانية . ويظل يوالى جلساته حتى ٢٣ يناير . وينتهى إلى قرارات تقبلها الوزارة التركية القائمة وقتذاك أهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل . ويثور حزب الاتحاد على الوزارة فيسقطها ويستأنف القتال ، وترد الأخبار الأولى إلى مصر بانتصارهم ، فتقوم مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها(٢) . ولكن هذا الفرح لا يلبث أن يتحول سريعا إلى وجوم ، حين ترد الأنباء بتقهقر الجيوش التركية وسقوط أدرنة بعد حصار دام خمسة شهور أبلت

---

(١) الديوان ٤٨

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٨٨ وما بعدها .

فيه حاميتها أروع بلاء ، ويفزع المسلمون حين تتوالى الأنباء بتقدم جيوش البلقان ، وقد انفتح أمامهم الطريق إلى القسطنطينية بعد سقوط أدرنة حتى أصبحوا على أبوابها ، ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة فى الانتقام من سكانه المسلمين(١) .

وعند ذلك يرتفع صوت شوقى بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت ، يندب فيها مجد الإسلام الزائل ، وقد ذكّره تقلص ظله عن شرق أوربا وقتذاك بضياع سلطانه فى غربها حين طرد العرب من الأندلس . ولذلك سمّى قصيدته « الأندلس الجديدة »(٢) :

يا أخت أندلس عليك سلام	هوَت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها	طُويت وعمَّ العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه	قدَرٌ يحط البدرَ وهو تمام
جُرحان تمضى الأمتان عليهما	هذا يسيل ، وذاك لا يلتام(٣)
بكما أصيب المسلمون ، وفيكما	دفن اليراع وغيِّب الصمصام
لم يُطْوَ مأتمها وهذا مأتم	لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت	فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرونُ كليلةٍ وتصرَّمت	دولُ الفتوح كأنها أحلام

ويخاطب شوقى فى هذه القصيدة دعاة الهزيمة من ساسة الترك — وهم من الاتحاديين — الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير فى أن تتخلى عنه وتكفى نفسها هذه المتاعب التى لا قبل لها بها . قائلا : إن هؤلاء الذين يفكرون على هذا النحو هم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ، ويحلون المشاكل بالهروب منها بدل أن يواجهوها . وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة فى البلقان بدل التفكير فى التخلى عنه :

---

(١) حرب البلقان ص ١٧٧ وما بعدها ، صداقة أربعين عاما ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) الديوان ١ : ٢٨٧ ، ٢٩٥ .

زعموك همًّا للخلافة ناصبا ... وهل الممالك راحة ومنام ؟
ويقول قوم : كنت أشأم مورد ... وأراك سائغة عليك زحام[1]
ويراك داء الملك ناس جهالة ... بالملك منهم علة وسقام
لو آثروا الإصلاح كنت لعرشهم ... ركنا على هام النجوم يقام
وهم يقيده بعضهم بعضا به ... وقيود هـــذا العالم الأوهام
صور العمى شتى : وأقبحها إذا ... نظرت بغير عيونهن الهام[2]
ولقد يقام من السيوف، وليس من ... عثرات أخلاق الشعوب قيام

ويندد شوقى بالذين استغلوا اسم الدين فى الانتقام من المسلمين الآمنين ، والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام، والمسيحية منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء ، ولا كان داعيا لإباحة المحرمات ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاما :

أخذ المدائن والقرى بخناقها ... جيش من المتحالفين لهام[3]
قطعت به الأرض الفضاء وجوهها ... وكست مناكبها به الآكام
تمشى المناكر بين أيدى خيله ... أنى مشى ، والبغى والإجرام
ويحثه باسم الكتاب أقسة ... نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سخرت ... لهم الشعوب كأنها أنعام
من كل جزار يروم الصدر ... نادى الملوك وجده غنام[4]
سكينه ، ويمينه وحسامه ... والصولجان ، جميعها آثام
عيسى .. سبيلك رحمة ومحبة ... فى العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليك والأيتام

---

(١) يشير إلى تزاحم الدول الأوربية وتنافسها على مناطق النفوذ فى البلقان .

(٢) يقول : إن من أقبح العمى أن يسيطر الوهم على الإنسان ، فيرى الأشياء كما يصورها له وهمه لا كما تراها عيناه التى فى رأسه وكما هى فى الواقع .

(٣) لهام (بضم اللام) : أى عظيم كأنه يلتهم كل شىء . (٤) الغنام : راعى الغنم .

يا حاملَ الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم رحماً وباسمك تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصائب هم الإله وروحه ظلام (١)
خلطوا صليبك والخناجر والمدى كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمام

ثم يقدم صوراً من الجرائم المنكرة التى دفع إليها التعصب الذميم الذى يبرأ منه كل دين فيقول :

كم مرضع فى حجر نعمته غدا وله على حد السيوف فطام
وصبيةٍ هتكت خميلة طهرها وتناثرت من نوره الأكمام
وأخى ثمانين استبيح وقاره لم يغن عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامىء وأدوه لم يعطفهم جرحٌ دمٍ وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم والنطع إن طلبوا القرار مقام (٢)
يتلفتون مودعين ديارهم واللحظ ماءٌ والديار ضرام (٣)

ويحمِّل الشاعر الشرك فى ختام القصيدة تبعة تفريطهم فى هذا الملك الذى أسسه أجدادهم فضيعوه بتفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور ، وبتفريطهم فى نشر العلم وإقامة العدل .

ويكتب الكاشف فى هذه الحرب ثلاث مقطوعات قصار : (٤)

أولها : خطوبكم يا آل عثمان جمة ولكنكم أقوى عليها وأقدر
والأخرى: صليبية يا قوم أم عنصرية حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك ؟

(١) روح الله : هو المسيح عليه السلام .
(٢) النطع : قطعة من الجلد كانت تفرش لمن يضرب عنقه .
(٣) الديار ضرام : أى مشتعلة لأن جيوش البلقان أشعلت فيها النار انتقاما .
(٤) الديوان ٢ : ٢٣ — ٢٤ .

والثالثة : بأية عيد أنت يا عيد عائد   فيض لبارحــــأ لنا أم شمائلا

أما عبد المطلب فقد عبر عن حزنه ونفّس عن ثورته وصور ما عانى مسلمو البلقان من اضطهاد فى قصيدته : (١)

صريف المنايا أم صليلُ الصوارم؟   وليل الرّدى أم نقع تلك الملاحم

* * *

وترد الأنباء بعد هذه الكوارث المتلاحقة، المثبطة للهمم والداعية إلى اليأس بقدوم طيارين تركيين إلى مصر فى سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى. وتسقط بهما طائرتهما فى الطريق ويموتان ، فيعاود المحاولة زميلان آخران يصلان سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ فى نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد ويذيعون الشعر مهنئين ومعزين .

يقول شوقى : (٢)

يا راكب الريح حىِّ النيل والهرما   وعظّم السفحَ فى سيناء والحرَما
عاد الزمان فأعطى بعد ما حرَما   وتاب فى أذُن المحزون فابتسما
فيا رَعَى الله وفداً بين أعيننا   ويرحم الله ذاك الوفد ما رَحما
م أقسموا لتدينَنَّ السماءُ لهم   واليومَ قد صدقوا فى قبرهم قسَما

ويقول حافظ (٣) :

أهــــلا بأول مسـلم   فى المشرقين علا وطار
النيـــل والبسفور فيـ   ـك تجاذبا ذيلَ الفخار
يوم امتطيت براقك الـ   ـميمون واجتزت القفار

وفيها يدعو إلى الأخـذ بأسباب القوة فى عالم ليس فيـه للضعفاء مكان :

(١) الديوان ص ٢٧١
(٢) « « ١ : ٢٦٧
(٣) « « ٢ : ٧٦

والظلم من طبع النظا | م فإن ظلمت فلا تمار[1]
خلق الضعيف لخدمة الـ | أقوى ، وليس له خيار
فتفر يرهبك القو | ى وهن يلازمك الصغار
فى الأرض ما تبغون من | عـز وآمال كبار
فيها الحديد وفيه بأ | س يوم يشتجر الدمار
فيها الكنوز الحافلا | ت لمن تبصر واستنار
منها استمد قواه من | قهر الممالك واستعار
وبما احتوت رد العصي | ف الرأى غارة من أغار

ويقول عبد المطلب[2] :

وقفت لك الدنيا فسيرى | متسرى الضياء من الأثير
يا أخت سابحة النجو | م وبنت سابحة الضمير
من عهد آدم لم تزل | عذراء مسبلة الستور

وهو يذكر مجد الإسلام فى أكثر من موضع من القصيدة حيث يقول :

طير السلام بطائر الـ | إسلام والأسد المزير

وحيث يقول : يا طائر الإسلام يم | ـم بالعواصم والثغور
« « : يا دولة الإسلام هد | ى يا كواكبه أنيرى

* * *

كانت العاطفة الدينية إذن غالبة مسيطرة . وكان الدين والوطنية توأمان متلازمان، كما قال مصطفى كامل فى خطبة له سنة ١٩٠٠[3] وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مواجهة كروم الدائمة للمسلمين فى بعض تقاريره وفى كتابيه

(١) لا تمار : لا تجادل ولا تنازع يقول : إن نظام الكون كما خلقه الله ؛ يقوم على وجود القوى والضعيف ، وعلى التنافس فى طلب السيادة ، فلا تجادل فى ذلك.
(٢) الديوان ص ٩٥
(٣) مصطفى كامل ١٢٢

الذين ظهرا بعد مغادرته مصر عن (مصر الحديثة) و (عباس الثانى) (١)، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين ، ومواجهته للإسلام وتصويره دينا رجعياً لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق . كما أعان على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوربية للإمبراطورية العثمانية باسم الدين ، مجيِّشة لدول البلقان المسيحية (٢) . مما أثار شعور العطف على تركيا والالتفاف حول الخلافة، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع إلى مد يد المعونة لها فى كل حروبها وعنها بالمال وبالرجال ؛ وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين (٣) .

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر فمن بين هؤلاء الترك المستعربون ، أمثال شوقى ويكن والكاشف ، الذين تدفعهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين للأصل، والشعور بالانتماء السادة الحاكمين . فالكاشف يقول فى العيد الفضى للسلطان عبد الحميد (٤) :

تفانيت فى حبّيكم ؛ إننى لكم ... على النفس والأهلين والخلق مؤثر

ولا غرو إن غاليت فيكم لجامعى ... وإياكم دين وطبع وعنصر

أما ولى الدين يكن — مع ما هو معروف من مشايعته للاحتلال الانجليزى الذى كان يحمى أعضاء « تركيا الفتاة » من الاتحاديين فى مصر كما سنبين فيما بعد — فهو ينتمى إلى ذلك الحزب المشهور بعصبيته الطورانية. ولذلك فهو يرد على كاتب

---

(١) Modern Egypt ٢ : ١٢٩ - ١٥٤، عباس الثانى ص٤٥، ٤٨، ٥٣، ٥٩

(٢) تاريخ الدولة العلية ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٣) راجع فى الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٣٩ — ٢٤٣ وفى الحرب الطرابلسية سنة ١٩١٢ نفس المرجع ٢ ب : ٢٦٥ — ٢٦٦ . وفى حرب البلقان سنة ١٩١٢ ب : ٢٨٩ .

(٤) الديوان ١ : ٤٦ .

هاجم الترك فى جريدة المقطم بمقال يبدأه بالبيتين العربيين القديمين :

مهلا بنى عمنا ... مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

ثم يقول « شهد الله وكل عثمانى حر يكون قرأ لى شيئا أنى لا أتعصب للدين ولا للجنس ، أنا تركى وأبغض عباد الله إلىّ تركى يعتدى . أحب العناصر العثمانية كلها ، وآخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حباً خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق ، وأنا عربى الأدب والقلم ، عربى النزعة . ومن أبغض العرب فأنا مبغضه . أولئك إخوانى الذين أغنيهم فيطربون ، وأحدثهم فيقبلون علىّ بالسمع ؛ هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا .

غير أنى لا أكذبهم . إنى كذلك لا أحب من يسب الترك ولا من يكون لهم عدوا . وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب إخوانهم . وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعيا عليهما بالفشل جميعا .

زعم عزت الجندى أن الذين خانوا الدولة هم أتراك . ثم ذكر رجالا منهم محمد على الأول مؤسس الأسرة الخديوية بمصر، سامحه الله . إن محمد على خالى ، جدتى شقيقته ، ولا تصح شهادتى له . فأنا أدع الحكم فى وفائه وخيانته لأهل الإنصاف .

ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت أبا الدستور تركيان ، الصقوللى والكوبريلى أيضا تركيان . وغير هؤلاء كثير إن شاء الجندى ذكرت له أسماءهم وعددت ما تيسر من أعمالهم[1] » .

أما شوقى فهو الذى يقول فى مقدمة ديوانه الأول « أنا إذن عربى تركى يونانى جركسى[2] » وهو الذى يقول فى الحرب العثمانية اليونانية :

وزينب إن تاهت وإن هى فاخرت فما قومها إلا العشير المحبب

---

(١) الصحائف السود ١٠٧ — ١١١ (٢) الشوقيات طبعة ١٩١٢ ص ١٥

يؤلف إيلامُ الحوادث بيننا ويجمعنا في الله دين ومذهب

وشعره بعد هذا يفيض بالحنين الصادق والحماسة الحارة لكل ما يمت للترك بسبب .

ومن بين المعتقدين لفكرة الرابطة العثمانية والمؤيدين للنفوذ التركي رجال الدين ومن ذهب مذهبهم وأحس إحساسهم عن يؤيدون هذا النفوذ بدافع من الغيرة الدينية ، تحت تأثير الظروف المختلفة التي سادت العصر والتي أشرت إليها فيما سلف . وهؤلاء لا يهتاجون إلا لما يمس دينهم . ولا يرون بين الأقطار الإسلامية من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا ، لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية . ومن هؤلاء عبد المطلب الذي يلقب نفسه بشاعر الإسلام ، حيث يقول في انتصار الترك على اليونان :

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجلّ مقام(١)

ومن بين المؤيدين للنفوذ التركي وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون بأن لمصر كيانا مستقلا، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلا لمناوأة الاستعمار، ويرون أن التخلص من النفوذ التركي بعد ذلك أمر سهل ميسور ، وأن النفوذ التركي في حقيقته لم يكن قبل الاحتلال إلا نفوذاً إسميا . ومن هؤلاء مصطفى كامل ومحمد عبده وعبد الله النديم والبكري ومحرم والغاياتي .

أما مصطفى كامل فهو يجيب الأميرلاي بارنج (شقيق كرومر) حين لقيه في لندن سنة ١٨٩٥ فسأله عن جنسيته بقوله « مصري عثماني » ثم يجيب على تعجبه لجمعه بين الجنسيتين بقوله : « ليس في الأمر جنسيتان بل في الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية . » ولكنه يقول من خطبة له في الاسكندرية في سنة ١٨٩٧ : « إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزي ، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الانجليز في مصر.(٢) » ويقول من خطاب له إلى

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ٢٥٣

(٢) مصطفى كامل ٨٢

مدام جوليت فى هذا العام : « إنك تعلمين خطى نحو تركيا . وما أراه واجباً نحوها ؛ فقد فصحت عن ذلك فى خطبتى . واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز »(١) .

أما محمد عبده فهو يقول أثناء إقامته فى بيروت ١٨٨٦ : « إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته . وليس للدين سلطان فى سواها . وإنا والحمد لله على هذه العقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت »(٢) .

ولكنه كان يصرح بعد عودته إلى مصر بأنه يرى للبلاد العثمانية أن تنصرف إلى ترقية نفسها بنفسها من غير معاداة ولا مباراة لتركيا وأن تنتظر الفرص للاستقلال .

وقد سافر للأستانة ثم عاد منها كارهاً للترك مشنعا بفساد الإدارة وباستبداد السلطان عبد الحميد ، ولكنه لم يكشف عن عدائه لتركيا . بل ظل ـ على العكس ـ يصرح بأن الخلاف بين مصر وتركيا ، أو بين العرب وبين تركيا لا تستفيد منه إلا الدول الأوربية . وخصوصاً إنجلترا . ولذلك فهو يقول لرشيد رضا فى حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك فى حرب اليونان سنة ١٨٧٩ : « إن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها — وإن كان أكثرهم يحبها — وأنا أيضاً أكره السلطان . ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا ، فإنها سياج فى الجملة . وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود . فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء »(٣) .

أما عبد الله النديم فهو الذى يقول سنة ١٨٩٣ « يا بنى مصر ... ليعد

(١) مصطفى كامل ص ٨٣ وراجع كذلك الفصل الثامن عشر من نفس المرجع (مصطفى كامل وتركيا) .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٠٩
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١٢ - ٩١٥

المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطى والإسرائيلى تأييداً للجامعة الوطنية . ولكن المجموع رجلا واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين »[1] .

أما محمد توفيق البكرى فهو يقول فى حديث له مع مراسل النيويورك هرالد سنة ١٨٩٣ إن مبدأه هو « مصر المصريين » وهو ضد أى احتلال فرنسى أو إيطالى أو تركى ، كما أنه ضد الاحتلال الإنجليزى ، وأنه يعتقد أن البلاد قادرة على حكم نفسها .[2] وهو بعد هذا صاحب القصيدة المشهورة التى بعثها للسلطان عبدالحميد بعد حرب اليونان ، فقرئت فى محفل حافل وحفظت فى المكتبة السلطانية .[3] .

ومن المؤيدين للنفوذ التركى بعد كل هؤلاء ، هؤلاء عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ، ولا يعرفون لهم راعياً غير الخليفة إمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن وما الوطنية . فقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتذاك من مستحدثات الشباب الذى تعلم فى أوروبا ، حتى إن رشيد رضا ليقول فى مناسبة ذكر محاسن الخديوى عباس : (أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى فى عرف هذا العصر « بالوطنية »[4]) .

---

(١) سلافة النديم ٢ : ٧٨

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٧٤

(٣) شعراء العصر ١ : ١٩٥

(٤) تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ١٥٩

الفصل الثاني

الجامعة المصرية

إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب الذى كان ينادى بوحـــدة الشعوب الإسلامية ، ويستنهض الهمم باسم الإسلام ، ويرى أن النهضة الوطنية لا تتم إلا عن طريق الدين ، أو بمساعدته واستغلال سلطانه على النفوس على أقل تقدير ؛ إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب ، كانت هناك دعوة ناشئة تنادى بالقومية المصرية ، وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية فى الأمة ، التى تقوم — حسب تصورهم — على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية، ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية .

كانت هـذه الدعوة صدى للإتجاه العالمى نحو فكرة القومية فى القرن التاسع عشر . وكان المبشرون بهـــذه الدعوة فى مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبى كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم . وقد نشأت هذه الفكرة الجـــديدة نتيجة للتوسع الاستعمارى الذى تلا اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تمسها يد فى أمريكا وأواسط أفريقيا ، أصبحت ميدانا للتنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية . وكانت حرب أمريكا فى سبيل استقلالها والثورة الفرنسية من بعدهـا فى ختام القرن الثامن عشر هى نقطة البداية لهذه الحركة التى اتخذت شكلا عنيفاً ، وأصبحت العقيدة التى تدين بها الشعوب الأوروبيـة الصغيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .(١) فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية فى الدول الكبرى التى تنطوى تحتها ، لتسوقها إلى الحروب حين تشاء ، وتحملها تبعتها من دماء ومن أموال .

---

(١) ه ج . ولز ٤ : ٩٢٠ — ١٠٦٣

نشأت مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد ، وكان ذلك نتيجة للتقسيم الصناعي الذى تسمح فيه الجماعات البشرية فى دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الامبراطوريات الكبرى أنه يحقق مصالحها . واصطبغت كل مجموعة من هذه المجموعات افكرة الوطن والقومية ، واندفعت فى حماس عاطفى بالغ لتحقيقه والدفاع عن كيانه ، واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التى كانت تنطوى تحتها ، مطالبة بحقها فى الاستقلال الكامل بتدبير شئون نفسها داخل حدود ذلك الوطن . والمتدبر لحروب القرن التاسع عشر يجدها فى مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية . التى كانت سبباً فى تقويض الإمبراطوريتين النمسوية والعثمانية ، والتى قامت على أساسها الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، والتى ارتفعت على أساسها أصوات جديدة تنادى بالوطنية والقومية من التشيك والسلوفاك والرومانيين والبولنديين (١) . وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة يغذون فكرة القومية الجديدة التى تستند إلى ما غرسته الثورة الفرنسية فى النفوس من معالم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية التى أيقظت الشعور القومى وروح التمرد فى الشعوب حتى أصبح التغنى بمجد الوطن والتضحية فى سبيله هو الأغنية الرومانسية (الرومانسية) المحببة التى ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد والمال وبالروح فى سبيل مجد هذا الوطن الذى اتجهت إليه عواطف الناس ، وكأنما هو معبود جديد هدام إليه نبى جديد .

كان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة فى مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبى كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم وشعرهم . ولعل من أوضح الشواهد على ذلك ما جاء فى مقال لعبد العزيز جاويش نشره فى صحيفة العلم سنة ١٩١٠ وعنوانه « الحركة الوطنية فى مصر » حيث يقول : (٢)

---

(١) عصر الخرافة ٢ : ٢٦ — ٢٧

(٢) صحيفة العلم العدد الأول ٧ مارس سنة ١٩١٠

« وسألني قوم أن أشرح لهم ما علته من أمر الحركة الوطنية ومبدأ خبرها وسر سياستها . وقد نبههم إلى ذلك ما قرأوه من الحوادث الخطيرة التي جرت هذه الأيام الأخيرة في القطر وما ردده الجرائد من توقع حدوث أمور ذات بال وبما فهمت من أسلوب حكومته وبدلت من أوضاع سياسته .

« إن الشعور بالوطنية اصطلاح أفرنكي انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوي العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التي اهتدى إليها أهل الغرب » .

ونستطيع أن نقول : إن هذه الحركة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العرابية وكانت هذه الثورة صوتها القوي ويدها الباطشة وقوتها المنفذة . وتمثلت هذه الدعوة في جمعية (مصر الفتاة) السرية ، التي تألفت في الاسكندرية(١) ، والتي أصدرت صحيفة باسمها الدعوة إلى الحرية(٢) ، وفي بعض الصحف الثائرة التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها في حقوق البلاد ، مثل صحيفتي (مصر) و (التجارة) لأديب إسحق(٣) . وفي (الحزب الوطني) الذي تألف قبيل الثورة العرابية من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك(٤) .

وخير ما يصور هذه الدعوة في ذلك الوقت مقال لمحمد عبده لنشرته الوقائع

---

(١) زعماء الاصلاح ١١١، ١١٢ (٢) الثورة العرابية ٧٢ (٣) المرجع نفسه ٦٩

(٤) المرجع نفسه ٧١، ٧٢ والتشابه بين جمعية (مصر الفتاة) التي حركت الثورة العرابية وكانت نواتها ، وبين جمعية تركيا الفتاة التي حركت الثورة التي انتهت بخلع السلطان عبدالحميد والتي كان الانقلاب الكمالي بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها . هذا التشابه بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منهما ، مع الاتفاق الزمني ، لأن مؤسس تركيا الفتاة ، على ما هو معروف ، هو «مدحت» المعاصر للثورة العرابية ، يوحي بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا من الماسون . وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادىء الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكريها من الماسون أيضاً. ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ. وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحيطها من غموض فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأمثالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه .

المصرية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفانى فى حبه والذود عنه ، بدأه بتعريف الوطن فقال (١) :

« تقرر بما سلف أن لا بد لذوى الحيـاة السياسية من وحـدة يرجعون إليها ، ويعتصمون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلدا ، وأن خير أوجه الوحدة : الوطن ؛ لامتناع النزاع والخلاف فيه . ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هـذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه :

الوطن فى اللغة على الإنسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها : أى اتخذوهـا سكنا . وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه نفسك وآلك ومالك ، ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لابرويير الحكيم الفرنساوى : لا وطن فى حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصـــالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذى فيه المرء حقوق وواجبات سياسية » . ثم يقول : « أما السكن الذى لا حقّ فيـه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المال والروح ، فغاية القول فى تعريفه أنه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلا . فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لا برويير السابق الذكر : ما الفائدة من أن يكون وطنى كبيراً إن كنتُ فيه حزينا حقيراً ، أعيش فى الذل والشقاء خائفاً أسيراً ؟ .

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة مدوطة بأهداب الشرف الذاتى ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى إليه ، وإن كان سيء الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل فى مثل هـذا المقام : إن ياء النسبة فى قولنا مصرى وانجليزى وفرنسوى ، هى من موجبـات غيرة المصرى على مصر والفرنساوى على فرنسا والإنكليزى على انجلتره ... فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هـــذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٩٤ — ١٩٦

ويشرب مريئا ، ويبيت فى الأهل أمينا . وهو مقامه الذى ينسب إليه ، ولا يجد فى النسبة عاراً ولا يخاف تعييرا . وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية » .

ويختم محمـــد عبده مقاله ببث الأمل فى نفوس المصريين والرد على المثبطين للهمم ، الذين لا يزالون يعتقدون بأن المصرى قد ألف الذل وتعود احتمال الظلم بما لا يدع مجالا للأمل فى بعث الشعور بالوطنية فيه ، ضارباً المثل بفرنسا التى كان شعبها يعانى الرق فى ظل النظام الإقطاعى ، ثم لم يمنعه ذلك أن ينال حقه . وفى هـذه الفترة يبدو أثر حركات الاستقلال والمطالبة بالحرية التى سادت أوروبا فى القرن التاسع عشر . إذ يقول :

« ولقـــد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر وإلباسهم جميعا لباس الجهالة والذل ؛ ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأيا عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لايزالون يقرعون أسماعنا بما يكررون من سفساف القول ، من مثل : إننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخـدمة والرق ، فإن يستقل لنا رأى ؛ وأن نهتدى سبيل الحرية . كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً ، وكانوا فى قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين : أحرار يظلمون ، وعبيد يطيعون . أولم يكن فى بلاد الفرنسيس من قبل هـذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون فى الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات . أو لم يقل كاتبهم فولتير فى وسط المائة السابقة : «لا يزال فى بلادنا ستون ألفا أو سبعون ألفا عبيداً للرهبان » .

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وأن يروا أمثال تيارس وجريفى وغامبتا من أبناء الذين كانوا من قبل عبدا نا أرقاء ؟

ولئن كان فضل هـذه المائة أن يكتب فى صـــدر تاريخها تحرير أرقاء العصر

السالف ، فلقد رجونا — وحقق الله هذا الرجاء — أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء فى هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاما » .

ولكن الذى يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التى تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن فى هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم . فقد كتب بعد ذلك بسنوات ثلاث مقالا فى صحيفة العروة الوثقى عنوانه « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » . تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط ، واستعرض آراء المصلحين ، فقال : إن بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنهـا تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق وفريق آخر يرى أن شفاءها من هـذه العلل القاتلة يتم بإنشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف فى أوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد . وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذى يذهب فيه إلى أن انتشال الأمة الإسلامية عما هى فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين[1] .

يقول محمد عبده فى تفنيد آراء الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية :

« شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدنا ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ، فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها . وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون . ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ،

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٢ — ٢٣٦

وبدلوا هيئات المأكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوهـا من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة ، بما يروق منظره ولا يحمد اثره . . وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها . وماكان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيها على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . » .

وهذا المقال يدعونا إلى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية في مقال محمد عبده في الوقائع المصرية . وهو — مع ما سبقه وما تلاه من كتابات محمد عبده — يدعو إلى التفكير في تعليل ما يسود آراء محمد عبـــده من تباين واختلاف يبلغ حد التناقض في بعض الأحيان . ومهما يكن من أمر، فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليـه الآن كانت قـــد نشأت ، وكان لهـا دعاة من أصحاب الثقافات الأوروبية ، المعادين لفكرة الرابطة الإسلامية . وهم الذين عناهم محمد عبده بالفقرة التي اقتطفناها من مقاله . وهم الذين يهاجمهم أيضا في مقال آخر له عنوانه (التعصب) حيث يقول[1] : « أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير . فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوهـــا أو خاتمتها ، يعدّون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعا لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسداً منيعا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل . والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون في تقليـدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل . هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجـديد . فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويرمون السبال ، وإذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظه الإفرنجي: (فانا تيك) » .

ثم يبين أن التعصب هو الرابطة التي شكل الله بها الشعوب ، ويقول : « إن

---

(1) تاريخ الأستاذ الإمام : ٢ : ٢٤٩ — ٢٥٨

الشعوب تظل بخير ما بقيت قوة الربط بين أفراد الأمة ، فإن ضعفت تداعى بنيانها للانحلال ، ثم يقول :

« التعصب كما يطلق ويراد به : النعرة على الجنس ، ومراجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد . كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً . والمتنطعة من مقلدى الإفرنج يخصون هذا النوع بالمقت ، ويرمونه بالتعصب . ولا غال مذهبهم هذا مذهب العقل فإن للحمية يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر . وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإسلامى » .

« تشدق جماعة من متزندقة هذه الأوقات في مفاسد التعصب الدينى . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأى أولئك المتفيهين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو آثارها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم » .

ثم يبين أن الدين أعظم مقوم للخلق ، وأن الغلو الذى يطرأ على العصبية الجنسية الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الدين ، كالغلو الذى يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الجنس واستبعادهم . ويبين أن الدعوة إلى التعصب في الجنس الذى يسمونه (الوطنية) إنما يروجه الإفرنج الذين يريدون أن ينقضوا أبناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبهم ليسهل عليهم استعمارها . وأن المغفلين من المسلمين الذين لبوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التى يسمونها الوطنية .

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوربى ، ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين فى أذهان كثير من الناس ، كما يبدو من كلمات محمد عبده وكما يبدو من قول البارودى وهو فى منفاه : (١)

لم أقترف زلةً تقضى علىَّ بما أصبحتُ فيه فماذا الويلُ والحربُ؟(٢)

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ذنب أدان به ظلماً وأغترب ؟ !

ومن قوله فى قصيدة يهنىء فيها الخديوى توفيق بعيد جلوسه قبيل الثورة ، مثنيا عليه أسنَّه نظام الشورى استجابة لرغبات الأمة ، حيث يشير إلى المصريين بقوله « أمة أحمد » (٣) :

وتمتعتْ بالعـــدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتـــد

فحباك ربُّك بالجميل كرامةً لجزيل ما أوليت « أمة أحمد »

* * *

تصور هذه المقتطفات التى قدمناها أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ فى الظهور قبيل الثورة العرابية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجة تسلط العنصر التركى واستئثاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . وربما كانت الناحية الأخيرة هى المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم فى مقابلها حقوقا ، ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال فى أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها فى مقابلها .

وشعر البارودى من أصلح الأمثلة لهذا اللون من التفكير الذى يستهدف رفع الظلم عن الشعب المستعبد الذى لا يقام لمصلحته وزن .

---

(١) الديوان : ٣٧

(٢) الحرب (بالتحريك) : الويل والغضب .

(٣) الديوان ١ : ٢

يقول من قصيدة يحض فيها الناس على المطالبة بحقوقهم والجهاد فى سبيل الحصول عليها ، مذكراً بمجد مصر القديم ، وذلك فى حكم إسماعيل (١) :

حلبتُ أشطرَ هذا الدهر تجربةً ... وذقت ما فيه من صاب ومن عسل
فما وجدتُ على الأيام باقيةً ... أشهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض الشرِّ فى زمن ... أهلُ العقول به فى طاعة الخَتَل (٢)
قامت به من رجال السُّوءِ طائفةٌ ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضا ويلفظه الديوان من مَلل (٣)
ذلت بهم مصر بعد العزِّ واضطربت ... قواعدُ المُلك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولةُ الفسطاط خاضعة ... بعد الإباء ، وكانت زهرة الدول
بئس المشيرُ وبئست مصر من بلد أضـ ... ـحت مُناخاً لأهل الزور والخَطَل (٤)
أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل (٥)
وأصبح الناس فى عمياء مظلمة ... لم يخطُ فيها امرؤ إلا على زلل (٦)
لم أدر ما حلّ بالأبطال من خور ... بعد المراس وبالأسياف من فلل (٧)
أصوَّحت شجراتُ المجد أم نضبت ... غُدْرُ الحمية حتى ليس من رجل (٨)
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت ... كَسْر العفافة من جبن من غزل

(١) الديوان ٢ : ٢٢٦ — ٢٥٠   (٢) الغرض : الهدف . الختل : جمع خامل .

(٣) الدست : صدر البيت والمجلس ، والمقصود به هنا الديوان ومجلس الوزارة والرياسة . وهى كلمة فارسية الأصل .

(٤) الخطل : فساد الرأى   (٥) تأثل : أى تأصل وعظم .

(٦) أصبح الناس فى عمياء : أى فى فتنة عمياء مظلمة .

(٧) الخور (بفتحتين): الضعف . المراس (بكسر الميم): البأس والشدة . الفلل (بفتحتين) : ثلم حد السيف .

(٨) صوحت : يبست . نضبت : جفت . الغدر : جمع غـــدير وهو ما يغادر السيل من ماء .

هيهات يلقى الفتىَ أمناً يَلَذُّ به ... ما لم يخض نحوه بحراً من الوَجَل(١)
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسُكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل(٢)
وتلك مصرُ التى أفنى الجلادُ بها ... لفيف أسلافكم فى الأعصُر الأول
قوم أقروا عمــادَ الحق وامتلكوا ... أزمَّة الخلق من حاف ومنتعل
جنوا ثمار العُلا بالبيض واقتطفوا ... من بينه شوك العوالى زهــرة الأمل
فأصبحت مصر تزهو بعد كدرتها ... فى يانع من أساكيب الندا خضِل
لم تنبت الأرضُ إلا بعد ما اختمرت ... أقطارُهــا بدم الأعناق والقُلل(٣)
حتى إذا أصبحت فى معقل أشب ... يرد عنها يد العادى من الملل(٤)
أخنى الزمان على فرسانهــا فغدت ... من بعــد منعتها مطروقة السبل (٥)
فأى عار جلبتم بالخمــول على ... ما شاده السيفُ من فخر على زحل

ويقول فى قصيدة أخرى من قصائده المنفى (٦) :

أبى الدهرُ إلا أن يسُود وضيعُه ... ويملك أعناقَ المطالب وغده
تداعت الدَّرْكِ الثأر ثُعالةٌ ... ونامت على طول الوتيرة أسدهُ(٧)
ختام نسرى فى دياجــير محنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمدُه
إذا المرءُ لم يدفع يدَ الجور إن سطت ... عليه فلا يأسف إذا ضاع مجدُه
ومن ذلَّ خوفَ الموت كانت حياته ... أضرُّ عليه من حِمام يَؤُدُه
وأقتلُ داءٍ رؤية العين ظالما ... يسىء ويُتلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا؟! ... أيفرح فى الدنيا ليوم يعدهُ ! !

---

(١) الوجل . الفزع . (٢) الغواشى : جمع غاشية وهى الغطاء
(٣) القلل : جمع قلة (بضم القاف) وهى الرأس . (٤) أشب : حصين .
(٥) مطروقة السبل : أى أنها أصبحت تطأها الأقدام وانتهك الناس حرمتها بعد منعتها .
(٦) الديوان ١ : ٧٢ .
(٧) تداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً . ثعالة : علم لأنثى الثعالب ، لا ينصرف . الوتيرة : الثأر .

يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه كذى جرب يلتذ بالحك جلده

كذلك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك ، فكرة تحاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم . ودعوة إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم والاستبداد . ثم تطورت الفكرة على أيدى أصحاب الثقافة الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويفرق كلمتها ويهدم تعاطفها ويضعف تكتلها بما يعرضها للسقوط تحت أقدام الدول الاوروبية الطامعة ، واحدة تلو الأخرى .

وربما كان صالح مجدى[1] من أسبق الشعراء فى العصر الحديث إلى ترديد كلمات الوطن والوطنية فى شعره . وله فى آخر ديوانه خمس عشرة مزدوجة سماها « الوطنيات » ، امتدح فيها سعيد باشا والى مصر ، وعرضت عليه فأمر بتلحينها والتغنى بها بمصاحبة الموسيقى العسكرية فى المحافل والمواسم . وهو فى هذه الوطنيات يشيد بالوطن محاولاً أن يغرس حبه فى القلوب، ويتغنى بأمجاد الأجداد ، ويفاخر بجيش البلاد ، مبرزا قوته ، معتدا بشدة بأسه . ولكنه يربط كل ذلك بشخص سعيد ، ويجعله سبباً للتعظيم من شأنه ، وتحبيبه إلى أبناء جنسه .

فمن ذلك قوله فى الوطنية التاسعة :

بامتداح الصدر غنوا فهو للأوطان حصن
وهو للإيمان ركن ولكم فى الخوف أمن
فى ميادين الوقائع
فى الوغى أنتم أسود يا بنى الأوطان سودوا

---

(1) السيد صالح مجدى : شاعر مصرى المولد مكى الأصل ولد سنة ١٨٢٥ م وتوفى ١٨٨١ م . تقلب فى عدة مناصب بين عسكرية وتعليمية وهندسية وإدارية ، وخلف كثيراً من الكتب بين مترجم ومؤلف فى الرياضة والهندسة والميكانيكا والفنون العسكرية . وترجمته الكاملة فى الخطط التوفيقية . نستطيع أن نجد أمثلة لهذه النزعة الوطنية فى شعر رفاعة الطهطاوى الذى تتلمذ السيد صالح مجدى عليه .

ولهـــا بالرّوح جودوا وادخلوا الأحشاء وصيدوا
صيدها يومَ الوقائع

واستمدوا الكفاح في مساهما والصباح
واطلقوا خيلَ الفلاح في ميادين النجاح
وادفعوها في المسامع

وانصروا الدر بنـدا وانصروا الصدرَ المفدى
واسلكوا الدربَ الأسدّا واقمعوا الخصمَ الألدّا
واقطعوا منه المطامع

يا بني الأوطان هيا خيّموا فوق الثريا
واهجروا النوم مليا واطعنوا الضد الأبيا
واجدعوا أنفَ الممانع

ومن ذلك قوله في الوطنية الخامسة عشرة :

فالصادمُ في أثر المدفع لعدو عذول يصدّع
وعن الأوطان به تدفع من جاء بلا عقل يطمع
فيها ابلاء تمقدور

لبتلاء فيوشا يرصده بأليم عذاب يقصده
وهوان هوان يحصده منْ طوبجيٌ تزمى يداه
لعدو الله المغرور

من طوبجى بالداغات يقتال زعيم القادات(١)
أو خيّال في الهيجات يستأصل في غصن الهامات
بحسام ماض مشهور

أو زنجى بالمزراق لا يطعن غير الأحداق

---

(١) الشعر كما هو ظاهر — ملىء بالمصطلحات الأعجمية وبالكلمات الجارية على ألسنة العامة . وأكثرها يرجع إلى أصل تركى .

أو أوجى ســام راق ما يدفعــه أبداً راق
من مهجة خصم شرير
أو زريخ تهدم بالخيــل الكبسة فى جنح الليــل
فتزعزع أركان القول وترد الصاغ إلى الصول
وأمود بنصر مأثور
أو قراب بين الصف يرمى برصــاص للحتف
فيصيب الرأس مع الأنف ويشوش نظم الصــف
فى موقف هول منكر
أو ذى لغم بالحلقوم لا يطعم غير الزقوم
ويسد بوغاز الحلقوم من جيش باغ مذموم
مطرود دوماً مدحور
أو كبرىٌّ فوق البحر لا يُنصَب إلا بالأمر
وإذا ما ساروا فى البر حملوه كأثقال الجسر
مطوياً على المشهور
أو ذى علم عند الخطب بدقائق هندسة الحرب
يتصدى فى يوم صعب لاستكشاف الوضع الصعب
فى غفلة جيش محصور

ومن الواضح أن الصياغة أو الألفاظ ليست هى التى تلفت النظر فى شعر صالح مجدى ، فهو قليل الحظ من هذه الناحية ، لا يقارن بشاعر كالبارودى . ولكن الذى يلفت النظر فى شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية ، التى تعتز بمصر وبجيش مصر ، وتمتلىء حماساً للحرب والقتال فى سبيل مجد الوطن ورفعته . وذلك فى وقت لم يكن للشعراء فيه من هم أو موضوع إلا التافه الرخيص من الأغراض .

ثم انشغل الناس بما كان من فشل الثورة العرابية واحتلال مصر . ففترت الحركة زمناً، وركدت ريحها ، وقد دها الناس ذلك الخطب الجديد، فامتلأت قلوبهم رهبة من السياسة ، وهيبة من الاشتغال بها . ومن مثل مصير عرابي وصحبه ، وقد أصبح الأمر كله بيد الإنجليز .

ولم يزل الناس في دهشتهم حتى أفاقوا على صوت المنادين الذين ينبهونهم من غفلتهم في أوائل القرن العشرين . وكان قادة الحركة الجديدة طائفة من الشباب المثقف ، اختلفوا في مناهجهم وأساليبهم . فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعلق بالجامعة الإسلامية سبيلا إلى ذلك . ومنهم من نهج نهجاً جديداً جريئاً فنادى بالجامعة المصرية . محاربا فكرة الجامعة الدينيه والرابطة العثمانية . وكان الفريق الأول — ممثلا في الحزب الوطني ، وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل — يتحدث عن الوطن والوطنية حديثاً عاطفياً ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ليُحِلَّ الوطنَ منها محل الدين كما يقول شوقي في قصيدته التي لحيا بها الوطن بعد عودته من منفاه :

ولو أني دُعيتُ لكنتَ ديني   عليه أقابل الحَتْمَ المجابا
أدير إليكَ قبل البيت وجهي   إذا فُهتُ الشهادة والمتابا

وكان الفريق الآخر — ممثلا في حزب الأمة ، أو في شبابه المثقف بتعبير أدق — يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، فهو لا يستهدف إثارة الناس ، ولكنه يحاول إقناعهم . وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ، ولكنه يتحدث عن النفع المادي والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه . وكلا الفريقين كان متأثراً تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبي وبالدعوات القومية التي أصبحت بدع العصر في القرنين التاسع عشر والعشرين . بيد أن الفريق الأول قد حور ما نقل بما يلائم الظروف السائدة وقتذاك ، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيماناً شديداً ، بينما نقل الفريق الآخر هذه الدعوة

الأوروبية نقلاً أميناً — أو أعمى إن شئت — لا تحريف فيه ولا تبديل فجاً به السامعين .

يقول مصطفى كامل ، من خطبة له في حديقة الأزبكية سنة ١٨٩٧[١] :

« إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة . وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية ، ما هو إلا ثمار الوطنية ، أصبح اليوم الوطن المصري ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلاً وإنصافاً . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل . ولا ريب أنكم معشر المتعلمين ، معشر النابغين في المعارف والآداب ، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية . فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية ، وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم ، وإخلاصاً لأوطانهم خيروا بموتهم ، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه » .

ويقول من خطبة له في الإسكندرية عام ١٩٠٠[٢] :

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء . ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه . ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكنني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : « لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم معها محبة الأوطان » .

(١) مصطفى كامل ص ٩٤ (٢) مصطفى كامل ص ١٢

من هذه المقتطفات يستطيع القارئ أن يتبين مدى التأثير الأوروبي في تفكير رائد الوطنية الحديثة في مصر من ناحية ، وربطه بين الوطنية والدين من ناحية أخرى . أما حديثه الناطق عن الوطن ، الذي هو أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقه ، والذي يصور هياما روحياً صادقا هو أقرب الأشياء شبها بهيام المتصوفة ، فهو جلي واضح في خطبه وفي كثير من كتاباته ، ويكفي أن أقدم عليه مثلا واحداً من خطبته في الاسكندرية سنة ١٩٠٧(١) ، وهي أكبر خطبة وأروعها على الإطلاق :

« تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل، فنجيبكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون . وما قيمة السنين والأيام في حيـــاة مصر ، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنساني كله ؟ .

« إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة .

« فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام : وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي البلاد وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية . نعم !.. إنا لو تخطفنا الموت من هــذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر

(١) مصطفى كامل ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

كلماتنا الى بعدنا : «كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى ! ... بلادى ! ... لك حبى وفؤادى ... لك حياتى ووجودى ... لك دمى ونفسى ... لك عقلى ولسانى ... لك لبى وجنانى . فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

« يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها . وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

« ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاما ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف ، من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم يجبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى .

« إنى لو لم أولد مصريا : لوددت أن أكون مصرياً » .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان ، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ ... أى رغبة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربى العالم كله ... أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور ، وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقاً للعرفان ؟ ...

« ليت شعرى ، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين ؟ . إن المكسب الأدبى الوطنى المصرى من هذه الخدمة يُربى على أتعابه ومجهوداته بكثير .

هذه كلمات تمثل لنا صدق تصوير شوقى له حين قال فى رثائه :

يا صبَّ مصر ويا شهيد غرامها　　　هـــذا ثرى مصر فنم بأمان

* * *

وسرعان ما سرى أثر مصطفى كامل فى الشعر ، وظهر صداه فى الشعراء المعاصرين ، وكان الغاياتى وعزم فى طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون فى شعرهم عن الهيام بحب الوطن ، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية وإثارتها فى قوة دفاقة ، مما يجعلهما أشبه الناس فى شعرهما بمصطفى كامل فى خطابه . أما الغاياتى فاسم ديوانه والضجة التى اقترن بها ظهوره يغنيان عن كل تعليق . سمّى ديوانه « وطنيتى » ، واشترك فى تقديمه إلى القراء محمد فريد وعبد العزيز جاويش . وقد صودر الكتاب عند ظهوره فى يوليو سنة ١٩١٠(١) وأحيل مؤلفه وكاتبا مقدمته إلى محكمة الجنايات متهمين بتحبيذ الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة . وكان محمد فريد فى أوروبا وقتذاك فأجلت محاكمته إلى ما بعد عودته . وأما الغاياتى فقد نجح فى الهروب إلى سويسرا قبل المحاكمة ، وحوكم غيابياً فأدانته المحكمة وحكمت عليه بالحبس سنة مع الشغل . وأما عبد العزيز جاويش فقد حكم عليه بالحبس ثلاثة شهور مع النفاذ ، ونفذ فيه الحكم فوراً(٢) وأما محمد فريد فقد حوكم بعد عودته من أوربا وحكم عليه بالحبس ستة شهور مع النفاذ(٣) .

---

(١) محمد فريد ص ٢٢٧ .

(٢) كانت المحكمة مؤلفة برياسة أحمد عفى وعضوية كل من على ذى الفقار ومسيو سودان وكان ممثل الاتهام محمد توفيق نسيم وممثلا الدفاع أحمد لطفى ومحمد على علوبة .

(٣) كانت المحكمة مؤلفة برياسة المستر دلبر وجلى وعضوية كل من أحمد ذى الفقار وأمين على . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم . ورفض محمد فريد أن يستصحب أحداً من المحامين للدفاع عنه .

قدم الغاياتى لديوانه بمقدمة طويلة تقرب من ثلاثين صفحة ، تكلم فيها عن واجب الشعراء فى بث روح الوطنية والنهوة القومية ومحاربة الظلم والاستبداد ، ومن حاجة مصر إلى نشيد وطنى . وترجم بعض قطع من المارسليز ، نشيد الثورة الفرنسية ، . واختارها بما يناسب ظروف مصر فى ذلك الحين . ثم قدم ترجمتين لنشيدين فرنسيين آخرين هما « فرنسا » و « الوطن » ، واختتم المقدمة بقوله : « فحيا الله فرنسا ، فقــد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذباً زلالا ، وجاهدت فى سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره ، وأشربت النفوسُ حبَّه ، فعسى أن نكون على آثارها مهتدين ، وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتى نغدو بنصر الله فائزين . والله مع الصابرين » . والمقدمة تدل على أثر الشعر الوطنى الإوروبى ، والفرنسى منه خاصة ، فى دعاة الوطنية الناشئين من شعراء مصر . أما الديوان فهو يفيض بالحماسة والثورة وحب الوطن وتقديسه . ويكفى فى هذا المقام أن نقدم منه أمثلة ثلاثة . فمن ذلك قصيدته « طيف الوطنية » التى يقول فيها (١) :

فى سلام الليل جاريت المناما	فسلاماً أيهــا الطيف سلاماً
مرحباً بالزائر السارى إلى	مضجع الحب يحيى المستهاما
ليت شعرى: هل رأى فى مضجعى	شبحاً يشكو إلى الله السقاما ؟
وهــل الدمع الذى أغرقنى	كان عند الطيف دمعاً أم ضراما
وهل النجم الذى أرصــــده	أبصر الزائر فى عينى فهاما ؟
لست أشكو الهجــر من فاتنة	تشتكى مثلى ولوعاً وهياما
نحن صنوان قضــــينا حقبة	فى ربوع النيل نستذرى الغماما
نبصر الفيض بمصر جارياً	بيد أن القوم يشكون الأواما
ظمأ قاض ونيــــل فائض	ودموع جارت السحب انسجاما
وعداة ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب فى حق زماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العــــدا منهم مراما

(١) وطنى ص ٤٥

إنما الشعب الذى يرجو العلا ليس يرضى من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض فى سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومما يلفت النظر فى هذه القصيدة كثرة كلامه عن « الشعب » وهى كلمة برزت فى قاموس الشعر، واقترن ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة ، فأصبح شعراؤها يستعملونها فى مقابل مرادفها القديم : « الرعية » .

ومن الشعر الذى يصور هذه الروح الجديدة فى ديوانه قصيدته « آهة مصرى يتوجع على مصر » وفيها يقول (١) :

آه ! ! كم أنة وكم حسرات آه ! ! كم زفرة وكم عبرات
طال ليل البلاد والشعب سار لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم فلمن يشتكى خصام القضاة
أوشك القلب أن يطير انتقاما بيد أن الصدور ذات أناة
ليس للصبر موطن فى فؤاد أضرمته لواعج الزفرات
بين حنبى مستبد مستهام ليس يشكو هوى فتى أو فتاة
همه مصر أرض أقلت بعد خير الهداة شر البغاة
طالع النحس بالشقاء عليها ودهاها الزمان بالويلات
قهرتها يد الطغاة وكانت مصر أولى بقطع أيدى الطغاة

ومن هذا الشعر فى ديوانه « النشيد الوطنى » الذى يقول فيه (٢) :

نحن للمجد نسير ولنا الله نصير
ليس يثنينا نذير عن بلاد تستجير

وعباد فى حداد

كيف نرضى بالممات وزمان الموت فات

---

(١) وطنيتى ص ٩١ (٢) وطنيتى ص ١٣١

إنمـا الدستور آت فعلينـا بالثبات
عند آمال البلاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

نحن شعب لا نضام قبل أن نلق الحِمام
فعلى النيل السلام من فتاه المستهام
يوم يقضى فى الجهاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

فى هوى النيل السعيد ميِّتُ القوم شهيـد
ذكره حىٌّ جديد يومه للشعب عيد
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

مرحبا بالفوز لاح وانجلى ليل الكفاح
وشدا طير الصباح : أدرك الشعبُ الفلاح
وقضت مصر المراد

نحن للمجد نسير ... إلخ

أما محرم ، فشعره فى حب مصر والهيام بها ، لا يعدله فى صدقه وفى حرارته إلا خطب مصطفى كامل . يقول فى قصيدته « إيمان المخلصين »(1) :

أَلِى فى الهوى ؟ مالى وللأئم العذر	أما يعلم اللوّام أن الهوى «مصر» ؟
فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ ... فإنه	دمى وفؤادى والجوانح والصدر
لنفسى وقاءٌ إن وفيت بعهدها	وبى، لا بها ـ إن خنت حرمتها الغدر
أخاف وأرجو . وهى جهد مخافتى	ومرمى رجائى، لا خفاء ولا نكرُ
هى العيش والموت المبغّض والغنى	لأبنائها والفقرُ والأمنُ والذعر
هى القدرُ الجارى، هى السخط والرضى	هى الدين والدنيا ، هى الناس والدهر

(1) ديوان محرم ٢ : ١١٦ .

بذلك آمناً ... فيا من يلومنا لنا فى الهوى إيماننا، ولك الكفرُ
تدفق فيها الوحىُ شعراً ، وإنما سقانا بها النيلُ الذى كله شِعر
تحير فيه الواصفون نفاسةً فأوصافه شتى وألقابُه كُثْرُ
رئيسٌ وذو تاج وشاعرُ أمة ونابغة غمْرٌ وداهية نُكر
إذا جال ماء النيل فى جوف شارب فليس له إن خان أبناءه عذْر

ويقول فى قصيدته « مصر فى تاجها الجديد »(1) :

وهبتُ الصبَى والشَّيبَ والشوقَ والهوى
لمصر وإن لم أقض حق الهوى مصرا

بلادٌ تَحبّتنى أرضُها وسماؤها حياتى، وأجرَى نيلها فى فمى الدُّرا
وما حادثٌ يوماً وإن راع وقعه بماح هواها أو يطاولها ذكرا
هى الدهر، أو شىء يشابه صرفه وإبرامه والنقض والطىّ والنشرا
تمر بها الدولات شتى وترتمى عظاتُ الليالى حول أهرامها تترى
كأنى بها صحفُ الخلود ... وكلها يخط عليها من أحاديثه سطرا
كأن رُباها للممالك منبر يقوم عليه الدهر يوسعها زجرا
كأن ثراها للشعوب تميمة تقى من جنون الجهل أو تبطل السحر
كأن بماء النيل سراً محجّباً يردّ إلى حكم الأناة من اغترا
خذى من عظات الدهر يا مصرُ واشهدى
عليه ، وزيدى فى أعاجيبه صبرا

ويقول فى قصيدته « تفرق المذاهب »(2) :

رويدكما يا لائمىّ فإن بى على مصرَ وجداً جل أن يتمثلا
بلاد سقتنى الحبّ عذبا وركبت بصافيه قلباً بين جنبىّ أهيما
يزيد هواها كلما زاد بؤسها وتنمو تباريح الهوى كلما نما

---

(1) ديوان محرم : ٢ . ١٣١ .
(2) الديوان ٢ : ٩

حفظت لها عهدين : عهد شبيبة ... تصرمت اللذات لما تصرما
وآخرَ يكسونى المشيب مفوفاً ... يلبسنى منه الرداء المسهّما
وما المرءُ إلا قـــومه وبلاده ... فإن يذهبا يلق الأذى حيث يمما

* * *

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية ، الذى كان يحارب فكرة الجـــامعة الإسلامية ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع ، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين . فقد كان مشتملا على قسمين : قسم تمثله صحيفة «المقطم» التى تعمل لحساب الإنجليز ، وقسم آخر تمثله صحيفة «الجريدة» التى تنطق بلسان حزب الأمة .

أما صحيفة «المقطم» ، فقد كانت صريحة فى تأييد المحتل وتصويره فى صورة إنسانية رائعة . فالإنجليز — فى زعمهم — لم يجشموا أنفسهم مشقة الإقامة فى مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل . واليهم وحدهم يرجع الفضل فى إنقاذ مصر من الإفلاس ، وإقامة اقتصادهـا على أساس سليم متين [1] . واليهم وحدهم

(١) كان هذا هو زعم كرومر الذى لم ينهض أحد لتفنيده على أساس اقتصادى علمى يستند إلى الإحصائيات والأرقام . فكان الذين يواجهونه يندون باستبداده وسياسته الاستعمارية ويسلمون بفضله على الاقتصاد المصرى ، وغاية مايولفون أن يحقروا من شأن هذه الناحية قائلين : إن المال ليس هو كل شىء فى حياة الامم كما يقول حافظ :

تشعبت الآراء فيك فقائل ... أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
رأى العز كل العز فى بسطة الغنى ... فحارب جيش الفقر حتى تبددا
... وآخر لم يقصر على المال همه ... يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تبق للتعليم يا لورد معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمداً ... وأجدبت فى مصر العقول تعمداً

ولم يزل الأمر كذلك حتى نهض روتشتين للرد على ما يدعيه كرومر لنفسه من فضل على الاقتصاد المصرى . مفندا مزاعمه بالإحصائيات والأرقام وجعل ذلك محور كتابه Egypt's Ruin الذى نشره فى انجلترا سنة ١٩١٠ ، والذى ترجم الى العربية ونشرته لجنة التأليف فى مصر سنة ١٩٢٣ بعنوان «تاريخ المسألة المصرية» ، كما ترجمه بعد ذلك على أحمد شكرى سنة ١٩٢٧ بعنوان (تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده)

يرجع الفضل فى رفع الظلم عن الفلاح المصرى المسكين ، الذى كان مستعبداً لطائفة الباشوات من الترك . وهم الذين يحدون من شره الحاكم التركى (الخديوى) ويحولون بينه وبين ابتلاع أرزاق الناس وأقواتهم .

كان كل ما تكتبه صحيفة « المقطم » ، وكثير مما تكتبه مجلتهم العلمية « المقتطف » يدور حول هذه الآراء ، ويحاول إقرارها فى أوهام الناس ، وجمع أكبر عدد حولها من المصريين — أو المقيمين فى أرض مصر بتعبير أدق ، من وطنيين ودخلاء — زاعمين أن هذا هو الاتجاه الوطنى الحق الذى لا ينظر إلا إلى خير مصر ومصلحتها المادية ، وأن المخالف له إنما هو رجل يفكر بعقول الترك ، ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه مصر . وقد نجحت الصحيفة فى أن تغوى قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية فانضموا إلى دعوة « المقطم » تقرباً من ساكن قصر الدوبارة الذى يمثل الدولة المحتلة . وسمت هذه القلة نفسها بـ « الحزب الوطنى الحر » ، وأعلنت الحرب على « الحزب الوطنى » الذى كان يتزعمه مصطفى كامل ، متهمة إياه بالتدليس وبالتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الخراب ، مرجعة إليه وحده ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية ، مردها فى رأيهم ، إلى حالة القلق التى أوجدها هؤلاء المهيجون ، فكانت سبباً فى أن يكف أصحاب رءوس الاموال من الاجانب عن استثمار أموالهم فى مصر ، وأن ترفض البيوت المالية تقديم القروض . ولم يكن هذا « الحزب الوطنى الحر » فى حقيقة أمره شيئاً غير « محمد وحيد » الذى كان ينشر بعض مقالات باسمه إبتداء من سنة ١٩٠٧ بإمضاء رئيس الحزب الوطنى الحر ، ونفر قليل لا يكاد يتجاوز عدد أصابع اليد ، ممن يدعون أنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر .

ومن أمثلة ما كان يكتب هذا النفر من الناس كلمة لمن يدعى « مصطفى عمار » عنوانها (أصحاب المصالح الحقيقية) جاء فيها : (١)

---

(١) المقطم ٢٥ يونية سنة ١٩٠٧ .

« يظهر أن اللواء يقصد بتكراره ذكر « دنشواى » اتخاذ ذلك وسيلة للتعريض بسعادة الفاضل فتحى باشا زغلول وحك حزازات فى الصدور ، مع أن فضل سعادة الباشا وفضل أخيه سعادة الفاضل سعد باشا مشهور ومعلوم عند الأمة المصرية كلها وعند غيرها أيضاً . لجدير بصاحب اللواء أن يترك هذه الخطة الممقوتة وينضم إلى الحزب الوطنى الحر ، ويسعى فى تفريج هذه الأزمة التى كادت تخرب البلاد . وما شدد وطأتها علينا إلا هو وأمثاله الحجّاصون كما أوضح ذلك حزب أصحاب المصالح الحقيقية فى المقطم الأغر . وإلا فالواجب على كل مؤمن أن يقاتل فئة اللواء الباغية بقلبه ولسانه حتى تفىء إلى أمر الله . ويلتمس العقلاء من جناب عميد الإصلاح(1) وضع حد لهذه الفوضى لإنقاذ مصر من الخراب فيشكرونه . كما نشكر المقطم الصادق لنشره أفكار أصحاب المصالح الحقيقية خدمة للأمة » .

وفى مقال آخر لمحمد وحيد عنوانه « سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » يتكلم عن الأزمة الاقتصادية ويرد أسبابها إلى أن أصحاب الأعمال المالية قد امتنعوا عن توظيف أموالهم فى مصر بسبب تهييج المهيجين على الاحتلال ، مما زعزع ثقتهم فى مصر ، ويحض المصريين على مسالمة المحتلين ، ويزعم أن بعض الماليين يفكرون فى العودة إلى توظيف أموالهم بعد أن سمعوا عن حركة الحزب الوطنى الحر(2) .

وقد نشر محمد وحيد هذا سلسلة من المقالات تحت عنوان (أصحاب المصالح الحقيقية) هاجم فى أحدها مصطفى كامل وصحيفته (اللواء) ثم قال : « فواجباتنا الوطنية ومصالح أمتنا تقضى علينا فى هذا المقام أن نتقدم إلى جميع الأجانب على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم بلسان الحزب الوطنى الحر ، الذى يمثل أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، وبلسان سائر عقلاء الأمة الأحرار ، ونقول لهم : إن

---

(1) المقصود بجناب عميد الإصلاح هو اللورد كرومر .
(2) افتتاحية المقطم ٢١ يونية سنة ١٩٠٧ .

الأمة ضربت بتلك الصحيفة الساقطة أعرض عرض الحائط فلم يقع عدد من أعدادها في يد عاقل أو ذى شأن إلا استاء من قراءتها وصب عليها جام غضبه واشتد سخطه على صاحبها ، ثم يورد صوراً من رسائل تأييد من طالب ربما أن لايذكر اسمه ، ثم من حضرة الوطني الغيور السرى الوجيه حافظ بك ذهني ، ومن فلان من أبناء ذوات مصر ، ومن فلان من أصحاب الأملاك في العاصمة ، ومن فلان من أرباب الأطيان في المنوفية (١) .

كان « المقطم » إذن صريحاً في ولائه للإنجليز ، لا يستخفى ولا يدارى ، فهو يهاجم الخديوى عدو كرومر في صراحة . وهو يمجد الإنجليز في صراحة أيضاً ، ويكتب في ذلك المقالات الصارخة العارية من كل حياء ، لايكلف نفسه مشقة إخفائها تحت ثوب من الرياء أو النفاق أو المجاملة للشعور الوطني . وكان الموالون له من المصريين الذين قدمنا أمثلة من كتاباتهم في مثل صراحته أيضاً . وهم حين يتحدثون عن الجامعة المصرية لا يرون مصر التي يريدون أن يجمعوا عليها الناس إلا سوقا ، ولا يرون الوطنية إلا العمل على ملء البطون وتوفير المال من كل طريق وبأى وسيلة . ثم هم لايقيمون للعواطف والقيم الأخلاقية أو الوطنية وزنا . فليست الوطنية عندهم كرامة ، وليست غيرة على عرض . وإنما الوطنية عندهم هي المصالح ، وهي المال . ولذلك فقد كان حديثهم عن (أصحاب المصالح الحقيقية) لا ينقضى . وهم حين يتحدثون عن أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء ، إنما يعنون بهم أصحاب رءوس الأموال من ملاك الأراضى الزراعية ومن الأعيان ، ولم يكن هؤلاء الكتاب على شيء من الثقافة أو عمق التفكير أو سمو الأسلوب . ولم تكن بضاعتهم إلا سبابا رخيصاً يكفى أن نقدم منه صورة من خطابين نشرهما المقطم (٢)

وقد جاء في أولهما « ومما يضحك الحزب الوطني الحر . حزب أصحاب المصالح

---

(١) المقطم ١٨ يونية سنة ١٩٠٧ .

(٢) المقطم عدد ١٨ : ٥ يونية سنة ١٩٠٧ .

الحقيقة فى مصر . ما يكتبه غراب أولئك المجاصين من الآراء المالية عن الأزمة الحالية . فإنها آراء تدل على أن ذلك الغراب الذى شاب وما تاب ، يحسب هذه الأزمة مثل أزمته الخصوصية التى نتفت ريشه ، وقضت عليه قضاء مبرما فى آخر أيامه » .

وجاء فى تقديم « المقطم » الخطاب الثانى « ورد الكتاب التالى على حضرة الوجيه الهمام محمد بك وحيد بقلم وطنيين من أرباب الأطيان فى المنوفية . وهاك صورته بعد الديباجة » . ثم أتى على نص الخطاب . وهو :

« أعجبتنا خطة الحزب الوطنى الحر كثيراً . ووافقت تصريحاته آراءنا وأميالنا . وتأكدنا من إخلاصه فى أقواله أنه يقصد خير الوطن وأبنائه . فلنا إليه قلبا وقالبا ، وجئنا سعادتكم بكتابنا هذا راجين قبولنا ضمن رجاله . ونحن مستعدون لكل خدمة ترقى بها مقاصد هذا الحزب الشريف حبا لوطننا وأمتنا . فليحيا أحرار مصر الصادقون وأصحاب المصالح الحقيقية فيها . وليسقط المجاصون والخناسون والحشاشون الذين يضرون بوطنهم لقضاء مصلحتهم ويقولون كذبا إنهم يشربون ويتكلمون بلساننا » .

أما حزب الأمة فقد كان قوامه جماعة من الباشوات أو كبار ملاك الأرض ، مثل محمود سليمان ، وحسن عبد الرازق وحمد الباسل ، وفخرى عبد النور ، وسليمان أباظة وعبد الرحيم الدمرداش وعلى شعراوى ومحمد الحفنى الطرزى ومحمد الشريعى[1] وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت كلها إلى كرومر الذى يمثل سلطة الاحتلال ، وأن مصالحهم الشخصية تقضى عليهم أن يكونوا على وفاق معه . فألفوا حزبهم بصفة رسمية فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧[2] برياسة محمود سليمان باشا . ولم يكن تفكيرهم السياسى وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصية ، ولكنهم لم يجدوا بدأ من أن يضموا إليهم جماعة من المثقفين على رأسهم لطفى السيد ؛

(١) راجع افتتاحية العدد الأول من صحيفة الجريدة ٩ مارس ١٩٠٧ .
(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ .

ليكونوا لسانهم فى صحيفة « الجريدة » التى اكتتبوا لإنشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، والتى ظهر العدد الأول منها فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ [١] ، وبذلك كان الحزب منذ نشأته مكونا من فريقين تختلف أهدافهما ومراميهما اختلاف تكوينهما العقلى . أما الأعيان فقد انحصر تفكيرهم فى مصالحهم ، ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح الشخصية . وأما المثقفون من محررى الجريدة فقد كانوا أصحاب مذهب سياسى اجتماعى ، حاولوا جهد استطاعتهم أن يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذى أنشأ الصحيفة بأمواله .

أما مذهبهم ذاك فهو يتلخص فى الدعوة إلى التحرر الفكرى وإلى التعاون مع الأوروبيين فى كل ميادين الحياة ومجالات النشاط : ثقافيا واقتصاديا وسياسياً . وكان اللورد كرومر يسميهم « حزب الشيخ محمد عبده » ، ويعقد عليهم الآمال فى مستقبل مصر السياسى ، ويوصى ممثلى الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع [٢] .

كانت الجريدة ، تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يعنى عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطانه أو نفوذه . وكانت ترى أن هؤلاء المحتلين ماضون فى طريقهم ، مستقلون بتصريف الأمور ، رضى المصريون بذلك أم كرهوه . ومن الواضح — فى نظرهم — أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة لم تتوافر للمصريين . فالذين يهيجون الناس عليه إنما ينفقون الوقت فيما لا طائل تحته ، ويصرفون الجهد إلى ما لا ينفع ؛ فهم أصحاب خيال أو تهييج حسب زعمهم ، والأولى عندهم أن تنفق هذه الجهود فيما يعود على الأمة بالنفع ، وفيما يرفع مستواها الاجتماعى والاقتصادى . وما دام الإنجليز هم المستقلين دون غيرهم بتصريف الأمور فلا سبيل إلى العمل على الإصلاح أو تنفيذ أى مشروع يرمى إلى النهضة بمصر إلا بالاتفاق معهم . فالخير إذن — فى رأيهم — هو أن

---

(١) الدولة العربية المتحدة ٣ : ١٠٣ .

(٢) راجع الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوى عن سنة ١٩٠٦ ص ٨ تحت عنوان Egyptian Nationalism ويؤيد رشيد رضا ما ذهب إليه اللورد كرومر (تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١) .

ينصرف المصريون عن حربهم الى إقناعهم بالإصلاح .

هؤلاء قوم يتحدثون إلى العقول ولا يناجون القلوب . ويسعون إلى الواقع ولا يحلقون مع الخيال . فهم — كما يسمون أنفسهم ، وكما يسميهم خصومهم حين يتهكمون بهم — « عقلاء الأمة » . وخصومهم الذين يحاربون الاحتلال دون أن يملكوا من أدوات الحرب إلا الكلام هم المتهوسون أو المهرجون أو المتطرفون كما كان يحلو لهم أن يسموهم . فالوطنى عندهم ليس شيئاً يعشق ، ولكنه مصلحة مادية مشتركة ، أو هو « مركز المصلحة العامة أو آلتها كما يقول كاتبهم الأول أحمد لطفى السيد فى مقال له عنوانه (الوطنية فى مصر)[1] . ولذلك فهم يشتركون مع « المقطم » فى كثرة الكلام عن (أصحاب المصلحة الحقيقية فى مصر) . وهم يطالبون أن يكون هؤلاء هم الممثلون للمصريين فى إدارة شئون البلاد[2] . وهم يهاجمون الحزب الوطنى القديم (حزب عرابى) ، الذى أدى تطرفه ـ كما يقولون ـ إلى نكبة مصر بالاحتلال الذى لا يزال باقياً . ويقولون إن عرابى هذا لم يكن له فى مصر (ناقة ولا جمل) ، فمصلحة مصر لا تهمه ولا تعنيه ، لأن النفع لا يصيبه ولأن الضرر لا يقع عليه . وقد كان عليه ـ فى رأيهم ـ أن يدع تصريف الأمور لأصحاب الذوق والجاه ، أو من يسمونهم « أصحاب المصالح الحقيقية »[3] .

وربما كانت بعض المقالات التى أشرنا إليها فى « الجريدة » قد كتبت لإرضاء أصحاب رأس المال فى شركة الجريدة من أعيان حزب الأمة . أما لب مذهب هذا الفريق من مثقفى حزب الأمة ومفكريه . فخلاصة آرائهم فيه هى : « أن الوطنية لا ينبغى أن تكون اندفاعاً عاطفيا أعمى ، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادىء المتزن . ولا ينبغى أن تقام على أساس من الأوهام التى لاسبيل

(١) افتتاحية العدد الثانى من الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧ .

(٢) راجع افتتاحية الجريدة عدد : ١٣ يونية سنة ١٩٠٧ (أعيان الأمة هم أجدر الناس بالنيابة عنها) (٣) الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧ .

إلى تحقيقها من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية . والأحرى بالمصرى أن يفكر فى نفسه أولا ، وفى مصلحته قبل كل شىء ، وهى مصلحة يتفق فيها سائر المصريين - وهم يعنون بهم المقيمين فى مصر ممن استوطنوها[1] - على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين .

وربما كانت افتتاحية العدد الأول من « الجريدة التى كتبها لطفى السيد مصورة لأهم اتجاهاتها . وإليك نصها :

« ما الجـــــريدة إلا صحيفة مصرية . شعارهـا الاعتدال الصريح ومرامها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الأخـذ بها ، وإخــــلاص النصح للحكومة وللأمم بتبيين ما هو خير وأولى . تنقد أعمال الأفراد وأعمـال الحـكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن ، من غير تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم ، وهو الأمة » .

« ولقد اختلف القوم فى أمر الجريدة منذ وضع مشروعها ، وقـدر بعضهم لها مذهباً ما لهم به من علم إلا اتّباعُ الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليوم لكان خيراً لهم وأجـدر بحفظ الكرامة لـكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفتّ فى أعضاد الجامعة الوطنية . ولـكنهم لا يصبرون » .

« ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان . ولـكن بعض الـكتاب أبى إلا أن ينتقض الجريدة قبل ظهورهــــا . فخلق لها نسباً لا تعرفه ، إذ يقول : « أنها أنشئت بوحى من جناب اللورد كرومر ، أو أنها متحيزة إلى طرف دون آخر ، على أنها من كل ذلك براء .

« ومهما يكن مــن الأمر فإنا نمر بتلك المغامز مراً ، إذ لا نقصــد درء شبهة ، ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهرُنا فيه على صاحبه أخسرُهُ لوقته .

---

(1) راجع مقالين للطفى السيد عن (الجامعة المصرية) نشرا فى الجريدة فى ٥ أكتوبر و ٩ أكتوبر ســـنة ١٩٠٩ (ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ من المنتخبات للطفى السيد) .

وكل في رحلٍ بما قال .

« هنيئاً مريئاً غير داء مخامر »

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم ، وإن أظهر المشابهات في حال الأمة السياسي هو التشابه في الرأى بين الأفراد ، وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

والناس بطبائعهم أشتات في الرأى ، كما قيل : « للناس عددٌ رءوسهم آراء » . وهم في البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالباً عن التفكير في الأمور العامة إلى تدبير حياتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم إلى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجوداً عاماً هو خير الأول ، وأن لهذا الوجود العام كمالاً يجب أن يُرقّى إليه بعمل الأفراد .

وإن أثر هذا الإرشاد في النفوس مدعاة إلى تقريب الآراء المتباينة بعضها من بعض ، فيحصل بها الرأى العام . وعلى هذا تكون الصحافة هى الآلة الأولى للإرشاد والرقابة ، تتبعها في طورها الاجتماعى ، وترتقى برقى الأمة ، حتى تنتقل كفالب الأعمال العامة من يد الفرد الذى قد يعرض له الميل أو الهوى إلى أيدى الجماعات ، لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً ، وأثبت رأياً ، وآمن هوى ، وأصبر على عواصف الحوادث منقلباً .

« وإن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراجعة الأحوال العامة وأقدرها على العمل لتكوين الرأى العام : جماعةُ أولى الرأى ، وهم الذين نبهوا ذكراً بعلو النسب أو بالعلم والفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة ، من نشر التعليم العام ، والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة ، والأخذ بنصيب من الرقابة العامة ، وقفت الأمة عن التدرج في مراقى المدنية الصحيحة ، خصوصاً في حالها النظامى ، وصار الأمر فيها مفوضاً إلى رغائب الحكام ، يميلون بها إلى حيث يشاءون .

« وما كان أعضاء شركة (الجريدة) المصرية لينشئوها إلا لتحقيق هذه المبادىء الراسخة .

« ولما أنهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم ، واشتراكهم معها فى كثير من الأعمال العامة ، وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذى أثر سياسى إلا أحاطت به الشكوك ، رأوا أن يكاشفوا الحكومة فى أمر المشروع ، دفعا لتلك الشكوك المحتملة وأخذاً بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ ؛ لأن الحكومة قد تجيب الطالب عما يرون عليها إذا اقتنعت بأنه لمصلحة الأمة .

« وأن أسهل سبل الإقناع وآكدها فى الوصول إلى الغرض هو سبيل المحاسنة التى لا تجر إلى ترك حق أو تزيين باطل . وهى أجلى مظاهر الاعتدال الذى يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ، كلتاهما فى طور التكوين ، لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الأمة . ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتتعطل بذلك أسباب الرقى التى يتوقف حلها على اشتراك الطرفين » .

ثم ختم المقال بذكر أسماء أعضاء شركة الجريدة وهم من أعيان البلاد وكبار الملاك .

وقد عالج هذا المقال موضوعات شتى :

أولها : رد الصحيفة على من يتهمونها بأنها إنجليزية الميول ، أنشئت بوحى من اللورد كرومر ، وهو رد يثبت وجود التهمة وذيوعها . ويبدو اعتراف الجريدة بسلطة الاستعمار وحرصها على حسن الصلة به بشكل واضح فى مقال آخر عنوانه (حالتنا السياسية) جاء فى آخره(١) « الأمة المصرية أمة تحب السلام والطاعة ، كما تحب الإخلاص لحكومتها . وهى تحترم السلطة الشرعية ولا تنكر السلطة الفعلية فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطتان جميعاً بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات، لكى لا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة

---

(١) الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧ .

فيما ينفعها من حيث هي أمة مستعدة لأن تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الأمم في السعي في تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية » .

والأمر الثاني الذي نلاحظه في هذا المقال هو دعوة الصحيفة إلى تقريب الفروق بين المواطنين حتى يوجد رأى مصرى عام ، وهى فكرة جديدة على مصر وقتذاك متأثرة بالتفكير الأوربي والنظام السياسية الغربية . وإن كنا قد رأيناها من قبل في مقال محمد عبده عن « الحياة السياسية » الذي نشر في الوقائع المصرية سنة ١٨٨١ قبيل الثورة العرابية ، والذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل .

والشيء الثالث الذي نلاحظه هو اعتراف الصحيفة بصلات كبار رجال الحزب بالحكومة ، لاشتباك مصالحهم معها والدعوة إلى مسالمتها لأن هذا الطريق هو خير السبل المؤدية للإصلاح . وهذه الحكومة التي تدعو الصحيفة إلى مسالمتها وتعترف بحسن صلاتها بها هي حكومة مصطفى فهمى باشا الذي عرف بولائه التام للإنجليز ، والذي وصفه كرومر بأنه كان مؤمنا بأن مصلحة وطنه في الولاء للإدارة الإنجليزية لا في معارضتها(١) .

أما الشيء الرابع والأخير فهو تعريفه أولى الرأى في الأمة بأنهم هم الذين نبهوا ذكراً بعلو النسب أو العلم والفضل . وهو تفكير تبدو فيه المجاملة لأعيان حزب الأمة ، وهو يصور أن الحزب قام أولاً على أساس المصالح الشخصية بما يجعله أشبه بالنقابات التي ينحصر تفكيرها في المصالح الطائفية أو المهنية .

ومما يصور مذهب الجريدة في الوطنية مقال عنوانه (الوطنية في مصر)(٢) جاء فيه :

« الوطن في لغة العامة مقر المرء أو مسقط رأسه . وليس في مثل هذا الحد يخوض المتكلمون في الوطن والوطنية بلغة السياسة وعلم الاجتماع . وإنما يخوضون في حد الوطن الجامع الذي يجمع بين المختلفين . وفي هذا اختلف العلماء

---

(١) Modern Egypt ٢ : ٣٤٦ .

(٢) افتتاحية الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧ .

لاختلاف الجهات التى نظر كل منهم إليها ».

ثم يورد رأى الاشتراكيين فى أن الأرض كلها وطن واحد ، ورأى علماء الأديان الذين يطلقونه على مساكن الذين يدينون دينهم ، ورأى بعض علماء الاجتماع الذين يرون لكل شعب وطنا قديما ويعتبرونه أحق به ، وينتهى إلى إيراد رأيه فى أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة فيقول :

« لكل من ذكرنا جهة فى تعريفهم الوطن الجامع . والحقيقة تجمع الجهات كلها وترجع لها ، فنرى الوطن عندها عبارة عن مركز المصلحة العـــامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون فى دفع الضار وجلب النافع . وربما صح أن نقول بدل قولنا (مركز المصلحة) أنه (آلة المصلحة) . ومتى تعطلت الوظيفة فى هذا المركز أو هذه الآلة فقد هذا الاسم وبطل التشبيب بذكراه .

فمسقط الرأس ليس لاحد بوطن إذا صار بلقعا وخوى ، أو استحوذ عليه العدو وبغى ، ولم يبق للمرء فيه أهل ولا مال ولا جدوى ، ولحق بما هو خير منه وأولى . مثال ذلك البرارى التى هاجر منها أسلاف آل عثمان ، فإنها لم تعد لهم وطنا بعد أن ظهر فيها العدو ، والحقوا بنهرها ، فكان ما كان من تأسيسهم هذا الملك . أرأيت أحداً منهم من بعد يذكرون تلك البرارى ، ويتغنون بها كما يتغنى الواحد بذكر وطنه الذى لا يزال متعلقا به ؟ » .

« والبلادُ المملوكة إذا تمادى فيها التمرد لا تصير وطناً للحكومات المالكة . بل قد تكون مناخا وبيلا لسلطتهم القاهرة يضرها أكثر مما ينفعها . ولذلك تتخلى الدول طوعاً أو كرهاً عن البلاد التى هذا شأنها ، كما تخلت حكومة آل عثمان كرهاً عن بلاد السرب والجبل الأسود واليونان والبلغار ورومانيا . ثم عن جزيرة كريد ، وكما تخلت انجلترا طوعاً عن كورفو (من جزر اليونان) التى صرفت فيها خمسين سنة فى تهذيب أهلها وتهدئة خواطرهم وكبح جماحهم » .

وواضح من هذه الفقرة التى قدمتها من المقال أنه يقيم الوطنية على أساس من النفع والمصلحة ، فصـــاحب المقال يفكر بعقول أعيـان حزب الأمة الذين

لا يهتمون إلا بمصالحهم وبالمشاريع التي تتصل بأراضيهم وأملاكهم ، فهو يفلسف لهم آراءهم النفعية ، ويكسبها وجوداً قانونياً مشروعاً بإقامتها على أساس من المبادىء السياسية العامة . وواضح فيه كذلك تحامله على تركيا حين وصفها بأنها فقدت كرهاً من بعض أملاكها ، ومعاملته لإنجلترا حين وصفها بأنها تخلت عن بعض هذه الأملاك طوعاً ، بعد أن بذلت الجهد في تهذيب أهلها .

ومما يصور مهاجمة « الجريدة » لفكرة الجامعة الدينية ، وتسفيه الداعين إلى هذا الوهم الذي لا يقوم على أساس من الواقع — حسب زعمها — والذي لا سبيل إلى تحقيقه ، مقال في الرد على تقرير كرومر ، بدأه كاتبه بتفنيد ما جاء فيه عن الجامعة الإسلامية فقال (١) :

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفي تبعاً للحوادث . فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد في الشرق إلا الأمم المسيحية . فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة كالمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها ، وأنها كانت العامل لأوروبا على التدخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول هذا ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية (بانيكريستيانزم) كما خلقت كلمة جامعة إسلامية (بانسلامزم) . على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلتيهما وجوداً في العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدي إلى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من

---

(1) Modern Egypt 2 : 193 .

الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا الخاطر السائح هو مظاهر السياسة الأوروبية فى الشرق » .

« أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً ، أو أنها مقصد من المقاصد التى يسعى المسلمون لتحقيقها . فهذا لا دليل عليه مطلقا ، كما أنه لو حاول إيجادهـا لاستحال ذلك بالمرة على حالها . فقد علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شىء يجمع بين الناس إلا المنافع . فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة فى الجنسية أو وحدة فى الدين » .

ومما يصور هذه المهاجمة لفكرة الجامعة الإسلامية مقال آخر لعبد الحميد الزهراوى(1) عن السنوسية والجامعة الإسلامية جاء فيه : (2)

« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق فى كلمة واحدة ، وهى أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق ، يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذى لا اتفاق معه بعد . فمنذ اختلف المسلمون ثلمت جامعتهم ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر ، ولا اتفاقاً دينياً بعد عهد على . فما هى جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافا سياسياً واختلافا دينياً ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هى جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثانى إلى يومنا هذا ؟ . ما هى جامعة قوم يُسَرّ ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ . ما هى جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً شرقياً

---

(1) عبد الحميد الزهراوى « سورى » من دعاة الثورة العربية السابقين . هاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ م وهو وقتذاك فى الثانية والثلاثين من عمره . فساهم فى تحرير (المؤيد) ثم تولى رياسة تحرير (الجريدة) ثم عاد إلى سوريا بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ واشترك فى تأسيس (الجمعية القحطانية) وهى جمعية سرية تهدف إلى جمع كلمة العرب . ورأس المؤتمر العربى الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ م . ثم عين مع بعض رجالات العرب سنة ١٩١٤ فى مجلس الأعيان العثمانى للإشراف على تطبيق الإصلاحات التى وعدت الحكومة التركية بتنفيذها . وعاد إلى دمشق عند إعلان الحرب العالمية الأولى ؛ فأعدمه جمال باشــا مع من أعدموا شنقاً من الثوار فى ٦ مايو سنة ١٩١٧ .

(2) الجريدة ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

(هولاكو) اكتسح بلادهم وهم فى عزهم . فلم تتضام أيديهم على مقاتلته، وكانت لاتزال قوية على قتال بعضها بعضاً ؟... وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا غربيا (الصليبيين) هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهمة طائفة منهم تويت وحدها على صده ؟ ...

* * *

كان حديث مصطفى كامل عاطفيا متهبا . وكان حديث هؤلاء هادئاً عاقلا . فهم ينزعون عن الوطن صفة القداسة التي يحاول مصطفى كامل أن يغرسها فى قلوب الناشئة والمواطنين . هم ينزعون عن المواطنين صفة الأخوة فى الدم أو الدين ، وينظرون إلى الوطن نظرة مادية خالصة . فالمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التي تسمى « وطنا » ، وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لا تركد ولا تكسد ، وعليهم أن يتجنبوا النزاع العنيف ، حتى لا يفزعوا البائع والمشترى على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ، ويقل ربحهم .

فدعوة الحزب الوطنى تستمد قوتها من الاندفاع العاطفى الذى تولده فى النفس فيحفز صاحبه إلى الثورة من ناحية ، ومن ارتباطها بالدين الذى يدعو المؤمنين إلى كفاح يفوزون فيه بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، من ناحية أخرى .

أما دعوة حزب الامة فهى لا تقيم وزناً للعاطفة ولا تخاطب ضمائر المتدينين ؛ بل لا يبدو أن المتكلمين باسمها يصدرون عن إيمان مستقر فى ضمائرهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت بحيث يكون ذلك موجها لسلوكهم أو مؤثرا فى تفكيرهم فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة فى هذه الحياة الدنيا . ومن كان هذا مذهبه كان خليقاً أن يتسم بالهدوء الذى يعتبر تعريض النفس للهلاك ضربا من الحماقة .

فالوطنية بالمعنى الذى يدعو إليه كتاب حزب الأمة ومفكروه واضحة التأثر بمذهب التحرر (Liberalism) من ناحية وبالمادية (Materialism) من ناحية أخرى . وكلا المذهبين كان له دعاة أقوياء من المتفرنجين ، يروجون له فى العالم الإسلامى .

فكتاب حزب الأمة ومفكروه يحصرون جهودهم ومساعيهم فيما يحقق الناس وسائل المتع الجسدية . ولا تستهدف حضارتهم الفكرية إلا توفير هذه المتع . وهم إن اعترفوا ببعض القوانين الأخلاقية ولا يعترفون بها إلا باعتبارها لازمة لتنظيم توزيع هذه المتع بين الناس فى هذه الحياة الدنيا .

* * *

كان المقطم والجريدة يشتركان فى ميدانين أساسيين ، أولهما مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرج فى الإصلاح ، وثانيهما محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز . واشتراكهما فى هذين الميدانين قد دعا إلى الخلط بينهما عند أوليائهما وأعدائهما على السواء ، حتى لقد توهمت صحيفة « المقطم » أن « الجريدة » تتفق معها فى المبادىء ، فدعتها إلى الاتحاد معها بانضمام حزب الأمة إلى الحزب الوطنى الحر . وردت « الجريدة » على هذه الدعوة بمقال عنوانه (تعالوا نتفق أو نختلف)(1) استعرضت فيه مبادىء صحيفتى « اللواء » و« المقطم » ثم قالت رداً على « المقطم » :

« ... وأما المقطم فإنه ينحاز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . أما الجريدة فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً وإنها لا تناقش الآن فى أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق فى الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون الجريدة والمقطم متفقى المذهب . نعم إنا نشكره على أنه شرفنا باعتبار خطتنا خطته ومطالبنا مطالبه أو مطالب حزبه ، كما أسدى لنا المعروف فى تنبيه حزبنا بلطف إلى أن ينضم لحزبه حتى لا تتفرق الأحزاب . ولكنا نأسف أنه لا يمكننا أن نوفق بين روحى الخطتين ، كما لا يمكننا أن نعد

(1) الجريدة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧ .

الجريدتين متفقتين فى شىء من مذهبيهما » .

وكان الحزب الوطنى يختلف عن حزب الأمة فى مبدأين أساسيين : أولهما هو عنفه فى مهاجمة الاستعمار وتكريسه حياته لغرس بغضه وكراهيته فى نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة إلى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ التى تمنح مصر استقلالا داخلياً وتعترف بالسيادة التركية .

أما المبدأ الأول فهو الذى دعا خصوم مصطفى كامل إلى وصفه بأنه متطرف أو مجنون . وأما المبدأ الثانى فقد كان داعياً إلى اتهامه بأنه يعمل لاستبدال الإستعمار التركى بالاستعمار الإنجليزى . ولذلك كان هم « المقطم » أن يوازن بين ظلم الترك وعدل الإنجليز . وقد ظل مصطفى كامل ينفى عن نفسه هذه التهمة طول حياته السياسية ويوضح وجهة نظره بأنه إنما يتمسك بالسيادة التركية ؛ لأنه إن جحدها فقد جحد معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وهى حجته الوحيدة فى عدم شرعية الاحتلال . على أن السيادة التركية لم تكن إلا سيادة إسمية ، ينحصر مظهرها فى أداء الخراج للحكومة المركزية فى مقر الخلافة بالآستانة ، وفى تعيين قاضى القضاة التركى . فهو يطالب لمصر الاستقلال . وهو إن أخلص الود لأمة أو لدولة فإنما يجرى على السياسة التى تجرى عليها كل الدول ، القاضية بأن من اتفقت مصالحهم يتحدون ويتناصرون . ودافع عن دعوته إلى الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والإسلام بأن الدين والوطنية توأمان لا يفترقان ، وبأن من الخطأ أن يتصور إنسان أنه لا يكون وطنياً إلا إذا تخلى عن الدين ، متسائلا (لماذا يكون الإنجليزى وطنيا وبروتستنتيا فى آن واحد ، ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلما ؟ . . .) .

كان الداعون إلى الجامعة المصرية إذن قسمين : قسما يدعو إليها وإلى الجامعة الإسلامية فى آن واحد ، ولا يرى تعارضا بينهما ؛ فاهتمام الفرد بصالح أخيه

وأن عمه لا يعني تفريطا في مصالحه(١) وقسما ينكر الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما في عنف ، ويقيم الجامعة القومية على أســـاس من المصلحة المشتركة وحدها . وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين في مصر ، كما يقول المقطم في مقال له عن « الجنسية المصرية »(٢) وكما يقول لطفي السيد في مقال له عن « الجامعة المصرية »(٣) .

وقد كان هـــذا الفريق الأخير موضع رضا الاحتلال وتأييده ، فقد كان الاحتلال يتحدث عن الوطنية بهذا المعنى . ومن ذلك ما جاء في خطبة اللورد كرومر في حفلة توديع إلدون جورست ســـنة ١٩٠٤ ، حين قال مثنياً عليه : « إن السير إلدون غورست من الفئة الصغرى من أولئك الأوربيين الذين قضوا الأعوام والسنين وهم ينفذون السياسة التي شعار أهلها (مصر للمصريين)(٤) » ولكن اللورد كرومر لم يكن يعني بالمصريين إلا القاطنين في مصر . وقد وضح ما يعني بسياسة (مصر للمصريين) بقوله : « وهذه السياسة ليس مضمونها أن حكام مصر لا يكونون إلا من المصريين الوطنيين ؛ بل مضمونها أن المحك الذي تحك به كل مسألة مصرية للكشف عن جوهرهـــا ومعرفة كنهها ؛ هي البحث والاستعلام لمعرفة قدر ما فيها من الموافقة لمصالح السكان في مصر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم ومللهم » . وهو كما ترى كلام يقرب جداً مما يدعو إليه (المقطم) و (الجريدة) فالوطنية عنده هي المصالح .

كان من أهداف الإنجليز وقتذاك إضعاف النفوذ التركي وإذبال شوكة العصبية

---

(١) راجع مجموعة مقالات مصطفى كامل وخطبه في سنة ١٩٠٦ (دفاع المصري عن بلاده ـ مصطفى كامل باشا والإنجليز) وخصوصا مقاله وطنية وجامعة إسلامية ـ مصر للمصريين الذي نشرته الطان البارسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ (ص ٦٦ ـ ٨٠ من هذه المجموعة) .

(٢) افتتاحية المقطم ٢٩ إبريل سنة ١٩٠٧

(٣) الجريدة ٥ أكتوبر سنه ١٩٠٩ المنتخبات ج ١ ص ١٧٠

(٤) المقتطف سنه ١٩٠٤ ص ٤٣٥ ، وراجع كذلك ص ٧ من الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ وهي الفقرة التي جاءت تحت عنوان (Egyptian Nationalism)

الدولية ، التي كانوا يتصورون أنها أكبر العقبات التي تقف في طريقهم ، والتي تحول دون اطمئنان الشعب إليهم وتغلغلهم فيه وإنشاء صلة مطمئنة مستقرة بينهم وبينه . ومن الأمثلة على ذلك أن الإنجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند وهي نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف في طريقهم إلا الإسلام الذي يقدس اللغة العربية ، في حين أن الطريق كان ممهداً في الهند التي لم يكن لهـا لغة مقدسة(١) . كانت دعوة العقلاء من المنادين بالجامعة المصرية إذن تتفق مع مصالح الإنجليز الذين كانوا يحتضنون كل مناهض السلطان التركي — خليفة المسلمين — وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان ، وكل داع إلى الإصلاح الداخلي . كان الإنجليز يحتضنون مثل هـذه الآراء لأنهم يريدون أن يضعفوا أثر العصبية الإسلامية في مستعمراتهم من ناحية ، ولأنهم من ناحية أخرى يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في المسألة الأساسية التي كان ينادي بها الحزب الذي يتزعمه مصطفى كامل ، وهي الجلاء .

كانوا يحتضنون الدعوة إلى الخلافة العربية التي يتزعمها شريف مكة الهاشمي(٢) . وقد اتهم محمد فريد الخديوي عباس في مقالات نشرت بجريدة السييكل الفرنسية سنة ١٩٢١ بالتآمر على الخلافة العثمانية والطمع في أن يكون خليفة المسلمين تحت الحماية البريطانية(٣) . وكانت صحيفتا الاستعمار : (المقطم) و (المقتطف) تهاجمان الخديوي والدولة العثمانية(٤) . وتشجعان الثوار والمطالبين بالإصلاح

(١) راجع تقرير أحمد شفيق عن حالة التعليم في مصر سنة ١٩٩٣ في كتابه . مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٨ — ٩١ .

(٢) المرجع نفسه ٢ : ٦٥ وسنعود إلى مناقشة هذه المسألة في شيء من التوسع في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٣) المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٩ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ ، ٩١١ . والأمثلة كثيرة على ذلك في الصحيفتين المذكورتين لا تحتاج للإشارة إليها .

فى تركيا على نشر المقالات العنيفة فى مهاجمتها والتشهير بها ونبش سيئاتهـــا وبيان انحلالها وفساد الحكم فيها (١). وقد أيد كرومر أعضاء حزب (تركيا الفتاة) من الأتحاديين الذين لجأوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفاً تهاجم السلطان عبد الحميد، وتدخّل لحمايتهم حين طلب السلطان من الخديوى عباس تسليمهم فمنع ذلك(٢). كما تدخل لحمايتهم حين ضبطت المطبعة السرية التى تطبع فيها منشوراتهم فأمر بكسر الأختام وأخذ ما فيها من أوراق، منتهكا بذلك حرمة القضاء، معتديا على سلطته (٣). بل لقد تدخل الإنجليز لحماية رجال هذا الحزب المناوىء للسلطان عند الخديوى عباس نفسه حين بدا له فى بعض فترات حيـاته أن يجامل السلطان ويتقرب إليه باضطهادهم(٤). وكان ساسة الإنجليز يحاولون دائماً صرف الخديوى عن زيارة الآستانة (٥). كما حاولوا قطع هذه الصلات باستبدال قاضى القضـــاة التركى الذى كانت تعينه الآستانة من بين علماء الترك بقاض مصرى من علمـــاء الأزهر(٦) وكان الإنجليز يعارضون اكتتاب المصريين للمعاونة فى حروب تركيا، فى الوقت الذى يؤيدون فيه الدعوة إلى الاكتتاب فى حرب السودان وفى المشروعات الخيرية(٧)

(١) راجع المقالات التى نشرها ولى الدين يكن فى المقطم ثم جمعها فى كتاب (الصحائف السود) ص ٥٧، ٧٢، ٨٦.

وكان ولى الدين يكن أحد أعضاء (تركيا الفتاة) المناوئة للسلطان عبد الحميد. وكان هذا سبب ولائه للانجليز.

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٢٣ (٣) المرجع نفسه ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٥

(٤) المرجع نفسه ٢ : ٢٦٨ (٥) المرجع نفسه ٢ : ٤١

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٦، ٥٧٧، ٨٢٤ وقد أعادوا ذلك وكرروه بعد ذلك فى السودان توسلا إلى قطع العلاقات بينه وبين مصر.

(٧) المرجع نفسه ١ : ٨٣٣، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٣ (فى حرب اليونان) و ٢ ب : ٢٦٦ (فى حرب طرابلس).

ومن الأمثلة الحية على ما كان يبذل الإنجليز من جهد فى سبيل محو اسم تركيا من أذهان المصريين ما يروى الكاشف عن نفسه فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه حين تقدم لامتحان الشهادة الابتدائية فالقى رئيس الامتحان على الطلبة هذا السؤال : (اذكروا دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها ، وإن زاد أحدكم دولة أخرى سقط وضاع) . وكان واضحاً أن المقصود بالفقرة الأخيرة هو أن لا تدخل تركيا بين دول أوروبا العظمى المقصودة بالسؤال . ولكن هذا التحذير لم يمنع الكاشف من إدخال تركيا بين الدول العظمى فكان جزاؤه أن رسب فى الامتحان . وقد شكا وزارة المعارف وقتذاك وهاجمها فى جريدة المؤيد فلم يجده ذلك نفعاً .

أما تأييد الانجليز للمعارضين للخديوى فالأمثلة عليه كثيرة ، منها تأييدهم لمحمد عبده الذى وصفه كرومر بأنه كان — ابغض عباس له — لا يستطيع أن يباشر سلطاته بوصفه مفتياً إلا بتأييده(١). ولأصدقائه أمثال مصطفى فهمى ورياض وسعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين ، لأنهم كانوا يهاجمون الخديوى ولأنهم كانوا يدعون إلى إصلاح داخلى فى حدود ضيقة لا تتعارض مع مصالح الانجليز ، بل إنها تؤيد دعواهم فيما يزعمون من أنهم يعملون لخير المصريين ويناصرون كل صاحب حق وكل مصلح مخلص(٢) . ومنها تعضيد كرومر لحزب الأمة عند إنشائه سنة ١٩٠٧ ، لما كان يتوسم فيه من مناهضة الخديوى عباس — وكان كثير من رجاله البارزين أصدقاء لمحمد عبده(٣) ومنها تدخل كرومر لحماية السيد محمد توفيق

---

(١) راجع الفقرة ٧ من تقرير كرومر سنة ١٩٠٥ تحت عنوان « Sheikh Mohamed Abdo وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ١٧٩ — ١٨١

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥١٦، ٥٩١ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٧٩ ، و ٢ ب : ٣٩ ، ١١٢ — ١١٣ ، و Modern Egypt ٢ : ١٧٩ وهامش ١٨٠، ١٨١

(٣) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ ، ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ وتراجع كذلك الفقرة ٣ ص ٨ من تقرير كرومر السنوى عن سنة ١٩٠٦ تحت عنوان « Egyptian Nationalism »

البكرى حين قدّم للمحاكمة سنة ١٨٩٧ بتهمة العيب فى الخديوى(١) .

* * *

كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد ، هو إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين فى مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين ، والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذى نبع من أرضهم المقدسة . وكانت الدولة العثمانية قوة روحية عظيمة ، مع كل ما ابتليت به من انحلال ومن فساد . فقد كانت قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية .

وكان كرومر يدرك ما تنطوى عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد ، وإعلاء مرتبة المجاهدين فى سبيل الله ، والحط من شأن القاعدين عن القتال ، والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة . حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح . ووصف الإســلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساساً لعلاقة الإنسان مستشهداً على ذلك بدعاء خطباء المساجد فى ظهر كل جمعة على الكفار بخراب الديار ، وبالآية : ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرقابِ ، حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوثاق ، فإمَّا مَنّاً بعدُ وإما فداء حتى تضعَ الحربُ أوزارها ، ذلك ولوْ يشاء اللهُ لانتصر منهُمْ . ولكن ليَبْلُوا بعضكم ببعض، والذين قُتِلوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم . سيهديهم ويُصلِحُ بالهمْ ويدْخِلهمُ الجنةَ عرَّفها لهم. ياأيها الذينآمنوا إن تنصروا الله ينصُرْكم ويثبِّت أقدامكم﴾(٢)

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٨ .

(٢) Modern Egypt ٢ : ١٣٧ — ١٤٠ وقد أورد ترجمة الآيات فى سورة « محمد » من ٤ إلى ١٢ بعد أن أسقط بعضها.

لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية ، حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذى لا ينضب ، الفياض ببغضهم والدعوة إلى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الدينى ، ويكررون هذه التهمة فى كل مناسبة وغير مناسبة حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرءوا منه . وظلت صحفهم وكتابهم يتحدثون عن التسامح وعن الانسانية حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق وسعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعاً ، حتى المعتدين منهم ، وحتى المغتصبين الذين يحتلون ديارهم بغير حق ولم يزالوا يحدثون المصريين عن المصالحة لينزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداســـة ، وتجعلها سعيا وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال .

وكان عباس — على كل ما فيه من عيوب — قوة لا يستهان بها . وقد وصفه كرومر بأنه قد اثبت على توالى الأيام — رغم ما آل إليه من فساد — قدرته على جمع الشعب المصرى وتكتيله . فعمل على إذلاله وإسقاط هيبته وتصويره فى صورة العاجز الذى لا يملك من الأمر شيئا ، وأوجد من المصريين من ينبش عيوبه ويظهر سيئاته بعد أن أمل له فيها وأرخى له العنان ليتورط فى المزيد منها .

كانت سياسة الإنجليز تدور حول خطتهم المشهورة « فرِّقْ تَسُدْ » .
« Devide in order to conquer »

* * *

كان هـــذا الاتجاه الأخير الذى يمثله حزب الأمة ضعيف الأثر فى الشعر . فلا نكاد نجد بين المقدَّمين من الشعراء المعاصرين من شايعه غير « نسيم » و « يكن » وقد كان كل منهما مشايعاً للانجليز ولممثلهم فى مصر « كرومر » ، يتغنى بعدله وإصلاحه ويهاجم الخديوى عباس ، ويسفه مبادىء الحزب الوطنى التى يدعو أصحابها إلى الفتنة — حسب زعمهما — وذلك نفسه هو ما كان يزعمه « كرومر » وصحيفته « المقطم » . أما نسيم فقد شايع الانجليز رغبة فى ما لهم ولم يعدل عن

مذهبه هذا إلا بعد أن رحل كرومر عن مصر وأصدر كتابه المشهور عن مصر الحديثة فهاجمه نسيم حينئذ لدينه كما يقول . وأما ولى الدين يكن فقد اتجاه إلى الانجليز بغضه الشديد للسلطان عبد الحميد ، وحماية كرومر له مع من حام من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » الفارين من عبد الحميد إلى مصر هذا إلى أنه أحد أعضاء حزب الاتحاد الذى كان يضم متفرنجى الترك ، والذى كان واقعاً تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و(الدونمة) من يهود سلانيك المتسترين بالاسلام والمتظاهرين باعتناقه .

وليس بمستغرب أن يكون أثر هذا الاتجاه العقلى — أو المادى النفعى إن شئت — ضعيفاً فى الشعر . فالشعر تعبير عن عاطفة . وقلما يتخذ وسيلة للتعبير عن التفكير المنطقى الذى يجد النثر أكثر مطاوعة وملاءمة . هذا إلى أن أسلوب مصطفى كامل فى الدعوة الوطنية كان أكثر موافقة لطبائع الشعراء والجماهير الذين كانت كثرتهم وقتذاك من أنصار الجامعة الاسلامية .

ولا نريد فى هذا المقام أن نطيل فى الاستشهاد بشعر نسيم ويكن ، لأننا سنعود إليهما عند الكلام عن التيارات السياسية فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولذلك فنحن نكتفى بتقديم مثالين من شعر نسيم ومثال ثالث من شعر يكن .

يتغنى نسيم فى قصيدته (نور العدل) بعدالة الإنجليز وينسب إليهم الفضل فى إنقاذ مصر من ظلم الترك ، ثم يهاجم المهيجين من رجال الحزب الوطنى فيقول(١) :

وما غر قومَ الغرب إلا صحائفٌ لها الغيُّ والبهتان دينٌ ومذهب

أبرىء منها بعضها غير جاهل فقيها ـ ولم أكذب ـ خبيث وطيب

وشيخ مُسن رامَ إشعالَ ثورة يخوض لظاها والأسنة مركبُ (٢)

(١) الديوان ١ : ٦

(٢) لعل المقصود بهذا الشيخ المسن هو السيد حسن موسى العقاد الذى كان من أعيان القاهرة ، والذى ناصر الثورة العرابية منذ بدايتها وحكم عليه بالنفى إلى مصوع عشرين سنة وقد عاد بعد الإفراج عنه إلى الاشتغال بالسياسة ومناصرة القضية الوطنية . وقد نشرت صحيفة (مصر) القبطية فى عدد ٥ يوليو سنة ١٩١٠ مقالاً فى مهاجمته عنوانه (اقرأ وتعجب أهكذا تكون الوطنية ؟ قلب الحركة =

وكيف يقود الأمين لفتنة ... لها وجه مصر يكفهر ويقطب

صغائر فيها للغيّ دعابة ... يُسَرّ بها من شاء يلهو ويلعب

ولو كان يدرى ما عواقب أمرها ... لبات حسير الطرف يبكى وينحب

بنى مصر !! إياكم وكيد عدوها ... فما هو إلا الأرقم المتقلب

خذوا مصر من أيدى العدو لترتقى ... ويعنو لها بالعلم شرق ومغرب

فلو حلها أهل الفساد لأصبحت ... بلاداً يعشيها الفسادُ فتخرب

وتمسى كما كانت ربوعها مضيمة ... عليها وفيها أبقعُ اللون ينعب(1)

هنالك تحسو المُرّ من كف ظالم ... يدور بكاسات الهوان فتشرب

وفيها معنى من غابر الظلم عبرة ... لقوم أذلتهم عصور وأحقب

نكالٌ وجورٌ وانتقام وسخرة ... وهضم حقوق من يد الشعب تغصب(2)

ويختم القصيدةَ بقوله :

أحب لقومى كل خير ونعمة ... وأرجو لهم أسمى الذى يتطلبُ

فإن عشقوا هجوى عشقت مديحهم ... وحسبى ولى آىٌ من الحمد تكتبُ

ومن يجفنى منهم جزيتُ جفاءه ... بود وسعيٍ قربُه لا التجنبُ

على كل حال أحسنَ اللهُ حالهم ... وجاد مغانيهم من الخير صيّبُ

إذا قيل لى من أنت قلتُ أخو نهىً(3) ... إلى النيل يعزى أو إلى مصر ينسب

ويبدأ الشاعر قصيدته (اختلاف الأحزاب)(4) بمهاجمة من يسميهم «المغالين»

= الوطنية إلى دينية واتهام هـذا الوهم فى مذبحة الاسكندرية) والمقال يهاجم العقاد ويتهمه بتمجيد مبادىء الحزب الوطنى الذى هو فى نظر الصحيفة امتداد للثورة العرابية — يراجع نص محضر استجواب حسن موسى العقاد فى (مصر المصريين ج ٧ ص ١٧٩ — ٢٠٠)

(١) أبقع اللون: الغراب، يقصد الذين يدعون إلى الثورة. نعب الغراب: صاح .

(٢) يشير إلى حال مصر قبل الاحتلال الذى رفع هذه المظالم حسب زعمه .

(٣) النهى جمع نهية (بضم النون) وهى العقل . أخو نهى : أى عاقل . وكذلك كانت هذه الطائفة تسمى نفسها ، وكذلك كان يسميهم خصومهم متهكمين (العقلاء) .

(٤) الديوان ١ : ٨٥ .

من رجال الحزب الوطنى فيقول :

لا توقدوا جمرات البغض إيقاداً | من الهموم بنا ما جلّ تعداداً
حزب المغالين إن الدار آمنة | فــلا تثيروا بها للشر أحقاداً
هذى هى الدارُ دارُ الأمن زاهرةٌ | تجنى من العدل نعماء وإسعاداً

ثم يستعرض أسباب تفوق الغربيين فيقول :

هم معشر أبدعوا فى سيرهم طرقاً | للمجد صاروا بها فُرّاً وأفرادا
شقوا للبحار وخاضوها على سفن | تُزجى كما حاولوا فى الجو إصعادا
جابوا الفيافى حتى ملّهم قتَب | من كل جائلة تجتاب أنجادا
هبوا إلى العلم والدنيا تراودهم | عنها ! وما أخلفوا للدأب ميعادا
إن صوّب الدهر فيهم سهم كارثة | كانوا على الدهر أجبالا وأطوادا
أو قيل سيروا ثنا فى الجد من وصب | ساروا ولو أجهدوا للقطب إجهادا
حتى إذا بلغوا القطبين ما وقفوا | ولا أبى عزمهم فى السعى إسآدا
ولا رأيت سوى ماض يشقهما | حتى يجوب جميع الأرض مرتادا
هم معشر رغبوا فى الدأب عن كسل | وفككوا فيه أغلالا وأصفادا

ثم يتجه إلى بنى وطنه فى آخر القصيدة بالنصح طالباً إليهم أن يحتذوا بالغرب ويتجنبوا الخلاف . وهو يقصد بتجنب الخلاف أن يكف المهيجون عن التهييج وينصرفوا عن مناصبة الإنجليز إلى التعاون مع الذين يعملون للإصلاح فيقول :

هذى فضائلهم يا قوم فانتجعوا | مناهل المجــــد إصداراً وإيرادا
خير النصيحة أسديها إلى وطنى | لعلنى مرشـــد من رام إرشادا
كونوا أحبّاء خيراً من تنافركم | ولا تكونوا عباد الله أضدادا

ويقول ولى الدين يكن من قصيدة استقبل بها الخديوى عباس عند عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ ، معرضاً برجال الحزب الوطنى الذين

كانوا يناصبون عباسا وقتذاك(١) ، مؤيداً مذهب الذين يريدون أن ينصرف الناس إلى نشر التعليم وتنمية الثروة(٢) :

تسامَ بمصر ربَّ مصر إلى العلا ... وإن وقفت في سيرها فتقدَّمِ
أحاطت بآمال لديك فتيّة ... فإن تنتهزها مصرُ بالرأي تغنمَ
وما مصرُ إلا دولةٌ في شبابها ... فإن تبتذله في الغواية تهرم
وإن لم تفق في نومها يبق نومها ... وإن لم تُكرِّمِ نفسَها لا تُكرَّمِ
وإن لم يقوِّمْها إذا اعوجَّ عودُها ... فتى صادقٌ في نصحه لم تقوَّم
وإن لم يُنرْها بالمعارف أهلُها ... إذا حلكت فيها الجهالة تظلم
وإن لم يفيدوها الثراء بجدّهم ... وإن كثرت فيها النفائس تُعدمِ
ومُصيبة شرٌّ تداعت بعدَ مثلها ... كذلك يأتي أشأمُ بعد أشأم
تشاهد أفراح البلاد عَميمةً ... فتغدو لأفراح البلاد بمأتم
وإن تبتسم مصر تبكي من الأسى ... وإن تبك مصر من أسىً تتبسَّم
فويل لأمورٍ عندها متكشِّف ... وويل لحقّ عندها متلثّم
لها اللهُ هاتيك النفوسَ فإنها ... وإن تتجبَّرْ عُرضةُ المتهضِّم
فما بينها من ناظر متأمل ... ولا بينها من سامع متفهم

* * *

وصاحبَ هذه الحركة التي تستهدف الجامعة المصرية اتجاه قوى شعبي نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر القديم ، وبعث الشعور بالعزة ، بإحياء المجد الفرعوني ، بينا صاحب الحركة الأولى التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية بعث التاريخ

---

(١) كان الحزب الوطني يناصب عباساً وقتذاك لميله إلى مهادنة الانجليز أو إلى سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها . وقد انتهى عهد الوفاق بين عباس والانجليز بوفاة إلدون غورست في ١٢ يوليو سنة ١٩١١ وتعيين خلف عنيف له ، جمع في يده السلطة كلها وهو اللورد كتشنر ، الذي وصل إلى مصر على بارجة حربية بريطانية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١

(٢) الديوان ص ٧٨

الإسلامى وعرض صور من بطولات العرب وأمجادهم . وجمع كثير من الشعراء بين الاتجاهين بمثل ما ألف الحزب الوطنى بين النزعتين ولم ير فيهما تعارضا ، وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ - شعره ونثره - من أقوى الأدوات فى استنهاض الهمم وبعث الأمل ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى نفوس تمكّنَ منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

وبدت طلائع هذا الاتجاه فى شعر البارودى الذى يقول(1) :

سل الجيزة الفيحاء عن هَرمَىْ مصر لعلك تدرى غَيْبَ ما لم تكن تدرى
بناءان رَدّا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يَغْلِبا صولة الدهر !!
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البَرِيَّةِ بالفخر
فكم أممٍ فى الدهر بادت وأعصُرٍ خلت ، وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما أساطيرُ لا تنفكُّ تُتلى إلى الحشر

ثم جاء شوقى من بعده فتوسع فى هذا الاتجاه الجديد حتى أصبح شاعره الفذ ، فحق له أن يقول فى القصيدة التى وجهها إلى روزفلت عقب زيارته لمصر سنة ١٩١٠ (2) :

وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يَصُنْ مجدَ قومه صان عِرْضا

وأن يقول بعد ذلك فى قصيدته فى توت عنخ آمون سنة ١٩٢٤ (3) :

هذا المقامُ عرفتُهُ وسبقت فيه القائلين
ووقفتُ فى آثاركم أزنُ الجلال وأستبين
وبنيتُ فى العشرين من أحجارها شعرى الرصين
كيتم خيالَ المجد يُر فعُ للشباب الطامعين

(1) الديوان ١ : ١٤٩ (2) الديوان ٢ : ٦٦ (3) الديوان ٢ : ١١٦

وشوقي هو صاحب الهمزية الطويلة المشهورة التي تبلغ مائة وواحداً وثلاثين بيتاً : (١)

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وقد ألقاها في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ ، وسنه لم تتجاوز السادسة والعشرين . وعرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور . يقول فيها مستنهضاً همم الشباب :

وانتهت إمرة البحار إلى الشر قِ وقام الوجود فيما يشاء
وبنينا فلم نخل لبان وعلونا فلم يجزنا علاء
وملكنا فالمالكون عبيد والبرايا بأسرهم أسراء
قل لبان بنى فشاد فغالى لم يجز مصر في الزمان بناء

فإذا وصل إلى غزو الرعاة لمصر عام ١٦٧٥ قبل الميلاد ، توقف قليلا ليصور تجبر المحتل واستذلاله أهل البلاد ، وتقريبه طائفة من المنافقين الذين يؤثرون النفع القريب ، يغدق عليهم خيره ويغمرهم بنعمه . ثم يحذر الحاكمين من عاقبة الجور ومن ثورة الضعيف :

وإذا مصر شاة خير لراعي السو ءِ تؤذى في نسلها وتساء
قد أذل الرجال فهي عبيد ونفوس الرجال فهي إماء
فإذا شاء فالرقاب فداء ويسير إذا أراد الدماء
ولقوم نواله ورضاه ولأقوام القلى والجفاء
ففريق ممتعون بمصر وفريق في أرضهم غرباء
إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ـرِ فكيف الخلائق العقلاء ؟!
يحسب الظالمون أن سيسودو نَ وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثلما جا روا ، والدهر مثلهم أهواء

(١) الديوان ١ : ١

وإذا بلغ غزو قمبيز ملك الفرس لمصر سنة ٥٢٥ ق . م ، وأسره ملكها أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بعد أن انهزمت جيوشه لم يفته الوقوف ليصور موقف فرعون الأسير وابنته في إبائهما العصي وكبريائهما المترفع ، إذ يقول :

جيء بالمالك العزيز ذليلا لم تزلزل فؤاده البأساء
يُبصر الآل إذ يراح بهم في موقف الذل عنوة وبهاء
بنت فرعون في السلاسل تمشي أزعج الدهر عريها والحفاء
فكأن لم ينهض بهودجها الدهـ
ـر ولا سار خلفها الأمراء
وأبوها العظيم ينظر لما رديت مثلما تردى الإماء
أعطيت جرة وقيل إليك النهر قومي كما تقوم الإماء
فمشت تظهر الإباء وتحمى الد مع أن تسترقه الضراء
والأعادي شواخص ، وأبوها بيد الخطب صخرة صماء

فإذا بلغ فتح العرب مصر قال :

من كعمرو البلاد ، والضاد عما
شاد فيها ، والملة الغراء (١)
شاد للمسلمين ركنا جساما ضافي الظل دائم الإيواء
طالما قامت الخلافة فيه فاطمأنت وقامت الخلفاء
وانتهى الدين بالرجاء إليه وبنو الدين إذ هم ضعفاء

ويقفز بعد ذلك إلى تمجيد بطولة صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية فيقول :

واذكر الغر آل أيوب وامدح فمن المدح للرجال جزاء

---

(١) يشير بالضاد إلى اللغة العربية . يقول : إن العربية التي تتكلمها مصر ، والإسلام الذي تدين به ، هما من آثار ذلك الفتح الأغر .

هم حماة الإسلام والنفر البيـ   ـض الملوك الأعزة الصلحاء
كل يوم بالصالحية حصن   وبلبيس قلعة شماء
وبمصر للعلم دار وللضيـ   ـفان نار عظيمة حمراء
ولأعداء آل أيوب قتل   ولأسرى الهوى قرى وثواء
يوم سار الصليب والحاملوه   ومشى الغرب: قومه والنساء
بنفوس تجول فيها الأماني   وقلوب تثور فيها الدماء
يضمرون الدمار للحق والنا   س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدون بالتلاوة والصلـ   ـبان ما شاد بالقنا البناء
فلقيتهم عزائم صدق   نقض الدين ينهن خباء
مزقت جمعهم على كل أرض   مثلما مزق الظلام الضياء
هكذا المسلمون والعرب الخا   لون ، لا ما يقوله الأعداء
فيهم في الزمان نلنا الليالي   وبهم في الورى لنا أنباء
ليس للذل حيلة في نفوس   يستوي الموت عندها والبقاء

وشوقي بعد هذا هو صاحب قصيدة أنس الوجود التي خاطب بها روزفلت عندما زار مصر في مارس سنة ١٩١٠ (١) :

أيها المنتحي بأسوان داراً   كالثريا تريد أن تنقضا

---

(١) زار « تيودور روزفلت » مصر عائداً من السودان . وألقى فيها خطابين يجد في أولها الاحتلال ، وعارض في الآخر حركة المطالبة بالدستور التي كانت على أشدها في ذلك الوقت . فكان لخطابيه دوي قوي . وقد أثارا شعور السخط والاستنكار ، فتوالت عليه برقيات الاحتجاج ، ونادى المتظاهرون أمام فندق شبرد بسقوطه حيث كان ينزل ، وفي الاسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً . و « تيودور روزفلت » هذا هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة من سنة ١٩٠١ إلى ١٩٠٨ وقد توفي سنة ١٩١٩ ، وهو قريب « فرانكلين روزفلت » رئيس الجمهورية في الحرب العالمية الثانية .

(٢) الديوان ٢ : ٦٧ والخطاب هنا لروزفلت . وقد نشرت القصيدة في مجلة الهداية بعدد أكتوبر سنة ١٩١٠ أي أنها نشرت بعد زيارة روزفلت بنحو من ستة شهور . بينما نشرت قصيدة لحافظ عقب إلقاء خطبة روزفلت الأولى في الخرطوم وقبل خطبة الجامعة في القاهرة :

أي خطيب الدنيا الجديد شنفت   سمع مصر بقولك المأثور =

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور فى اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الذعر بعضا
مشرفات على الزوال وكانت ... مشرفات على الكواكب نهضا

فإذا بلغ من تصوير الفن القديم وبراعته المعجزة ما أراد، قال يرثى مجد مصر الزائل داعياً الله أن يرد على الوطن عزته ورفعته :

يا قصوراً نظرتها وهى تقضى ... فسكبت الدموع والحق يقضى
أنت مجد وسطر مصر كتاب ... كيف سام البلى كتابك فضا ؟ !
قل لها فى الدعاء ـ لو كان يجدى ـ ... يا سماء الجلال لاصرت أرضا

وشـــوق هو صاحب المطولة المشهورة فى النيل التى تزيد على مائة وخمسين بيتاً (١) :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟ ... وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق ؟
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق (٢)
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق

وقد وجهوا إلى الأستاذ «مرجوليوث» أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد أثناء الحرب العالمية الأولى وقال فى ديباجتها « . . . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة قيلت والهموم سارية والأقدار بالمخاوف جارية ، والدماء والدموع متبارية ، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية . نظمتها تغنيا بمحاسن الماضى ، وتقييداً لآثار الآباء ، وقضاء لحق النيل الأسعد الأمجد . وبعثتها إليك عرفانا لفضلك على لغة العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة فى إحياء علومها ونشر آدابها » .

= وقد جاءت القصيدة فى كتاب محمد فريد ص ١٦٤ ولم ترد فى الديوان . وهى أكثر صراحة فى مواجهة روزفلت من قصيدة شوقى . ومن المعروف أن وظيفة شوقى فى القصر كانت تقيده ، بينما كان حافظ فى ذلك الوقت حراً من كل قيد .

(١) الديوان ٢ : ٧٧ ... (٢) فهق الإناء : امتلأ وفاض .

وفيها يقول :

أين الفراعنة الألى استذرى بهم | عيسى ويوسف والكليم المصعق(١)
الموردون الناس منهل حكمة | أفضى إليه الأنبياء ليستقوا
الرافعون إلى الضحى آباءهم | فالشمس أصلهم الوضىء المعرقُ
وكأنما بين البلى وقبورهم | عهد على أن لا مساس ولا توثق
فحجابهم تحت الثرى في هيبة | كحجابهم فوق الثرى لا يخرق
كم موكب تتخايل الدنيا به | يجلى كما تجلى النجوم ويفشق
فرعون فيه من الكتائب مقبل | كالسحب قرن الشمس منها مفتق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه | للشمس في الآفاق عان مطرق
آبت من السفر البعيد جنوده | وأتته بالفتح السعيد الفيلق
ومشى الملوك مصفدين ، خدودهم | نعل لفرعون العظيم ونمرق
مملوكة أعناقهم ليمينه | يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

ويعدد الأديان التي شهدها هذا النهر العجوز فيقول :

تابوت موسى لا تزال جلالة | تبدو عليك له وريا تنشق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه | حوليك في أفق الجلال يرنق
ودموع إخوته رسائل توبة | مسطورهن بشاطئيك منسق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل | يزكو لذكراها النبات ويسمق
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً | بركات ربك والنعيم الغيدق

---

(١) استذرى بهم : أى لجأ إليهم واستظل بظلهم. الكليم هو موسى عليه السلام الذى كلمه الله . المصعق الذى صعق حين طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وهو يشير إلى قوله تعالى (فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) — الأعراف ١٤٣ .

ووديائع الفاروق عندك دينه ولواؤه وبيانه والمنطق(١)
بعث الصحابة يحملون من الهدى والحقّ ما يحيى العقول ويفتق
يبنون لله الكنانة بالقنا والله من حول البنـاء موفق
في الحق سلّ وفيه أغمد سيفهم سيف الكريم من الجهالة يفرق

ويختم قصيدته الرائعة متوجها إلى النيل بخطابه فيقول :

لى فيك مدح ليس فيه تكلف أملاه حبٌّ ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهى عندك ترزق(٢)
تهفو إليهم في التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم ، والله جلّ جلاله منا ومنك بهم أبرّ وأرفق
فاحفظ ودائعك التى استودعتها أنت الوفى إذا أؤتمنت الأصدق
للأرض يوم والسماء قيامة وقيامة الوادى غداة تحلق(٣)

ومع ذلك كله فشوقي هو صاحب المدائح النبوية المشهورة (الهمزية والبائية والميمية) وهو صاحب الأرجوزة الكبرى التى نظمها فى منفاه (دول العرب وعظماء الاسلام) . وهو أيضاً صاحب الشعر الإسلامى الغزير الذى قدمنا نماذج عديدة منه فى الفصل السابق .

---

(١) الفاروق هو الخليفة عمر رضى الله عنه . أودع مصر دين الإسلام ، وأودعها جيشه ، وأودعها لغة العرب التى أصبحت لسان المصريين .

(٢) يقصد بالأفرخ : الأولاد والذرية . نعنى نحن ونتركهم من بعدنا فى كنف النيل .

(٣) تحلق : أى تجف . يقول إن الوادى باق ما بقيت أيها النيل وما جرى ماؤك الذى يحييه .

الفصل الثالث

محنة الجامعة المصرية

(المؤتمر القبطي والمؤتمر المصري)

في سنة ١٩١١ ظهرت أزمة فادحة كادت تودي بفكرة الجامعة المصرية ، وتهدم الوحدة الوطنية ، وهي تفاقم الخلاف بين عنصري الأمة : المسلمين والمسيحيين ، واتخاذ هذا الخلاف الخفي شكلا صريحاً سافراً عنيفا في المؤتمر الذي انعقد بأسيوط في مارس سنة ١٩١١[1] .

وليس من السهل تتبع هذا التصدع لرده إلى أسبابه الأولى ، وليس من موضوع هذا البحث أن يتتبعه ، ولكن المتتبع لهذه الكارثة منذ نشأت الدعوة إليها في الصحف القبطية سنة ١٩٠٩ ، ولما سبق ذلك من أحداث ، يستطيع أن يدرك في يسر أن الأزمة ترجع في جوهرها إلى سوء الظن وفقدان الثقة ، فقد كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ، ويتهمونهم بموالاة الإنجليز المستعمرين لما يجمع بينهما من رابطة المسيحية . وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز . وقد لعب الجهل الذي يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دوراً خطيراً في هذا الانشقاق .

كان كثير من المسلمين ينزلون أنفسهم منزلة خاصة من القبطي وينظرون إليه نظر السيد إلى المولى ، حتى انتهى الأمر بالقبط إلى أن يرفعوا أنفسهم بين الأسر

(١) راجع تفاصيل المؤتمر القبطي وما ألقي فيه من خطب أعداد صحيفة (مصر) من الأحد ٥ مارس إلى الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١١ .

الإسلامية الكبيرة في قرى الصعيد يضعون أنفسهم تحت حمايتهم(١) ، وليس يعنينا هنا أن نرد هذه الحالة إلى أصولها الأولى ونتتبعها في تاريخها الطويل ، ولكن الواقع هو أن هذه التقاليد كانت ثابتة مقررة في العصر الذي نؤرخ له ، وأنها كانت تجد تشجيعاً من بعض الحكام الذين أساءوا فهم تعاليم الإسلام السمحة العادلة . ونسي هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم . وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ العنكبوت ٤٦ . ويقول جل شأنه : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ البقرة ٦٢ . . . ويقول : ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب ﴾ آل عمران ١٩٩ . . . ويقول : ﴿ ليسوا سواءً . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ آل عمران ١١٣ . وقد سبق في علم الله أن يكون الناس طوائف وشيعاً لحكمة تُراد : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة . ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ المائدة ٤٨ ﴿ ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ! ﴾ يونس ٩٩ .

ذلك هو الإسلام بعدله وسماحته ، وإنصافه وإنسانيته ، ولكن الكثرة الجاهلة - من المسلمين والقبط على السواء - كانت قد نشأت على تقاليد فاسدة اعتبرها الأولون حقاً لهم . وأذعن لها الآخرون على أنها أمر واقع ، يتحينون الفرص الخلاص منه . وكانت الجامعة الوطنية فكرة ناشئة لم تستقر كما رأينا في الفصل السابق ، وكانت الجامعة الغالبة على تفكير العصر هي الجامعة الدينية ؛ لذلك كان من

(١) مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ٤٨ .

الطبيعى أن يختلف موقف القبط من الاحتلال الانجليزى المسيحى عن موقف المسلمين من المصريين فهم إن لم يطمئنوا إليه لا يتحمسون لمحاربته تحمس المسلمين. فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم فى ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر(1) من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة، وانفتح أمامهم باب الأمل فى تحسين حالتهم. وبدأ كثير منهم يضيق بالأوضاع السائدة التى قبلوها من قبل على أنها أمر مقرر وحقيقة واقعة . ونظر المسلمون من ناحيتهم إلى هذه الروح الجديدة على أنها تمرد وانتهاز للفرص وخيانة للبلد الذى يطعمهم ويكسوهم ، والذى تتكون كثرته من المسلمين . واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديدا (2) . وكان إقبالهم على التعليم — وعلى الأجنبى منه بنوع خاص — بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التى زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل ، كان ذلك سبباً فى أن تجاوز نسبتهم فى الوظائف الحكومية نسبتهم العددية فى السكان بمقدار كبير(3) ، وكان حرصهم على جمع المال سبباً فى اطراد الازدياد فى ثرائهم . وكان نجاحهم هذا يغريهم بالمثابرة ، ويزيدهم أملا وطموحا ، بينما كان فى الوقت نفسه يزيد من سوء ظن المسلمين بهم ويقوى الشبهة القائمة فى نفوسهم من أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بتحيز المستعمر واحتضانه لهم. ولما زاد عدد المتعلمين من القبط وارتفعت نسبة ما يدفعه أغنياؤهم من ضرائب ، حتى أصبحت نسبتهم فى كلتا الناحيتين تفوق نسبتهم العددية فى السكان بدأوا يحسون أنهم مظلومون ، وأن من حقهم أن يكون لهم من الوظائف والمرافق بمقدار من فيهم من المتعلمين وبمقدار ما يدفعون من الضرائب . وانظر

---

(1) Modern Egypt ٢ : ٢٠٩

(2) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول ص ٨٤ — ٨٧

(3) راجع جداول الإحصاء المصدر السابق فى صفحات ٣٤ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ١٩٦ — ٢٠٤ وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١

المسلمون فإذا عدد القبط في الوظائف يتجاوز نسبتهم العددية بكثير ، بل لقد وجدوا أنهم أكثرية في بعض المصالح والوزارات ، فرأوا أن تذمرهم هذا ينطوي على الشطط والجشع وتجاوز الحد في الإنصاف ، وأنهم إنما يريدون أن تتحكم القلة القليلة في مصائر الكثرة الكثيرة ، اعتماداً على حماية المستعمر المسيحي ، وعلى خوف المسلمين من أن يتهموا بالتعصب الديني . وزاد في سعة الهوة بين الفريقين أن العصبية سرت بين القبط ، وصار بعضهم يؤثر البعض الآخر بالخير ، وصار الموظف منهم يسعى إلى زيادة عدد الموظفين من طائفته ما وسعه ذلك .

ولم يكن من المستغرب أن يكره المسيحيون الحكم التركي الذي لم ينالوا منه خيراً ، ولم يذوقوا على يديه إلا الذل . وكان طبيعياً أن يكرهوا كل دعوة إلى الجامعة الاسلامية أو الرابطة العثمانية ، وأن لا يتحمسوا للدعوة الوطنية الدينية الموالية للترك ، والتي كان يمثلها الحزب الوطني وقتذاك .

فانطووا على أنفسهم متوهمين أن مصلحتهم تختلف عن مصلحة الكثرة الكبيرة من المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنشأوا لهم صحافة تعبر عن مصالحهم ورغباتهم . فصدرت جريدة الوطن سنة ١٨٧٧ [١] ، ثم صدرت صحيفة مصر سنة ١٨٩٥ [٢] ، وصدرت صحف أخرى اختفت بعد ظهورها بمدد قصيرة لم يكن لها أثر كبير .

وأخذت هذه الصحف اليومية تقصر اهتمامها على معالجة مشاكل القبط ، وتطالب برفع ما توهمته من ظلم . ولم تزل تسير في طريقها هذا حتى انتهى بها الامر إلى أن تتحدث عن القبط وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وتقول إنهم سلالة الفراعنة وأصحاب البلاد ، وإنهم هم المصريون الخلص الذين لا تشوب

---

(١) أصدرها ميخائيل عبد السيد . وهي أقدم الصحف القبطية . توقفت حيناً بعد الاحتلال ، ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ (تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ٤ : ٦٦)

(٢) أصدرها تادرس بك شنودة المنقبادي .

دمهم شائبة أجنبية(١) . وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأى العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره . تصــدر وزارة بطرس غالى فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر فى ٢٦ نوفبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد ، فتستنكره الأمة ، وتقوم مظاهرات الاحتجاج من مختلف الطوائف ، وتصطدم للمرة الأولى برجال البوليس تحت قيادة حكمدار العاصمة الانجليزى هارفى باشا(٢) . ولكن صحيفة مصر تنشر مقالا فى تأييد القانون الجديد الذى يحد ـ حسب زعمها ـ من سلاطة السفهاء الذين يدعون إلى الفتنة(٣) . ويقدم تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق إلى مصر فى مارس سنة ١٩١٠ عن طريق السودان ، بعد أن ألقى بالخرطوم خطابة سياسية مجد فيها الاحتلال ، فيلقى فى الجامعة المصرية بالقاهرة خطابة يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها ، ويقول: إن تربية الشعب لكى يصبح صالحاً لحكم نفسه هى مسألة أجيال متتابعة ، وإن سبيل ذلك لا يمكن أن يكون بإصدار دستور يصبح حبراً على ورق . ويقابل المصريون خطابته بالاستنكار الشديد . وترسل الاحتجاجات على إدارة الجامعة لسماحها بإلقاء هذه الخطابة فى دارها ومنحها الخاطب لقب الدكتوراه الفخرية بعد إلقائها ، وينادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد فى القاهرة حيث كان

(١) راجع أمثلة ذلك فى صحيفة (مصر) عدد ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى مقال (إلى الأمة القبطية) وعدد ٣ فبراير سنة ١٩١٠ فى مقال (طريق التقدم فى الهيئة الاجتماعية القبطية) ، وعدد ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ فى الدعوة باسم بشرى حنا إلى عقد مؤتمر قبطى عام فى مدينة أسيوط ، وعدد ٢٨ فبراير فى مقال (إلى أى طريق نحن ذاهبون) ، ومرثية وهبى بك ناظر المدارس القبطية لبطرس غالى فى عدد ٢ إبريل سنة ١٩١٠ التى يؤرخ فيها وفاته بالتاريخ القبطى (١٦٢٦ قبطية) :

قم أنشـــد بين القبور وأرخ   مات وامصر بطرس" مقتولا

وراجع كذلك صحيفة (العلم) عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ فى مقال (آلام القبط)

(٢) محمد فريد ص ١٠٠ .

(٣) راجع صحيفة (مصر) عدد ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ فى مقال (لماذا قيدت الصحافة) .

يتزل ، وفى الاسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً(١) . ولكن صحيفة مصر تنكتب فى تأييده وفى الرد على من يهاجمه فتطالع القراء بافتتاحية عنوانها (الخطاب العظيم — المستر روزفلت فى الجامعة المصرية)(٢) تبدأها بقولها : « لم يدوِّ فى جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذى ألقاه جناب المستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا سابقاً فى الجامعة المصرية أمس . ولا أصرح منه عبارة ، ولا أنفع لها فى الحال والاستقبال . وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام، لأنه كان صادراً عن إخلاص صحيح ، ورغبة تامة فى خير البلاد ، وتتمادى الصحيفة فى التحدى فتعود إلى الحديث عن خطاب روزفلت بعد أيام فى مقال عنوانه (فلنصفِّ الحساب)(٣) تبدأه بقولها : كثر الحدس والتخمين ، وزادت الشكوك وقل اليقين ، وترك روزفلت الناس حيارى لا يدرون من الذى نبهه إلى سياسة مصر ودخيلتها ، وأعلمه أسرارها ، وكشف له عن عوراتها ، قال روزفلت حكمته وخطب خطبته ، فلم يهتم القوم لموضوع الخطاب اهتمامهم بالبحث عن مصدر علم الرئيس بمجارى الأحوال ، ومن هم الواشون على البلد ، ومن ذا الذى أوصل إليه الأخبار حتى قال ما قال . بحثوا ليعلموا بلا تأن ولا اعتدال ، فنسبوا القول لأكبر الأعداء الماكرين ، وهم فى عرفهم الإنجليز البريطانيون ، والملام فى شرعهم مبعوثو الأمريكان ، مكدِّروا صفاء الأديان ببلاد السلطان . ثم عطفوا على أولاد سوريا وسكان الشام ، وأشبعوهم سفاهة وتأنيباً ، ووصفوهم بالخائنين اللئام . وأخيراً ساءوا إلى أبناء وطنهم وأساءوا الظن بالقبط إخوانهم ، ثم تدافع الصحيفة عن خطاب روزفلت قائلة : « ومع ذلك لو سلمنا جدلا وافترضنا أن الرجل استقى المعلومات من الانجليز والأمريكان والسوريين والأقباط . فما الذى أتاه بخطبته يخالف واجب الضيافة ؟...وما هى الإهانة التى أهان بها المصريين

---

(١) محمد فريد ص ١٦٠ .

(٢) عدد ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ .

(٣) عدد ٧ إبريل سنة ١٩١٠ .

حتى تقوم الجرائد بهذه القيامة ؟... إن هذا العظيم والرجل المهاب(١) الذى تنازل أن يلق علينا الخطاب لم يرم المصرى بخسة أو دناءة ، ولم يحكم علينا بعدم الأهلية ولا بقلة الكفاءة ، بل خطب خطابا كله مواعظ وحكم وإرشاد ، وبين لنا ما هى السبيل المؤدية إلى إسعاد البلاد ... » وتمضى الصحيفة إلى آخر المقال فى بيان أن الرجل قد دل مصر على ما فيه خيرها مخلصا لها النصح .

* * *

كان كل ذلك داعياً إلى تنمية سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وتوسيع الهوة التى تفصل بينهما ، حتى دفع الشذاذ والمكابرة والشذوذ بالعزلة والانسلاخ من الجامعة المصرية بعض القبط إلى التخلى عن جنسيتهم ، والتماس العزة فى ظل بعض الجنسيات الأوروبية التى كانت تكسبها الامتيازاتُ الأجنبية حصانة خاصة وتضعها فى مركز ممتاز لا تمتد إليه يد القانون(٢) . وأخذ بعض أعيان القبط فى الصعيد يدعون سراً لعقد مؤتمر يبحث حالتهم ويؤيد مطالبهم ، ويبثون روح السخط بين المواطنين الاقباط ، ويصورون أنهم مغبونون فى الوظائف وفى الحقوق العامة ، وكانت الصحيفتان القبطيتان (مصر) و (الوطن) تنفخان فى هذه الروح. وأوجس الناس خيفة من عواقب هذه الحركة الوخيمة. ولكن بطرس غالى — وكان رئيسا للوزارة وقتذاك — كان يطمئنهم بأنه مالك لزمام الموقف . وقد أنذر صحيفة (الوطن) وهددها بتعطيلها إذ لم تكف عن المضى فى التهييج .

---

(١) كذلك جاء فى المقال وهو خطأ . وصوابه (المهيب) بفتح الميم .

(٢) راجع صحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ فى مقال (وطنيون أم أجانب ؟... والسياسة أم للدين ؟ . . .) وفى ختامها أن فخرى عبد النور كان متجنسا بالجنسية الألمانية ، وأن بشرى حنا بك كان وكيل قنصل روسيا فى أسيوط ، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل الروسيا فى المنيا ، وكان جورجى ويصا بك وكيل قنصل أمريكا فى أسيوط ، وكان الخواجة تادرس مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط . وكان يسى اندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا فى الأقصر . وقد أصبح هؤلاء فيما بعد من أساطين حزب الوفد .

وفوجىء الناس بقتل بطرس غالى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ فتفاقم بمقتله الخلاف ، وصرح الشر، وبرزت الفتنة عارية عمياء ، تخبط خبط عشواء. كان قاتله إبراهيم ناصف الوردانى ، شاباً فى الرابعة والعشرين من عمره ، تلقى علوم الصيدلة فى لوزان وفتح بعد عودته صيدلية . وكان من المتحمسين لمبادىء الحزب الوطنى المناوىء للخديوى عباس وقتذاك ، بعد أن مال إلى مهادنة المستعمرين والاتفاق مع عثلهم الذى خلف كرومر فى مصر : إلدون جورست ، وكان الحزب الوطنى يرى أن بطرس غالى هو عضد الخديوى الأيمن فى سياسته الجديدة . فهو الذى سافر معه إلى لنــدن فى صيف سنة ١٩٠٨ حين كان وزيراً للخارجية فى وزارة مصطفى فهمى، وتفاهم مع الإنجليز على السياسة الجديدة . وقد كان من قبل مستشاره وسفيره فيما كان ينشب بينه وبين كرومر من خلاف(١) . وقد رشحه الخديوى عباس لرياسة الوزارة، وضمنه عند جورست حين سأله: الايحصل انتقاد من الأهالى بتعيين رئيس قبطى؟ فرد عليه عباس قائلا : إنه قبطى ولكنه مصرى ، أما نوبار فلم يكن مصريا(٢) . ثم إن تاريخ الرجل السياسى فيه من الأخطاء مايتزل إلى درجة الخيانة الوطنية. فهو الذى وقع اتفاقية السودان فى سنة ١٨٩٩ بالنيابة عن الحكومة المصرية بوصفه وزير خارجيتها(٣) . وقد فوجىء الناس وقتذاك بتوقيعها، ولم يذع أمرها إلا بعد إبرامها . وكانت الصحف تجهل الخطوات التى سبقتها فلم تنشر شيئاً عن مقدماتها أو المفاوضات بشأنها(٤) . ثم إن بطرس غالى هو الذى أصدر قراراً بتشكيل المحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل

(١) راجع أمثلة مختلفة لذلك فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ٤٤ ، ٥٦ — ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١١٠

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٥٩

(٣) وهى الاتفاقية التى خولت لانجلترا رسمياً حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فى السودان ، ورفع العلم الانجليزى إلى جانب العلم المصرى فى أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة الإنجليزية .

(٤) مصطفى كامل ص ١٠٩

بالنيابة ورأس هذه المحكمة بنفسه(١) . وقد استهل عمله في الوزارة التي رأسها بكبت الحريات ، فأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم في مارس سنة ١٩٠٩(٢) . وأصدر قانون النفي الإداري الذي يضع في يد السلطة الإدارية حق نفي الأشخاص الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام إلى جهة نائية بالقطر المصري(٣) . وختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس في مفاوضات لمد امتيازها أربعين سنة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات(٤) .

كان الحزب الوطني إذن يرى أن الرجل قد خان وطنه وآذاه . ولكن الصحف القبطية ، ومعها كثير من القبط ، كانوا يرون أن هذه الجريمة الفذة التي لم يسبقها نظير في تاريخ مصر الحديث لم ترتكب إلا بدافع من التعصب الديني ، وأن بطرس غالي لم يقتل إلا لأنه قبطي . واتهموا الحزب الوطني بأنه هو الذي هيج الرأي العام عليه بكتاباته واحتجاجاته على معاهدة ١٨٩٩ ودنشواي وقانون المطبوعات وقانون النفي الإداري .

---

(١) مصطفى كامل ص١٦٨ .

(٢) صدر قانون المطبوعات القديم في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية . وهو يخول وزير الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها دون محاكمة . وقد حوكم بمقتضى هذا القانون كثير من الصحفيين وحكم عليهم بالسجن . فسجن الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة شهور لكتابته مقالا عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء هاجم فيه بطرس غالي ، وفتحي زغلول في يونية سنة ١٩٠٩ . وسجن في هذا العام : أحمد حلمي صاحب جريدة (القطر المصري) ستة شهور مع الشغل ، وعطلت صحيفته ستة شهور لترجمته مقالا نشر في إحدى الصحف التركية وتعليقه عليه . ثم توالت العقوبات بعد ذلك على كل مناوىء للاستعمار أو الحكومة .

(٣) كان المبعدون ينفون عادة إلى الواحات الداخلة .

(٤) فعل ذلك اتباعاً لرأي المستشار المالي الانجليزي، الذي اقترح هذه الوسيلة لسد حاجة الخزانة الحكومية للمال. وقد بدأ امتياز القناة منذ افتتاحها في سنة ١٨٦٩ لمدة ٩٩ سنة تنتهي في سنة ١٩٦٨ ، وكان المشروع يهدف إلى مد مدة الامتياز أربعين سنة أخرى تنتهي سنة ٢٠٠٨، وقد ظل مشروع المد في طي الخفاء زهاء سنة، وكان في عزم الوزارة مفاجأة الرأي العام بإنفاذه، لولا تسرب أنبائه وهياج الشعب ومطالبته بعرضه على الجمعية العمومية . وقد رفضته الجمعية العمومية بعد مناقشات طويلة رغم تأييد ممثل الحكومة له (سعد زغلول) وقتل بطرس غالي أثناء نظر الجمعية لمشروع المد (راجع محمد فريد ص ١٣١ — ١٥٤) .

وعند ذلك انحرفت حركة القبط انحرافاً خطيراً ، فزادوا على الكتابة فى الصحف القبطية الشكوى إلى الصحافة الإنجليزية والنقل عنها فى صحفهم ، وسفر بعض رجالهم إلى انجلترا شاكين مستنجدين . فهذه هى صحيفة (العَلَم) تروى ما نشرته جريدة (الديلى نيوز) من شكوى أحد الأقباط الموجودين فى انجلترا من سوء وضع القبط فى مصر . ويعرِّف الزائر القبطى القبط بأنهم سلالة قدماء المصريين ، ويقول : إنهم كانوا يتمتعون بمراكز مهمة نزعت منهم شيئاً فشيئاً . ويرد (العَلَم) على ذلك بمناشدة أمثال هذا الرجل أن يتقوا الله فى وطنهم[1] . وهذه هى صحيفة (مصر) تنشر سيلا من البرقيات بعنوان (قلق الأقباط العظيم) و (ما يجب على الأقباط) ، منها ما يطالب « بالالتجاء إلى دولة قوية لتكون عضداً لهم فى المستقبل » ومنها ما يطالب بعــــدم منح المصريين الدستور « والالتجاء إلى عموم الدول الأوروبية للنظر فيما آلت إليه حالتهم » ومنها ما يلجأ إلى وزير خارجية انجلترا وإلى جناب المعتمد البريطانى بمصر[2] ، وتنقل هذه الصحيفة من (الإجبشيان جازيت) افتتاحيتها التى هاجمت فيها مدارس الشعب التى كان يديرها الحزب الوطنى وقتذاك ، متهمة إياه ببث روح التعصب الدينى ، وإثارة الفتنة ، وإيغار صدور العامة ضد الحكم الحالى وضد المحتلين والنصارى[3] ، وتدعو الصحيفة إلى إرسال وفد قبطى لوزارة الخارجية الإنجليزية للدفاع عن حقوقهم[4] .

على هذا النحو راحت الصحف القبطية تكيل التهم للحزب الوطنى ورجاله وصحافته فى عنف بالغ ، وراح هؤلاء يردون على هذا العنف بعنف مثله[5] .

---

(١) صحيفة (العلم) عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ مقال (آلام القبط) .

(٢) صحيفة (مصر) « ٢٥ فبراير « ١٩١٠ .

(٣) صحيفة (مصر) « ٤ مايو سنة ١٩١٠ مقال (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب)

(٤) صحيفة (مصر) « ٢ يوليو « ١٩١٠ مقال (تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) .

(٥) راجع أمثلة ذلك فى مقالات عبد العزيز جاويش (الإسلام غريب فى دياره) و (علام=

ونشطت الدعوة لعقد المؤتمر القبطى فى أسيوط بعد أن ضاعت مساعى العقلاء من الفريقين ، مثل إسماعيل أباظة وواصف غالى فى الحد من عنف الثائرين وكبح جماحهم . وترددت الحكومة فى التصريح به خشية الفتنة واضطراب الامن ، طالبة أن يعقد فى العاصمة حتى يمكن تلافى ما قد ينجم عنه ، ثم أذنت آخر الامر بعقده فى أسيوط ، فتم انعقاده فى يوم الأحد ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، بدعوة من مطران أسيوط وبرياسة بشرى حنا بك ، واستمرت جلساته إلى يوم الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١٠(١) . وانحصرت مطالبه فى :

١ — طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة .

٢ — أن تكون قاعدة التوظف هى الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية فى السكان .

٣ — وضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامى وحده فى المدارس الاولية .

٤ — وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية .

٥ — جعل الخزينة العمومية مصدرا للإنفاق على جميع المرافق المصرية(٢) .

= هذه الصفحة ؟) مجلة الهداية عدد مارس سنة ١٩١١ . وصحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ فى مقال «وطنيون أم أجانب؟! والسياسة أم للدين؟!) وعدد ١١ أبريل سنة ١٩١١ : (على من تبعة هذه الارتباكات ؟) وعدد ٥ إبريل سنة ١٩١١ فى مقال (فالمحاسبكم فقد انقضى زمن المجاملة) وصحيفة (مصر) عدد ٧ إبريل سنة ١٩١٠ فى مقال (سهم آخر من كنانة الحزب الوطنى) . وعدد ٣ مايو سنة ١٩١٠ (حزب الثورة والأقباط) ، ٤ مايو سنة ١٩١٠ (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) وعدد ٧ يوليو سنة ١٩١٠ (تعرضات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) . وراجع كذلك ديوان على الغاياتى (وطنيتى) ص ١٠٨ (الحادث الخطير — قتل رئيس النظار السابق) وص ١٥١ (يوم القضاء على إبراهيم ناصف الوردانى) .

(١) راجع قرارات المؤتمر وما ألقى فيه من كلمات فى أعداد صحيفة مصر من الاثنين ٦ مارس إلى الخميس ٩ مارس سنة ١٩١٠ . وراجع كذلك افتتاحية (العلم) عدد ٣ إبريل سنة ١٩١١ (المؤتمر القبطى) .

(٢) ملكى كراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٤-٢٤٥ ، صحيفة (مصر) عدد ٢٢ مارس سنة ١٩١١ (الأقباط فى مصر-الجمعية العمومية فى أسيوط) ، مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الاول

وتولى مصطفى رياض باشا الدعوة إلى مؤتمر مصرى ينظر فى شئون المصريين جميعاً ـ أقباطاً ومسلمين ـ وسماه (المؤتمر المصرى) ، ولم يسمه (المؤتمر الإسلامى) تأكيداً لوحدة الأمة ، وتجاهلا للأساس الطائفى الذى قام عليه (المؤتمر القبطى) . وتم انعقاد المؤتمر برياسة مصطفى رياض فى يوم السبت ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، وظل منعقداً إلى يوم الأربعاء ٤ مايو سنة ١٩١١(١) . وقد دعا الرئيس المجتمعين فى مفتتح المؤتمر أن يحكموا روح العدل وتأييد الروابط الوطنية فى مداولاتهم ، وأن يكون التسامح الذى عرف عن الإسلام رائدهم فيما يقولون . وتلاه لطفى السيد بتلاوة تقرير اللجنة التحضيرية ، فأكد أن المؤتمر يبحث فى المصلحة العامة ، وينظر فى التوفيق بين العناصر المؤلفة للوحدة المصرية التى كاد يتصدع بناؤها من جراء المؤتمر القبطى ، وأكد أن الأقلية والأكثرية فى الأمم لا تقوم على أساس الدين ، ولكنها تقوم على أساس المذاهب السياسية ، وأن الأمة باعتبارها كائنا سياسيا أو نظاما سياسياً إنما تتألف من عناصر سياسية كذلك . فأيما مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عدداً وأقوا كانوا أكثرية وكان الآخر أقلية . وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقليات فى كل أمة ، وليس للدين فى ذلك دخل . وبين ما تنطوى عليه الاستعانة بالانجليز من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية . مما يدعو إلى الاسترابة فى حسن نية القائمين به ، الذين أرادوا أن يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم فى مصر ـ وهم أقلية ـ حق السيادة على الأكثرية ، اعتماداً على الاحتلال المسيحى ، وعلى أن المصريين أخوف ما يكونون من أن يرموا بالتعصب الدينى . وأعلن أن المؤتمر سيبحث فى حل الأقباط وتقديره ، ليزن مطالبهم بميزان العدل ، وليبين النافع من الضار ، والممكن وغير الممكن ، ويقرر لهم ما يراه حقاً من غير أن يحوجهم إلى السعى بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم . كما أعلن أن اللجنة التحضيرية رأت أن يتناول

---

(١) توفى مصطفى رياض بعد المؤتمر بقليل فى ١٧ يونية سنة ١٩١١ (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٩) .

المؤتمر البحث أيضا فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ما له علاقة بسعادة الأمة ، ما عدا المسائل السياسية داخلية كانت أو خارجية ، لأن ظروف مصر لا تسمح بدخول المؤتمر فى السياسة . ثم تتبع مطالب المؤتمر القبطى بالرد واحداً واحداً ، مدعماً رده بإحصائيات تبين أن نسبة القبط فى الوظائف الحكومية، وفى مجالس المديريات التى تدل نتائج انتخاباتها على تسامح المسلمين ، تفوق نسبتهم العددية بمقدار كبير ، وأن الموظفين منهم كثرة فى بعض الوزارات .

وبعد أن انتهى لطفى السيد من تلاوة تقرير اللجنة التحضيرية تتابعت البحوث فى شتى النواحى الاجتماعية والاقتصادية موزعة بين أيام انعقاد المؤتمر إبتداء من الجلسة الثانية فى مساء اليوم الأول لانعقاده .

* * *

لم تكن هذه الجولة شراً خالصا كما يبدو من هذا العرض . فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين، وكانت تنفيسا شفى النفوس من الكره الكامن الدفين ، وفرصة لتصفية ما بين جيران الوطن من خصومة وعلاجه بطريقة صريحة . وقد بث كل منهما شكواه ، وعبر عما يجد ، وعاتب صاحبه عتاباً، إن يكن عنيفا قاسيا خشنا فى بعض الأحيان ، فقد انتهى باعتذار كل منهما لصاحبه على كل حال . ونهض عقلاء كل من الطائفتين لتخفيف حدته وإقامة الأدلة على أنه لا يقوم إلا على أساس من الوهم وسوء الظن ، وأنه لا يفيد أحداً من المتخاصمين ، وأنه لا يعود إلا بالشر عليهما جميعا ، ولا يستفيد منه إلا المحتل الدخيل الذى يمتص دماء الفريقين كليهما دون تمييز بين مسلم وقبطى . فقد أفاض كل من الفريقين المتخاصمين فى الكلام عن الجامعة المصرية وعن خطر تفاقم الخلاف بين عنصريها(١) وصرح القبط بجراحهم التى انطوت عليها نفوسهم خلال قرون

---

(١) راجع أعداد صحيفة مصر فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٠ (تضامن العنصرين المقيمين فى مصر) : ٧ فبراير سنة ١٩١٠ الاتحاد قوة ـ توحيد عناصر الوطن الواحد لخدمة الوطن . وراجع كذلك فى أعمال المؤتمر المصرى الأول كلمات حافظ رمضان وصالح حمدى حماد فى الجلسة الثانية . وأحمد عبد اللطيف فى الجلسة الثالثة

طويلة ، ودلوا المسلمين على موطن الداء فاتجهوا إلى علاجه فى صراحة أيضاً ، واستطاعا أن يقيموا الدليل المادى الواضح على أن ما ذاع بين القبط من الشعور بالظلم والحرمان ليس إلا وهماً روجته طائفة من المغالطين سيئى النية ، الذين امتلأت جيوبهم وضعفت فيهم العاطفة الوطنية بانتمائهم إلى دول أجنبية ، فلم يبالوا حين أيقظوا هذه الفتنة ليستفيدوا منها أن تقع أوزارها على الوطن الذى برئت قلوبهم من حبه والوفاء له . كما استطاعوا أن يقيموا الدليل على أن ما يطلبه القبط تحت ضغط المضللين المغررين بمن تزعموا حركتهم ؛ يتعارض مع مصلحتهم هم أنفسهم ويناقضها أشد المناقضة(١) .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن هذا الشر المستطير كان نقطة تحول فى تاريخ الفكرة القومية . وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية ، فمن الحق أنها كانت فى الوقت نفسه الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية ، ونقطة البداية الصحيحة فى الجامعة القومية التى بدت بعد ذلك فى أكمل مظاهرهـــا فى ثورة سنة ١٩١٩ . ذلك بأن تفاقم الخصومة قد أفزع الفريقين كليهما ، ونبههما إلى ما ينطوى تحته من خطر داهم ، فتولدت من ذلك رغبة صادقة فى جمع الكلمة ، ساهم فيها المصريون من قبط ومسلمين . فهـــذا هو مرقص فهمى يلقى خطبة فى اجتماع عقده القبط بحديقة الأزبكية ، ينفى فيها عن المسلمين تهمة التعصب ، مسفها أقوال الذين يتهمون طائفة من الأمة باشتراك فى اغتيال بطرس غالى جملة ، ويحصر عمل الوردانى فى شخصه ، مؤكداً أن الجريمة التى راح ضحيتها رئيس الحكومة عمل يأسف له كل مصرى مسلما كان أو قبطيا ، فيجيبه الغاياتى بقصيدته (إلى خطيب السلام)(٢) :

(١) راجع فى أعمال المؤتمر المصرى الأول كلمات صالح حمدى حماد فى الجلسة الثانية « تمحيص مطالب الأقباط وإزالة موجبات الشقاق » وأحمد عبد اللطيف فى الجلسة الثانية (الأقلية الدينية ومجالسنا النيابية) والشيخ على يوسف فى الجلسة الرابعة « التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه » وراجع كذلك جداول الإحصاء المختلفة الملحقة بأعمال المؤتمر .

(٢) ديوان الغاياتى « وطنيتى » ص ١١٣

خطبْتَ فلم تجنح إلى شرعة الهوى ولم تتخذ نهجَ الخلاف سبيلا
وأنصفت قوماً أنت منهم ، ولن عدا عليهم جهول أو أعان جهولا
فما أنت قبطى يبيع بلاده ويرضى بدين الجاهلين بديلا
وما أمةُ القرآن فى مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإنَّا وأنتم إخوةٌ فى بلادنا أقمنا على دين السلام طويلا
تذود عن الأوطان إن طمَّ حادث ونحمى حماها بكثرة وأصيلا

ويختم قصيدته بتحية مرقص فهمى قائلا :

فسِرْ فى سبيل الصدق يا خير قائل أقام على صدق الولاء دليلا
فنى ذمّة الأهرام موقفك الذى روى النيلَ والأهرامُ منه غليلا

وهنا هو واصف غالى — والقتيل أبوه — يكتب إلى إسماعيل صبرى ، يرجوه التوسط فى الصلح بين الطائفتين فيقول[1] :

« سعادة سيدى المفضال إسماعيل باشا صبرى .

قيل إن الشعراء أنبياء ، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب. فعسى أن يتهمك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والعرف .

والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية أن يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتى الضعيف منادياً بالاتحاد والوئام . على أنى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته أن يحرك عواطف الأمة . فيسألك يا سيدى أن تبذر بذور السكينة والوفاق ، لتنبت شجرة المحبة والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد . لعمرى إن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمك سحر يجمع القلوب المتنافرة . وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى وفاة صديقك الحميم (٢١ فبراير)[2] . فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك الكريم (مثل الأقباط والمسلمين فى مصر — وهما العنصران المكونان

(١) ديوان إسماعيل صبرى هامش ص ١٨٠
(٢) يقصد بصديقه الحميم والده بطرس غالى .

للأمة — كمثل العينين في الوجه ، يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى ، وتكاليها بالدعوة إلى أن يكون حدث الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الارتباط المتين بين الأقباط والمسلمين . وإني أشكرك من أجل ذلك باسم والدي ؛ بل بصفتي ابن(١) حنون على وطنه وأمته ، وتفضل بقبول احترام أخيك الحافظ لك ود أبيه ؟

٨ فبراير سنة ١٩١١ واصف بطرس غالى ، »

ويلبي إسماعيل صبري الدعوة فيكتب قصيدة يتحدث فيها عن مصاب المسلمين والقبط في بطرس غالي قائلا :

معشرَ القبط يا بني مصر في السـ ـرّاء قد كنتمُ وفي الضرّاء
قد فقدنا منا ومنكم كبيراً كان بالأمس زينة الكبراء
فأقمنا عليه في كل ناد مأتماً داوياً بصوت البكاء
ومزجنا دموعنا بدموع بذلتها عيونكم في شقاء
ورأينا فيك الرزيئة بالأمة ل وفعل المصاب بالعقلاء
بارك الله فيكم أنتم الناسُ وفاء إن عُدّ أهلُ الوفاء

ثم يقول : إن الإسلام والمسيحية كليهما يأمران بالإحسان ، وينهيان عن البغي والعدوان ، وإن مصر هي أم المسلم والقبطي على السواء خيرها لهما إن اتحدا وتماسكا ، فإن تفرقا فكلاهما للأجنبي الغريب :

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمرانا بالإخاء
ويحكم ما كذا تكون النصارى راقبوا الله بارىء العذراء
مصر أنتم ونحن ، إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا إذا تماسكـ ـنا ، وإلا فمصر للغرباء

ثم يطلب إلى المسيحيين أن يصموا آذانهم عن دعاة الشقاق الذين يبذرون بذور الجفاء ، فيقول :

---

(١) كذلك جاءت في النص وهي خطأ . والصواب (بصفتي ابناً حنوناً) .

لا تطيعوا منا ومنكم أناسا ... يبذروا بيننا بذور الجفاء
لا تولوا وجوهكم شطر من يكـ ... ـره ما في قلوبنا من صفاء
إن دين المسيح يأمر بالعُر ... ف(١) وينهى عن خطة الجهلاء
لا يكن بعضنا لبعض عدوا ... لعن الله مستبيحي العداء

وتواتر شعر الشعراء ، كلما سمحت مناسبة من المناسبات ، مؤكدين صلة المودة والجوار التى تقوم بين المسلم والقبطى ، مذكرين بما كان بينهم من ود قديم أكيد فى مختلف عصور التاريخ ، مبينين أن الإسلام برىء من الذين يسيئون فهمه ويخرجون على تعاليمه السمحة ، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى وطنهم جميعا .

قتل بطرس غالى ، فرثاه شوقى بقصيدته :

قبرَ الوزير تحيـة وسلاما ... الحلمُ والمعروفُ فيك أقاما(٢)

وفيها يقول :

قد عشتَ تحدثُ للنصارى ألفة ... وتجد بين المسلمين وئاما
واليومَ فوق مشيد قبرك ميتا ... وجدَ الموفقُ للمقال مقاما
الحقُّ أبلج كالصباح لناظر ... لو أن قوما حكموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط إلا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما
نُعلى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جلاله ... لو شاء ربك وحد الأقواما
يا قوم بانَ الرشد فاقصوا ما جرى ... وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعُكمُ وتلك ربوعُنا ... متقابلين نعالج الأياما
هذى قبورُكمُ وتلك قبورنا ... متجاورين جماجما وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم ... عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما

---

(١) العرف (بضم العين) : المعروف .
(٢) الديوان ، ٣ : ١٤٤ .

وتوجه إلى القبط بقصيدته :

بنى مصرَ إخوانَ الدهور رويدكم هبوهُ يسوعاً فى البرية ثانيا[1]

وفيها يقول :

تعالَوا عسى نطوى الجفاءَ وعهده وننبذُ أسبابَ الشقاقِ فراحيا
ألم تكُ (مصر) مهدنا ثم لحدنا وبينهما كانت لكلٍّ مغانيا[2]
ألم نكُ من قبل المسيح ابن مريم وموسى وطه نعبدُ النيل جاريا
فهلا تساقينا على حبه الهوى وهلا فديناه ضفافا وواديا
وما زالَ منكمُ أهلُ ود ورحمةٍ وفى المسلمين الخير ما زال باقيا
فلا يثنكمْ عن ذمةٍ قتلُ بطرسٍ فقدماً عرفنا القتل فى الناس فاشيا[3]

ورثاه إسماعيل صبرى بقصيدته :

لهفَ الرياساتِ على راحلٍ قد كان ملء العين والمسمعِ[4]

وفيها يقول :

عينىَ فيك اليومَ قبطيةٌ تروى الأسى عن مسلم موجع
يهيم من وجد ومن لوعة فى الجانب الأيسر من أضلعى
ويأخذ البرّ وأى الوفا عن الكتاب الطيّب المشرَع[5]

ورثاه نسيم بقصيدته :[6]

اجمل عزاءك فى الوزير جميلا أعزز علينا أن يموت قتيلا

---

(١) الديوان ٤ : ٣٩

(٢) غنى القوم بالمكان (على وزن علم) : أقاموا. والمغنى : بوزن اسم المكان : مكان الإقامة . والجمع مغانى .

(٣) الذمة: العهد . يقول لهم : لا يحملكم قتل بطرس على العدول عما كان بينكم وبين المسلمين من تواصل وتراحم .

(٤) الديوان ص ٢١٨ (٥) المشرَع : المنهل . ويقصد بالكتاب الطيب المشرع : القرآن الكريم .

(٦) الديوان ٢ : ٣٤

أودى فنادر الطوائف مقتــلة تبكى الوزارة والدم المطلولا
أجرت يد القـدر الرهيب دماءه حمراء تبكى المسجد المطلولا
لو كان فى شعرى أزاهـر تجتنى لقطفتها وجعلتهـا إكليلا
والله لولا داء قلبي ما غـــدا قلبى بغير رثائه مشغولا

وقد تجاهل فيها الخلاف بين عنصرى الأمة فلم يشر إليه ، وانصرف فى معظم القصيدة إلى تهنئة محمد سعيد بالوزارة والإشـادة بفضله وما يعلق عليه المصريون من آمال .

ورثاه ولى الدين يكن بقصيدة تزيد عن ستين بيتا بدأها بقوله :

أبنا نرامى غيرهـا ونزادى أكذا أعادى الأكرمين تعادى[1]

ولم يشر فى قصيدته إلى خلاف المسلمين والقبط . ولكنه هاجم بعض رجال الحزب الوطنى فى قسوة ، واتهمهم بإثارة الفتنة وبسوء القصد . ورثاه من قبل ذلك فى مقـــال عنيف نشر فى صحيفة المقطم عنوانه (بطرس غالى فى موكبه الأخير)[2] .

يقول فيه مهاجماً الحزب الوطنى وصحفه :

« حسبهم الله . . . أقلقوا النيام فى مضاجعهم ، وأتعبوا الرائحين والغادين فى طرقاتهم ؛ ودوّت صيحاتهم فى الآذان حتى كادت تصمّها . أعولوا ثم أعولوا : ليحيَ الدستور ! ... ليحيَ الدستور !... ليحيَ فلان !... وليسقط فلان !.. . أمن أجل هذا كانوا يريدون الدستور ؟ [3] .

قام بالأمس أحد قراء سورة يوسف ، فأصدر جريدة دينية جـــديدة ليجعلها إحدى البلايا على الدين وبنيه[4] .. ماذا تريد بطبلك يا هذا المطبّل ؟..»

---

(١) الديوان ص ٦٦ (٢) الصحائف السود ص ١٠١

(٣) كانت المطالبة بالدستور وقتذاك على أشدها . وكان الحزب الوطنى هو المتزعم لهذه الحركة .

(٤) يعرّض بالشيخ عبد العزيز جاويش ، ويقصد بصحيفته مجلة (الهداية) التى صدر العدد الأول منها فى فبراير سنة ١٩١٠ ، فوافق قتل بطرس غالى .

أتى أنت أم إمام أم فقيه أم سياسى أم أديب ؟ ! . . . أم تر زائرة تريد النعيق على أطلال بلد لست من أهله[1] ؟ . حسبك وحدة أرتنا نفثاتك . تلك نفثات ستغر غداً منها ، وستظل هى على أثرك ، وإن الله لبالمرصاد » .

ودافع فى آخر المقال عن بطرس غالى فيما اتهمه به الحزب الوطنى فقال :

« ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم ؟... صاح أكثركم مذكراً بحادث دنشواى . وتشدق آخرون باتفاق إنكلترا ومصر على السودان . وشكا غيرهم من قانون المطبوعات . وهل كان لهذا الوزير القدير من التفرد بالإدارة والخيار فى الفعل ؟... ومن أهاج أهل دنشواى ؟ . . . ومن أتى بقانون المطبوعات ؟ سائلوا تلك الجرائد التى تودان توقع البلد فى الهلاك ، عسى أن توافيكم بجواب سديد » .

ثم دافع عن القبط قائلا :

« الأقباط هم أولو مصر قبل كل مصرى . ما زال الجور يتصيدهم حتى قلوا عدداً ووفرتم ، وخسروا وكسبتم . ثم مَن الله بعدله ، فقالوا : « نحن إخوان » أفلا تريدون أن تكونوا لهم إخوانا ؟... فما هذه البراثن إذن داميات ؟ ! » .

وقصيدة الشاعر ومقاله ليسا علاجا للموقف كما ترى : وربما خفف من وقعهما أنهما صدرا من شاعر مسلم . ولكن الرجل كان معروفاً بتحيزه للإنجليز كما سيجىء .

وأحجم كثير من الشعراء وقتذاك عن رثاء الرجل لما أحاط بموته من شبهة ما اتهم به من مشايعة الإنجليز ضد مصلحة الوطن . فسكت حافظ ومحرم والكاشف وعبدالمطلب . ولكن بعضهم شارك فى مناسبات أخرى مشاركة فعالة قوية فى رأب الصدع وجمع الصفوف .

وكان محرم أكثر الشعراء شعراً فى هذه المناسبات ، وأشدهم تحمسا فى الدعوة

---

(١) يشير إلى أن عبد العزيز جاويش من أصل مغربى . والعجيب أن ولى الدين يكن تركى وليس مصريا خالصا ، وقد كان صديقا للإنجليز كما بينا فى الفصل السابق وصحيفة (المقطم) التى نشر فيها المقال صحيفة استعمارية كما هو معروف .

إلى التوفيق ، والتحذير من الكارثة التي توشك أن تحل بالمسلم والقبطي فتعمهما على السواء .

يقول في قصيدته « تفرق المذاهب » مخاطباً القبط :(1)

بني وطني ، من يرد الشرَّ يلقه ... وإن راقه يوماً رداءً مسمَّما
بني وطني ، إن الأمور بماتُها ... سبيئةٌ . وإن الرأيَ أن نتوسما
بني وطني ، ما لي أراكم كأنما ... ترون السبيل الوعر أهدى وأقوما
أإن قام ينهاكم عن الغيِّ راشد ... غضبتم وقلتم عاتٍ رامَ مغنما ؟
.... تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة ... وإن انبتات الحبل أن يتفصَّما
تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة ... وإني رأيتُ الأخذَ بالرفق أحزما
وإن سبيلنا سواء ، وكلنا ... بنو مصر نأبى أن نُضامَ ونُهضما
وما العارُ إلا أن تظلَّ أخيذةً ... ونبقى مدى الأيام نهباً مقسَّما

ويختم القصيدة بقوله :

تفرقنا الأديانُ والله واحد ... وكلٌّ بني الدنيا إلى آدم انتمى
وساوس ظل الفرقُ فيها مصعِّدا ... فما يملك الفرقُ أن يتقدما
بني الفرق لا يصرعكم الدينُ إنني ... أرى الغرب لولا الجد والعلم ما سما
سلوه إذا رام الفريسة فانتحى ... أيرعى مسيحياً ويرحم مسلما ؟!
هو الموتُ أو تستقبل الفرق رجفةٌ ... تزلزلُ صرعى من بنيه ونُوَّما

ويقول في قصيدته « الخائفُ والشجاع »(2) :

يا أمة القبط ـ والأجيال شاهدة ... بما لنا ولكم من صادق الذمم
هذى مواقفنا في الدهر ناطقة ... فاستنبئوها تريحونا من التهم

---

(1) ٢ : ٨٩ — ٩٤ .

(2) الديوان ٢ : ١١٤ .

لا تظلموا الدين . إن الدين يأمرنا ... بما علمتم من الأخلاق والشيم
منا ! ومنكم رجالٌ لا حلومَ لهم ... ولا يفيئون للأديان والحُرَمِ
أنتم لنا إخوة ، لا شيء يبعدنا ... عنكم ، على صنعه الأقدار والقِسم
ليبن النجاحُ بعدنٍ من رغائبنا ... ولا الشقاق بمجدينا سوى الندم
يا ويح مصر لخلفٍ لا ركود له ... إلا ليعصف بالأقطار والامم
ولو تآلف أهلوهـا لما بقيت ... من حاجة فى شمم النيل والهرم
يا قوم ماذا يفيد الخلفُ ؟ فاتفقوا ... وقوّموا أمركم بالحزم يستقم
صونوا العهود وكونوا أمة عرفت ... معنى الحياة فلم تعسف ولم تهم
يا قوم لا تغفلوا أن العدوَّ له ... عين تراقب منكم زلةَ القدم

ويقول فى قصيدته « بين المأربين » (١) :

كذبَ الوشاةُ وأخطأ اللُّوامُ ... أنتم أولو عهد ونحن كرامُ
حسب تجدد الحادثاتُ عهودَه ... وتزيد فى حرماته الأيامُ
وصلَ المقوقسُ بالنبى حباله ... فإذا الحبالُ كأنها أرحام (٢)
وجرى عليه خليفة ، فخليفة ... وإمامُ عدلٍ بعده فإمامُ
لاتفقدوا العهد المؤكدَ بيننا ... النيل عهد دائم وذمام
الدين لله العلى وإنما ... دينُ الحياة تودد ووئامُ
إن كان للواشى المفرّق مأرب ... فلنا كذلك مأرب ومرام
أنظل صرعى والشعوبُ حثيثة ؟ ... ونعيش فوضى والحياةُ نظامُ ؟

---

(١) الديوان ٢ : ١١٩

(٢) يشير إلى هدية المقوقس للرسول صلوات الله عليه ، حين دعاه إلى الإسلام فرد عليه بإهدائه « مارية » القبطية التى تزوجها النبي وولدت له ولده إبراهيم .

ويقول فى قصيدته « دنيا الممالك » (١) :

يا أمة الإنجيــل آمنّا به ... ما بالنبى ولا يسوع جحودُ
الدينُ فى أمرٍ ونهى واحد ... والله جلّ جلالهُ المعبودُ
دنيا الممالك لا تحدّ . ودينها ... وقف على ديّانهــا محدود
درجَ الزمان على المودّة بيننا ... وأراه ينقصُ والإخاءَ يزيدُ
برأ بمصر ومصرُ أعظم حرمةً ... من أن يضيع ذمامها المشهود
شدُّوا القلوبَ على الإخاء فإنها ... مصر وإنَّ بلاءها لشديد
أترى الممالكَ كلَّ يوم حولنا ... تشقى ونحن على الرجاء نذود ؟!
الأمرُ مشتركٌ . ومصرُ لنا معاً ... فى العالمين منازل وخلودُ
والنيلُ إن حملَ القذى وإذا صفا ... فهو الحياةُ وورودُها المورودُ
أنخون أنفسنا ونفسدُ أمرنا ... إن قال واشٍ أو أرادَ حسودُ ؟ ...
زعمَ العِدى أنّا تحقّ بلادنا ... زعمٌ لعمرُ الأمتين بعيــدُ

وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ ، فيشير فى قصيدته التى هنأه بها إلى خلاف المسلمين والقبط داعياً إياه إلى تلافيه حيث يقول : (٢)

مولاى ! ... أمتك الوديعة أصبحت ... وعُرا المودة بينها تتفصّم
نادى بها القبطىُّ ملءَ لســانه ... أن لا سلامَ وضاق فيها المسلمُ
وهمُ أغار على النهىَ وأضلّها ... مجرى الغنى وأقصرَ المتعلــم (٣)

---

(١) الديوان ٢ : ١٢٠ — ١٢٣ ، وراجع كذلك قصائده فى الإخاء الوطنى ٢ : ١١٣ (العام الهجرى الجديد ٢ : ١٢٤) .

(٢) الديوان ١ : ٢٩١ . وحافظ من أقل الشعراء مساهمة فى هذا الباب . ليس له فيه إلا هذه الأبيات .

(٣) يقول : جرى الأغنياء وقصار النظر إلى إشعال الفتنة ، بينما كف المتعلمون وذوو النظر عن إخمادها وتلافيها .

فهموا من الأديان ما لا يُرتضى ... دين ولا يَرضى به من يَفْهم
ماذا دَها قبطىّ مصرَ فصدّه ... عن وُدِّ مسلمها؟ وماذا يَنقم؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدَهم ... والمسلمون عن المكايد نُوَّمُ؟
قد ضمَّنا ألمُ الحيـــاة وكلنا ... يشكو، فنحن على الدواء وأنتمُ
لكن سخيمةُ المسلــــمين جميعهم ... أن يخلصوا لكمُ إذا أخلصتمُ
رِبُّ الأريكة إننا فى حاجة ... لجميل رأيك والحوادثُ حوَّمُ(١)
فأفِضْ علينا من سماتك حكمة ... تأسو القلوبَ فإن رأيك أحكمُ
واجمع شتات المنصرين بعزمة ... تأتى على هذا الخلاف وتحسمُ
فكلاهما لعرين عرشك خالص ... وكلاهما برضاك صَبٌّ مغرمُ

ويموت مصطفى رياض الذى رأس المؤتمر المصرى سنة ١٩١١ بعد المؤتمر بشهر وبعض شهر فى ١٧ يوليه سنة ١٩١١، فيرثيه كثير من الشعراء. ولا يفوت شوقى أن يشير فى رثائه إلى سعيه المشكور فى إطفاء الفتنة، حيث يقول: (٢)

طلعتَ على النَّدِىِّ (بعين شمس) ... فوافتها بشمسين الغَــداةُ
على ما كان يَشدو القومُ فيها ... توافىَ الجمعُ وانتثرَ السَّراةُ
تملكهمْ وقارُكَ فى خشوعٍ ... كما تملك مُقيميها الصلاةُ
رأيت وجوهَ قومك كيف جلَّتْ ... وكيف ترعرعت مصرُ الفتاةُ
تقول: متى أرى الجيران عادوا ... وضمَّ على الإخاء لهم شتاتُ
وأين أولوا النُّهى منا ومنهم؟... ... عسى يأسون ما جرحَ الغلاةُ
مشت بين العشيرة رُسْلُ شرٍّ ... وفرَّقته الظنون السَّيِّئاتُ

---

(١) الحوادث حوم: أى تحوم حولنا وتطوف بنا.

(٢) الديوان ٣ : ٤٧ وقد تفرد شوقى بالاشارة إلى المؤتمر المصرى بين الشعراء الذين رثوه فآثروا أن يبرءوا من الموضوع ويتجاهلوه.

إذا الثقة اضمحلت بين قوم ... تمزقت الروابط والصلات
بني الأوطان هبوا ثم هبوا ... فبعض الموت يجلبه السبات
مشى للمجد خطف البرق قوم ... ونحن إذا مشينا السلحفاة
يعدون القوى براً وبحراً ... وعدتنا الأماني الكاذبات

ويموت جورجي زيدان سنة ١٩١٤ ، فينتهز شوقي هذه الفرصة ، ويشير في رثائه إلى أن الأديان إنما نزلت لهداية الناس ، فمن فساد الرأي أن نجعلها باباً للشر ، وإنما يتبع الناس آباءهم في أديانهم ، ويرثون العقيدة فيما يرثون من مخلفات الأجداد (١) :

عالك الشرق أم أدراس أطلال؟ ... وتلك دولاته أم رسمها البالي؟
أصابها الدهر إلا في مآثرها ... والدهر بالناس من حال إلى حال
وصار ما تتغنى من محاسنها ... حديث ذي محنة عن صفوه الخالي
إذا جفا الحق أرضاً هان جانبها ... كأنها غابة من غير رئبال
وإن تحكم فيها الجهل أسلمها ... لقاتل من عوادي الذل قتال
نوابغ الشرق هزوه لعل به ... من الليالي جمود اليائس السالي
إن تنفخوا فيه من روح البيان ومن ... حقيقة العلم ينهض بعد إعضال
لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم ... ولا محل مباهاة وإدلال
ما الدين إلا تراث الناس قبلكم ... كل امرئ لأبيه تابع تالي
ليس الغلو أميناً في مشورته ... مناهج الرشد قد تخفى على الغالي

ويترجم واصف غالي — ابن بطرس غالي — بعض الشعر العربي إلى الفرنسية ويطبع الترجمة في باريس في كتاب سماه (روض الأزهار) . ويلقي بعض المحاضرات هناك في الإشادة بفضل الشرق والشرقيين ، فيقيم المصريون حفلا بفندق

(١) الديوان ٣ : ١٢٥ .

(شبرد) فى مساء ٤ يونيه سنة ١٩١٤ برياسة إسماعيل صبرى[١] . ويساهم شوقى فى هذه المناسبة بقصيدته (ياشباب الديار) . وفيها يقول[٢] :

يا بنى مصر ، لم أقل أمة القبـ ـط ، فهذا تشبث بمحال[٣]
واحتيال على خيال من المجـ ـد ، ودعوى من العراض الطوال
إنما نحن مسلمين وقبطاً أمة وحدت على الأجيال
سبق النيل بالأبوة فينا فهو أصل وآدم الجد تال
نحن من طينة الكريم على الـ ـله ومن ماثه القراح الزلال
مر ما مر من قرون علينا وسُمنا فى القيود والأغلال
وانقضى الدهر بين زغردة العُر س وحشو التراب والإعوال
ما تحلى لكم يسوغ ولاكنـ ـا لطه ودينه بمسال[٤]
وتضاع البلاد بالنوم عنها وتضاع الحقوق بالإهمال

ويتوجه فى آخر قصيدته إلى شباب مصر ، مسلمين وقبطا ، يذكرهم بواجبهم نحو وطنهم ، وبأنهم موضع الأمل فى النهضة به فيقول :

يا شباب الديار مصر إليكم ولواء العرين للأشبال

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٢١ (٢) الديوان ١ : ٢٣٥

(٣) يشير إلى ما كان يردده القبط من أنهم هم سلالة الفراعنة ، ومن أن القبط تطلق على المصريين جميعا . فهنالك قبطى مسلم وقبطى مسيحى ، ويراجع فى ذلك على سبيل المثال نص المحاضرة التى ألقاها شكرى صادق فى حفلة جمعية التوفيق ، وموضوعها (الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الأخرى) وقد نشرتها صحيفة (مصر) فى أعداد ٣٠ يناير ، ٣١ يناير ، أول فبراير سنة ١٩١٠ .

(٤) يقول للمسلمين والقبط : لم هذا التعصب ، وليس أحد منكما هو خير أمة نبيه ، فليس القبط هم أخلص أتباع المسيح ، ولا هم خير من ينفذ شريعته . وليس المسلمون من المصريين هم خير أمة محمد ولا هم أحرص المسلمين على إقامة شعائر الإسلام . والأولى لكل منهما أن يقيم دينه ويمارسه ، بدل أن يتخذه أداة للشر وسبباً للنزاع .

كلما رُوِّعتَ بشُبْهةِ يأسٍ جعلتكمْ معاقلَ الآمالِ
هيئوها لما يليق بمنشٍ وكريم الآثار والأطلالِ
هيئوها لما أراد (على) وتمنى على الليالى والعوالى
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الأشغالِ
وإلى الله من مشى بصليبٍ فى يديه ومن مشى بهلالِ

ويساهم حافظ فى الحفل بقصيدته : (١)

يا صاحبَ الروضة الغناء هجتَ بنا ذكرى الأوائل من أهل وجيرانِ

ويكتفى فيها بالإشارة إلى فضل المحتفل به وإخلاصه لمصريته .

ويساهم إسمعيل صبرى - رئيس الحفل - فى هذه المناسبة بقصيدة قصيرة :(٢)

أىُّ صوت حييته بالأمس بارِيـ ـس مقرُّ العلوم والعلماء

وهو فيها كصاحبه حافظ ، فضّل أن يتجاهل وجود الخلاف القائم بين عنصرى الأمة ، واكتفى بالثناء على واصف غالى ، والإشادة بجهوده الأدبى .

* * *

كان هذا الشقاق إذن محنة امتحنت بها الجامعة المصرية الناشئة فثبتت لها . وكان فرصة مواتية لكلام كثير قيل فى تثبيت دعائم القومية المصرية . وليس من الإسراف فى الاستنتاج ، ولا هو من الغلو فى القول ، أن نقرر أن الوحدة الرائعة بين عنصرى الأمة، التى بدت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٩، لم تكن إلا ثمرة لهذه الجهود الخاصة التى بذلت فى رأب الصدْع ، وتوثيق الصلات ، وإزالة الأوهام ، وتصحيح فهم التدين ، الذى لم يزل الجهل يأخذ بزمامه ، والعصبية العمياء تركبه ، حتى تردت به فى فتنة هوجاء يبرأ منها إلى الله كل دين .

(١) الديوان ١ : ٦٣ .
(٢) الديوان ص ٨٤ .

الفصل الرابع

تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير فى الوعى السياسى المصرى ، فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوى عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود فى وجه الأجنبى .

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف والنفوذ الأجنبى ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور(١) .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التى تريد أن تعبر عن نفسها فى صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف فى معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمون من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة(٢) . وكثر حديث الناس عن الظلم والظالمين . وجهر الثوار بآرائهم الجريئة التى صادفت هوى فى النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغانى يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع

---

(١) الثورة العرابية ص ١٩ .

(٢) مثل صحف : (مصر) و (التجارة) و (مصر الفتاة) الثورة العرابية ص ٦٩ ، زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١ .

السائدة . ويوقظ فيهم روح الحمية والأنفة بما يلقى إليهم من مثل قوله :

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة ، بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم فى غفلة معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيين والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول . عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء »[1] .

وغمر البلاد سيل من المنشورات السرية التى تصور سوء الحال وانتشار الظلم

---

(١) تاريخ الإمام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغانى هو مؤسس الماسونية فى مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول فى تهييج الناس وعلى رأسهم محمد عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولى العهد توفيق باشا ، ومن المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودى — كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت فى مذكراته . ولذلك فستظل صلة الثورة العرابية بالماسونية وبالصهيونية العالمية سؤالا يحتاج إلى جواب وتعوزه الأدلة الصريحة القاطعة .

مطالبة بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون[1] . ثم أسفرت جماعة الثوار من الساخطين عن وجوهها وجاهرت بوجودها . فكونوا حزباً سياسياً للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث ، سموه الحزب الوطنى . ونشر الحزب برنامجه الرسمى فى جريدة التيمس فى أول يناير سنة ١٨٨٢ . وهو يدل على وعى سياسى مصرى صميم يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان . فقد جاء فيه :

« الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى . فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية »[2] .

وظهر من الشعراء من يستطيع أن يقول عن إسماعيل أيام كان الجبروت فى عنفوانه[3] :

ومن بلادكمُ فى قعـــر هاوية ... من الديون على مرغوب جوسبار[4]
وانفق المال[5] لا عقلا ولا كرما ... على بغىٍّ وقـــوّاد وأشرار
والمرء يقنع فى الدنيا بواحدة ... من النسا[6] وهو لم يقنع بمليار
ويكتفى ببنـاءٍ واحـد وله ... تسعون قصراً بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتـكم ... من غفلةٍ ألبستكم ملبس العار

---

(١) كان أول هذه المنشورات بيان سياسى فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ طبع منه عشرون ألف نسخة . وقد حاول مصطفى رياض رئيس الوزارة وقتذاك معرفة ناشريه لإقصائهم إلى السودان فلم يستطع — الثورة العرابية ص ٧٠ .

(٢) الثورة العرابية ص ١٤٧ وقد قام المستر بلنت بنشر هذا البرنامج فى جريدة التيمز .

(٣) ديوان صالح مجدى ص ١٧٩ .

(٤) لم أهتد إلى جوسبار هذا . ولعله أحد الأجانب ذوى النفوذ من مستشارى إسماعيل

(٥) موضع هذه الكلمة بياض بطبعة الديوان . (٦) ديوان صالح مجدى ص ٢٣٤

وصالح مجدى صاحب هذه الأبيات هو الذى يقول نادما على ما أنفق من جهد ، وما سوّد من صحف فى مدح طائفة من الملوك والرءوس والوجهاء ، هم أحق الناس بالذم والهجاء[١] :

أستغفر الله من نظم القريض ومن … وشم البغيض بما يهوى لرئبال
ومن مديحٍ غدا ذى به أبداً … فرضاً على مؤمن عدل ومتبال
ومن أكاذيب ألفاظ بها انتشرت … صحـائف طيها قد كان أولىَ لى
ومن ثناء مجـازىٍ حقيقته … تهكم عنـد تفصيلٍ وإجمال
ومن حماس خيالىّ قد اندرجت … به ذوو الجبن فى تعداد أبطال
ومن زخارف أوزانٍ نظمت بها … ركن الخنا والعنا فى سلك أقيال[٢]

وهذا الشاعر الذى توفى قبل قيام الثورة العرابية بشهور فى نوفمبر سنة ١٨٨١ هو الذى يقول ، مستنهضاً همم المصريين لمقاومة النفوذ الأجنبى الذى استفحل فى مصر ، حتى غدت مرتعا لكل أفاق[٣]

خليلىَّ ما للفضل والعلم قيمة … مع الجهل فى دار العنا والمغارم
وما صاحب العرفان فيها كجاهل … أتاهـا ذليلا من بلاد الأعاجم
فلو كان فينا نخوة عربية … لملنا على أعدائنـا بالصوارم
فإن نحن متنا قبل أن نبلغ المنى … عُذِرنا ورحنا بالثنا والمكارم
وإن نحن أنقذنا من الجور أهلنا … ظفرنا وفزنا بالثنا والمغانم
أما فيكمُ يا أهل مصر كفيكم … نصيراً يرجّى للقنا والعزائم
فلو أن لى جيشاً به أتقيهم … لأفنيت أقسـام برمح وصـارم
وطهرتُ أرض الله منهم بقتلهم … وأيدت دين المصطفى خير هاشم

---

(١) ديوان صالح مجدى ص ٢٣٤
(٢) الأقيال : جمع قيل (بفتح ثم سكون) : الملك .
(٣) ديوان صالح مجدى ، ص ٢٧٥ . وراجع كذلك فى هذا الغرض ص ٢٣ من ديوانه .

وأمسيت كالليث ابن أيوب مغرماً بضرب رقاب منهُمُ ومعاصم(١)
فيا آل مصر لا تناموا ودافعوا عن الدين والأوطان أهلَ المحارم
فأموالكم أضحت لديهم غنيمة وأبناؤكم ما بين عبد وخادم
ومن بعد ما كنتم شموس معارف كسفتم وأصبحتم شبيه البهائم
وعشتم بذل بعد جاه وعزة ودارت عليكم دائرات المظالم
فلا تغفلوا عن قطع دابر نسلهم فقد ملأوا بالفسق كل الملاحم

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور ، وبدأت الآراء المختلطة تنضج وتأخذ أشكالا محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج . فهذا هو محمد شريف يؤلف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ فى أواخر أيام إسماعيل على أساس مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب . ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق - بعد عزل أبيه - إلى إعادة تأليف الوزارة ويصدر بعد تشكيلها « أمراً سامياً » يوضح فيه برنامج الحكم . وفيه يقرر مسئولية الوزارة ، كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النواب على الميزانية وبعدم إشراك الأجانب فى الوزارة (٢) . وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين فى سنة ١٨٨١ يؤيد فيهما النظام النيابى ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأى العام فى تقديم الحاكم ومراقبة تصرفاته وفى لم الشتيت المتفرق من الآراء والمصالح بما يصون مصالح الوطن ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعاً (٣) . يقول محمد عبده فى وجوب الشورى على الحاكم : « خلق الإنسان عاطلا بالشهوات ، مكتنفاً بالأميال ، مقيداً بالأغراض . فهو أسيرها ، تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها بحيث تكون جميع قواه

---

(١) ابن أيوب هو : « صلاح الدين الأيوبى » .
(٢) الثورة العرابية ص ٢٥
(٣) نشر المقالان فى عددى ٢٤ ، ٢٥ ديسمبر من الوقائع المصرية — تاريخ الإمام ٢ : ١٩٧ — ٢٠٥

آلات لها تحركها بما يناسبها . وتستعملها فيما يلائمها . فلا يتصور حسناً إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلا إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطرياً ، لا يمكن الإنسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه ، وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص . فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته ، حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب ، بما يتخذه من الوسائل المختلفة ، حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات .

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولى الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية إلى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما عهد إليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك إلا مشاورة العارفين العالمين بطرقها فإن الرأى العام في مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الإنسان ربما مال إلى شيء ، ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأى العام لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة . فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيها اطلاعا » .

ويقول في وجوب الشورى على المحكوم : « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً قاصر عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت إليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها . فليس من الإنصاف أن تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه . ثم إذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت إليه سهام اللوم . بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب ، ثم إذا

وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم ..»

ويقول فى نشأة الرأى العام ولزومه : «إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا . وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس من مبدء أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التى تلم بالإنسان فلجأ من نوعه يستعين به على دفعها . فإذا استتب الاجتماع وسكن الأمن فى قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم فى الأسباب التى توصله إلى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة فى كل ما يتنافس فيه كل حى ، وتولد من ذلك حب الطمع والشره ، وجرّ الأمر إلى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم فى مكان واحد متباعدى المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالى أحدهم باقتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأى طريق سلك ، ونسى رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك فى الوطن ، وتناول أشدهم عضداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين . بل لا ترى إلا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتضمهم دائرة القهر، فهم فى هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهى إليها حركاتهم فى كافة أمورهم . إذا ما نزل بهم من دواعى الاضطراب ، وأسباب تبلبل الأفكار ، جعل لكل منهم شأناً خاصاً به ، فلا يفكر يوماً فى شقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده، مقطوع العلائق بغيره . فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأى عام ... فإذا توالت الحوادث ، وعلمتهم أسفار الأخبار طرفاً من سير الأمم تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم إلى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناءة الاتضاع ، فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التى تطالبهم بها طبيعته. فتهذبهم تلك الأخلاق التى نشأوا بها مما نفة تحدث منهم قوة العمل . فكلما قويت فيهم دواعى الاجتماع اشتدت كراهتهم

للتقاعد عن الأخذ بالوسائل . وطفقت نفوسهم تنفض عنها دون الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة إلى غاية واحدة . وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية . فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلق درسها من معلم . فإن الحاجة هي الأستاذ الذى لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده . ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأى العام ، وهو الأساس الذى بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة فى أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقى التى تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحى فيها الأغراض المتعمدة .. فإذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور ، وأصبحوا جميعاً على رأى واحد فى وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، واندفعوا جميعاً إلى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم . ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلا لائقا بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم ، كافلاً بمصالحهم ، يرجعون إليه فى أمر المساواة والأمن على البلاد والعباد .

وهذا هو عرابى وصحبه يناقشون أنواع الحكومات وأساليب الحكم ، فيفضلون النظام الجمهورى ويهمّون بتنفيذه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك إلا ما يخشون من مفاجأة الرأى العام بنظام لم يستعدوا له . وفى ذلك يقول عرابى فى خطاب له إلى بلنت « ثم خلع إسماعيل فزال عنا عبء ثقيل . ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها ، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية . » (1) ويقول البارودى « كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع

---

(1) البارودى (رسالة ماجستير مخطوطة للسيدة نفوسة زكريا) ص ٢٨ نقلاً عن بلنت فى التاريخ المصرى للاحتلال البريطانى .

ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت . »[1]

* * *

وانتهت الثورة العرابية بسجن زعمائها وتشريدهم: واستولى اليأس على الناس ، وفشا فيهم روح التخاذل ، ودب دبيب السعايات . وفقد الصديق ثقته في صديقه، بعد الذى كان من شهادة بعضهم على البعض ، وإيقاع الواحد منهم بجاره وصديقه تحت ضغط المحققين وهول الإرهاب . وكره الناس السياسة وتشاءموا باسمها واستعاذوا بالله من شرها، فانطووا على أنفسهم لا يرجون إلا السلامة ، ولا يطمعون إلا في حياة هادئة لا ينغصها الهم والفزع ، وقد تضافر عليهم الفقر والمرض ، فاجتاحت الكوليرا ـ أو (الشوطة) كما كانوا يسمونها ـ مصر في السنة التالية للاحتلال ، وراح ضحيتها أكثر من ستين ألفاً من المواطنين[2] . وأخذ الاحتلال في غمرة من يأس الناس وموت الهمم وارتماء الخديوى في أحضان أولياء نعمته الذين يدين لهم بكيانه وسلطانه يثبت أقدامه ويدعم كيانه ، فتسلط على الجيش بعد أن حله وأعاد تكوينه ضئيلا هزيلا أعزل ، لا يتجاوز عدده ستة آلاف ، في قبضة سردار إنجليزى يعاونه نفر من كبار الضباط من بنى جنسه . وأغلقت جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان . وبيعت السفن الحربية أوحطمت وبيعت أجزاؤها ، وصارت مهمات الجيش وأدواته تشترى من انجلترا ولا يحملها الجنود المصريون إلا وقت التمرين[3] . وتسلط الاحتلال الإنجليزى كذلك على البوليس بوضع رجل إنجليزى على رأسه ، وتعيين وكيل إنجليزى لوزارة الداخلية ، بلغ من غطرسته أن حضر يوما تمثيل إحدى الروايات بمسرح زيزينيا في الاسكندرية لجلس في مقصورة الخديوى الخاصة[4] وتسلط على الحياة الاقتصادية بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار إنجليزى المالية . وألغى الحياة النيابية ، وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات

(١) نفس المرجع ص ٤٠

(٢) مصر والسودان فى أوائل الاحتلال ص٣٢ مصر للمصريين ٦ : ٢٢٥-٢٢٦

(٣) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١٧ ، ١٩ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٥٩

الأجانب عما نالهم من ضرر موهوم وقد أربت على أربعة ملايين من الجنيهات[1]، وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الإنجليز وقد بلغت سنة ١٨٨٣ ما يقرب من نصف مليون جنيه[2] ، وبتكاليف حرب المهدى فى السودان . وتوالت الوزارات المستسلمة للإنجليز ، المرتمية فى أحضانهم ، نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمى . وأخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديوى . فمنعت « العروة الوثقى » التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس من دخول مصر ، وألغيت صحيفة « الوطن» وصحيفة «مرآة الشرق » وصحيفة « الزمان » وعطلت الأهرام شهراً[3] . كل ذلك والناس أشباه أموات ، لا تسمع لهم نأمة ، ولا يرتفع صوت بمعارضة أو شكوة أو تذمر .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتلال هو صوت صحيفة «المؤيد» التى ظهر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ . وقد جاء فى فاتحته « وما لنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الإحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ، ودواعى الحياة الدينية والأدبية وكمال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعية الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى خير ما أردنا وأحسن ما نريد ، وأن تؤيدنا بعنايتك الصمدانية فإنك الفعال لما تريد » . ثم يقول « خدمة الأوطان من أوجب الواجبات وألزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدى والشقاء الدائم . فقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية ذلك الفرض من طهارة طوية وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ... ومهما جد سوانا فى خدمتنا واجتهد ، أو هجرت عينه التغمض ، فلا تقوم النافلة مكان الفرض . وليس من المروءة أن لا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوسن .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٤ .

(٣) المرجع نفسه ١٦١ - ١٦٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ١ : ١٩٠ .

فما الناسُ إلا يقظة ، فإذا غفت — عيونُهمُ داستهُمُ حمرُ الناس

فبالعين يكفى المرء صدمة عاثر — وفى العين يهوى من تخاذله الناس(١)

وارتفع صوت « المؤيد » للمرة الأولى منذ الاحتلال بإثارة مسألة الجلاء . فأخذ يتساءل : « أحق ما تقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها ؟ وما هو الصلاح الذى تعلقون عليه أمر الجلائكم ؟ وهل بدأتم فيه أو تم شىء منه ؟ (٢) » وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال ينشد للمصريين الاتحاد ويذكرهم بمجدهم القديم وينبههم إلى خطر الاستعمار الاقتصادى إذ يقول « أى بنى الوطن الأعزاء على الأصدقاء الخ . أى أفراد العائلة المصرية ، وأجزاء هيئتها المدنية . علمتم – ولا أخالكم تجهلون – حالة بلادنا فى الأزمان الغابرة والقرون المتوسطة ، وما جناه اللاحق على السابق ... وما هى الحالة الحاضرة تطالبكم بأداء الواجب عليكم ، بما يجعلكم رجالا تباردون الرجال . وإن تيار هذا التمدن الحديث لا يجاريه إلا من عرف وجهة مجاريه ، ذوو القوة من هذبتهم التجارب ، حافظوا على الأوقات وانتهزوا الفرصات واعلموا بنى أبينا أن هذا التمدن قد حل إلى بلادنا على أكف أقوام أقوياء حرصاء ، لم يرضهم فى ثمنه القليل ، ولم تكفهم فى مقابلته القيمة ، يودون أن يضربوا بأيديهم على التجارة والصناعة ومصادر الثروة . ونحن ننظر إليهم بعين المتعجب الباهت ومرسلة أيدينا إلى الجوانب ، كأننا لسنا جميعاً أبناء أب واحد وأم واحدة . إن هذا لشىء عجاب(٣) » .

وراح يستنهض الهمم ويوقظ النوام بمثل قوله : « ألا قل لمن يظن أن يجد الأمة بالمال والحرية : إن المال لا ينهال من السماء ، والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول . وكلاهما لا يأتى إلا من طريق العزم والحزم ، ولا يغرس فى الأمة إلا بأيدى كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متجلببا بجلباب السعادة

---

(١) العين الأولى مقصود بها العضو المبصر والثانية مقصود بها البشر .

(٢) منتخبات المؤيد السنة الأولى : فى مقال عنوانه (متى تصلح مصر) ص ٣٠

(٣) منتخبات المؤيد السنة الأولى : مقال عنوانه (يا بنى مصر) ص ٤٧

والراحة فى أعين الشعوب . ولا يخفى أنه لا يشخص الأمة فى عيون غيرها إلا حال القابضين على أزمة أمورها . فإن كانوا أشداء حرصاء على المنفعة ، عالمين بما يجب أن يكون ، لا تجشم الشدة إلى التزلف ، واللين إلى التفريط ، ظهرت الأمة هكذا ، فعظمتها القلوب وأكبرتها الأعين . ولكن إذا كانوا ضعفاء أذلاء ، تلعب بأعطافهم الكبرياء على الضعفاء ، ويأخذهم الصغار لدى الأقوياء ، وقعت الأمة فى بحران الفساد ، وظهر وعلى وجهها غبار الذل ، منكسرة القلب ، لا تكاد تتحرك أو تخطو خطوة لمقصد(١) . وأخذ يستشهد الجبة ويضرب للناس الأمثال بمثل قوله : « قال الحكماء إن الحياة هى مجموع الوظائف التى تقوم بها أعضاء الجسم : والموت هو بطلان تلك الوظائف ، وهو أقرب التعاريف وأسلمها من التكلف . وعليه فلا بأس من إطلاق الحياة على الأمة . فيقال هذه أمة حية . إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم . ويقال تلك الأمة ميتة ، إذا أخلد أفرادها إلى النوم والكسل ، ولم يقوموا بواجباتهم التى يفرضها عليهم قانون البقاء فى عالم الوجود . هل كان يظن أن عرب البوادى تقوم منهم أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت (وامعتصماه ؟) أو أن الإنسكليز يصحبون شعباً يقوم منه إثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين : ويقوم منه رجال يحملون لفظة بريطانيا لا تذكر إلا وعلى أثرها (العظمى) ؟ وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوى ذكر فيه غلادستون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ . . . بل من كان يظن أن الأمة الفرنساويه ، التى كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع ، لما كان متسلطا عليهم من الفشل والانحلال ، تدرج منها أمة تهابها أشدتها عند ذكر الألزاس واللورين (مديريتان أخذتهما منها الألمان فى الحرب الأخيرة) ويأبى الواحد من أفرادها أن يدخل خاناً ألمانيا أو يشترى بضاعة من ألمانيا متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوى ... بل من كان يخطر على فكره أن البرتغال — على قلة

---

(١) منتخبات المؤيد ص ٢٨ (الأمة برجالها) .

بمدَدِهم وُمددِهم — تتوقف عن معاملتهم عن شحن المراكب الإنكليزية وتفريغها ، ويكتب تجارهم إلى وكلائهم أن لا يشتروا البضائع الإنكليزية ، ولا يشحنوا ما لديهم في مراكب إنكليزية ، ويطرحوا عن رءوسهم البرانيط التي صنعها الإنكليز ، كل ذلك لأن الإنكليز عارضوا حكومتهم في بعض مستعمراتها ؟ ... والأمثال على ذلك كثيرة ، لا يعتد على الأديب أن يأخذ مما بين طرفى حالة كل أمة أطوارها العديدة ، ويزن بذلك قوة حياتها .

ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام في المكتب يسمع سب أبيه ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التي سيكون عضواً منها بالاضمحلال والدمار . ولقد رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه . فقد نقل إلينا بعض التواريخ أنه كان يُسَبُّ المصرى بلفظة فلاح فيقول (قطع الفلاح ونهاره) . وإذ ذاك كانت مصر على ما لا يخفى من الاضمحلال والبوار »(1) .

وأخذ يحذر من كل ما يمس كيان الوطن ، أو يضعف الشعور بالقومية المصرية. فهو يوجه الأنظار إلى ما ينطوى عليه انتشار المدارس الأجنبية من أخطار ، إذ يقول :

« ما طمعت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة إفريقية، أو بعبارة أخرى من الشرق عموما ، إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ومن تخلق بأخلاقهم ، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار ، علماً منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم ، دينية كانت أو فنية . وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر لا يلاقون معارضة أو ممانعة ، لأن حجتهم نشر العلم والتهذيب ، ورفع لواء التمدن . ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، تقوم عليه قائمة حروب التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب ، فلا مناص من أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نصراء الهداية والمعارف والتمدن في مظهر العين ،

---

(1) منتخبات المؤيد ص ٨١ (حياة الأمم) .

وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة .. وهل يُتصور أن قوماً جازوا البحار وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا لديهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟... كلا فالإنسان لا يتحرك حركة ولا يعمل عملا إلا وله غرض ذاتي فيه . لكن قد لا يكون الغرض الذاتي محض الباعث ولا مضراً في النتيجة ، وقد يكون كذلك . وقد قيل : كلما عظم العمل كان الباعث أعظم . فلا ريب أن البواعث التي دعت الأجنبيين إلى مفارقة ديارهم والنهوض إلينا هي جليلة . ولا يمكننا أن نقول هي محض التكسب واستجلاب الدرهم والدينار . فإن بعض تلك المدارس يأخذ على التعليم ما لا يكاد يفي بنفقات التلميذ . والبعض يقبل الفقراء مجاناً ، بل إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها تنفق عليها النفقات الطائلة . ولا يكون ذلك عبثاً . ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل مدرسة غربية ما وضعت يدها على أمة أو قبيلة تملكاً أو حماية ، إلا وقد جعلت مقدمة ذلك هـــذه المدارس . فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي مِلّي في آن واحد كما قدمنا »(١) .

* * *

كان صوت (المؤيد) هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة وإحساس . ولم يمض على صدوره أقل من ثلاث سنوات حتى ظهر العـــدد الأول من مجلة (الأستاذ) في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ (٢) ، حمل فيها عبـــد الله النديم على الاستعمار وأعوانه في عنف لا هوادة فيه ، مستأنفاً جهاده الذي بدأه مع عرابي رغم ما ذاق في سني اختفائه العشر من آلام . ولم يمض على ظهور (الأستاذ) خمسة شهور حتى أعلن الحرب الصريحة على الاستعمار وأذنابه ، واستهلها بمقال عنيف سافر لا غموض فيه ولا التواء ، جعل عنوانه العبارة التي كان يرددهـــا

(١) منتخبات المؤيد : السنة الأولى ص ٥٠

(٢) كانت (الأستاذ) مجلة أسبوعية تصدر في يوم الثلاثاء من كل أسبوع . وقد صدر العدد الأخير منها في ١٣ يونية سنة ١٨٩٣ .

الإنجليز كلما أظهر المصريون ضيقاً بمشاريعهم الاستعمارية : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » (١) وكان هـذا المقال العنيف رداً على إنذار كرومر لعباس حين أقال وزارة مصطفى فهمي باشا صديق الإنجليز في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ .

يقول عبد الله النديم في مقاله هذا عن أثر الاستعمار في الاقتصاد :

« قالت أوروبا إنكم متوحشون ، لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس ، وإنكم في حاجة إلى مصنوعاتنا . ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية . وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق لتحول الثروة إليها ، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لابد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرهما . فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما يُشترى ويباع على يد الأوروبي كما ينفق ويباع مصنوع بلاده فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ، ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ، ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية . فلا حظ لهم من الوجود ، ولا رغبة لهم في الملك ، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها » .

ثم أشار إلى إفساد الإنجليز أخلاق المصريين وتقاليدهم ، مما أدى إلى انحلال الشخصية وموت الكرامة فقال :

« قالت أوروبا : إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية ، وتخلقكم بأخـلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فـلابد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساوونا في الرتبة . وفتحت لنا البيرَ والخمارات والمقامر ، وأباحت الزنا والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران . فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور ، فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم . وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم

---

(١) الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣

عليها . فهم فى رتبة القُواد(١) بل هم هم . ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيط والدار واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقته منها . والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك . حتى أسكنَ الأوربىّ مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما . وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملاهى واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهى تحويلا للثروة وإزهاقاً لروح الدين ، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين . واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهى تحثهم المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وما هى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . إذ لو كان الانغماس فى الملاهى ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدّت مرتكبه همجيا جاهلا مجنونا . ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ، ولما كتبت الرسائل العديدة فى ذم الخمر والفسوق ، وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس . وإنما هذه أشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرق ، حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع فى حبالة أوروبا .

ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد الدول ، ولا يدركون مكايد الملوك . ولا يسعون فى صالح بلادهم، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ولا يحفظون كراسى ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم ، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهى تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

ثم قال مشيراً إلى أذناب الاستعمار من المصريين ، الذين يرتكب الاستعمار كل ما يرتكب من جرائم وآثام باسمهم وبأيديهم :

« كفت إنجلترا يدها عن الأعمال عند دخولها مصر، وسلمتها إلى المصريين ظاهرا ،

---

(١) القواد : (بضم القاف) : جمع قواد (بفتح القاف) وهو الذى يدل على بيوت الريبة ويقود الرجال للنساء.

لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشهد عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول . ولما لم تجد أمامها من يجهل هذا الظاهر باطنا ، بحصر السلطة فى الذات الخديوية الفخيمة ، والإدراك فى الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون ، حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون . وكانت تتلقى باسمهم المطاعن الأوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض ، فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع فى الخداع . وهم غير محقين؛ فإنها ما دخلت إلا لتحمل حملا أمام أوروبا ، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط ، ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم : حملونى ما عندكم من أثاث وحلى وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ ... كلا ، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه . أيرون أن الإنجليز هم الذين نشروا منشور المومسات ، ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ؟ ... أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا . فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى فى كل كتاب ؟... أم هل قالوا للمصريين : سننفق ملايين فى المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها ، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكافين بسدادها إلى روتشلد وغيره ؟ أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات ، إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على نقلها ، حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو النبوت ؟ ...(١) أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة

---

(١) يشير إلى تصفية المصانع الحربية عقب الاحتلال بعد أن فككت أجزاؤها وبيعت بأبخس الأثمان على أنها غير صالحة (خردة) .

وحشروا الغرباء (١) فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ . . . أم هم الذين ملأوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنكليزية ، لتنسى لغة القرآن، فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك فى مجالسهم وأنديتهم وشوراهم ؟... لا والله .. ما نالوا أملا ، ولا قارفوا عملا ، ولا أذلوا رجـــلا ، ولا خربوا بيتا ، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين » .

وأخذ يلقى تبعة ما صارت إليه مصر من سوء الحال على أمراء المصريين وزعمائهم حيث يقول :

« لماذا نتألم من أعمالهـــا (٢) وأمراؤنا اقتصروا على القعود فى القصور وركوب العربيات للتفسح فى المتنزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة ولا صوت أو صوت استصراخ . وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هـــؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤهم فى المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والملك شيئا ، متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين . فإذا انصرف النبهاء عن وجهتى السياسة والدين ، فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمود الدين قائما كبقية الأديان ؟.. أبالإخاء الذى ربطناه مع الأجنبى ، نتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا فى حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر فى الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتفعل ما تشاء ؟... مع أن النبهاء يمكنهم ان يستخدموا محافلهم فى مصالح بلادهم ، فيتمكنوا بقوام العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع ، من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخـــداع ،

---

(١) يقصد اللبنانيين الذين كثر عددهم وقتذاك فى الوظائف الحكومية . وكان هؤلاء الموظفون أعوانا للاستعمار كما سيجىء .

(٢) الضمير فى (أعمالها) راجع إلى إنكلترا .

ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة من مضربها المصرى وسقيها المؤيد ، يربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة » .

وراح يذكر المصريين بما كان من تخلفهم عن عرابى وحسن استقبالهم للإنجليز ، مغترين بما أذاعه عليهم الخديوى توفيق وأعوانه من أنهم لم يدخلوا مصر إلا مصلحين منجدين ، فقال :

مضت السنون العشر التى قابلتم غرتها بالأفراح والزين ، وطرتم فيها حول الأوهام طرباً وسرور ، وعميتم عن سوء العاقبة ، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحاً وثناء (١) وشربتم الخمور جهارا باسم من استعديتموه على بلادكم ، ونصرتموه بتثبيط إخوانكم ، وبذلتم أموالكم وأرواحكم فى دخول البلاد ، والتخلى لهم عما بأيديكم من الأعمال ، ولطالما طأطأتم الرءوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما ، وبصقتم على وجوه إخوانكم ولبستم أجل ثيابكم تنتظرون يوماً يقتل فيه مائة ألف مصرى . فهـــذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر ، وكيف تنقلب الأحوال بالأهوال ، على من لم يقرأ العواقب ، ومن يلقى نفسه بين نيوب الصلّ خوفاً من الطاية (السحلية) . فقد أبدلته المصائبُ الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسير أعـــواد الطرب والسرور ، وضرب دف الندبه والرثاء . وهل تُجزَوْن إلا ما كنتم تعملون ؟ . . . »

ثم أخذ يعرّض بالمقطم — صحيفة الاستعمار — متوقعاً ما ستهاجمه به ، وما سوف تدعيه من أنه يدعو إلى ثورة كالثورة العرابية فقال :

« وكأنى بدخيل(٢) يوسوس للأجانب قائلا : إن (الأستاذ) يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة . فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء ، وتسليط الأوربيين على كل بلد نودى فيه بالمحافظة على وطنيته ، ونحن نضع حجراً فى

(١) يشير إلى القصائد التى قيلت فى مدح « توفيق » والترحيب به وبجيش الاحتلال بعد عودته ، وفى ذم العرابيين . وتراجع نماذج من هذه القصائد فى كتاب (مصر للمصريين ٥ : ٢٣٨ — ٢٤٧)

(٢) كان صاحب صحيفة (المقطم) هو : فارس نمر ، وهو لبنانى الإصل .

فهم هـــذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إفراد . إن المصريين قد جربوا أنفسهم في التظاهر بالقوة ، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثيرو العَدد والعُدد . والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح . وقادة الجند من الأجانب . ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا الراعي . ولا موجب لحركة الأهالي حركة عدوانية بعد خضوعهم لأميرهم ، وانقيادهم إليه في السر والعلن . وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا ، وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم ، لا لمصلحة المصريين معاذ الله ، ولا لمنفعة المسلمين ، أستغفر الله ، فما من مصري إلا وهو يعلم الآن أن أوروبا لا تصدق في قول ولا تفي بوعد ، ولا تحب شرقياً ، ولا تسعى في خير مصري . وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها . يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش . ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة ، مع فراغهم من المعدات الآلية ، وعدم حاجتهم إليها ، يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشغب أصوات فضلاً عن فرقعة سلاح . وما يدعوهم (الأستاذ) إلى مجاراة الأوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم » .

ثم قال بعد أن تكلم عن وحدة عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين :

« فيا بني مصر .. ليمد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية ، وليمد الإثنان إلى القبطي والإسرائيلي تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين » .

ويهاجم ذلك النفر الذين خوت قلوبهم من الوطنية ، ممن يلتمسون الجاه بالتزلف إلى المحتل الغاصب قائلاً : « نرى كثيراً من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حمى الأجنبي لياذاً به وطلباً لمعروفه . فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلاب لكونها فضلة طعامه وفتات خوانه ؟ .. وهل جلس في حضرته

إلا مهيناً مزدرى منظوراً إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد ؟ . . . وهل مكنه من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة فى تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه ؟ . . . وهل بش فى وجهه مرة إلا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق ؟ . . . »

كان هـــذا المقال الجرىء العنيف بداية لسلسلة من المعارك ، تألبت فيها الصحف الإنجليزية ، تؤيدها صحيفة « المقطم » ، واتهمته بإثارة الفتنة ، حتى انتهى أمره إلى خضوع الخديوى عباس لما أملاه عليه كرومر من إبعاده عن مصر منفياً(١) . فودع قراءه وداعا مؤثراً فى العدد الأخير من « الأستاذ » فى كلمة عنوانها (تحية وســـلام) ، ختمها بقوله : « وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة ، إن كان المبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعـــلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكمُ
وما عن قِلى كان الرحيلُ ، وإنما دواعٍ تبدّت فالسلام عليكمُ

وبذلك طويت صحيفة الأستاذ ، ولما يحل الحول على صدور العدد الأول منها (٢)

* * *

وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، الذى تلقى دروسه الأولى فى الوطنية وفى السياسة على يديه . فقد اتصل به منذ عودته من منفاه ، وعرف منه

---

(١) زعماء الإصلاح ص ٢٤٠ ، مجلة الأستاذ العدد الأخير ص ١٠٢٩ ، ١٠٣٠

(٢) لم تطل حياة عبد الله النديم بعد ذلك فقد توفى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٦ غريبا فى تركيا بعد حياة لم تتجاوز أربعة وخمسين عاما ، كانها جهاد عنيف ، لم يذق طعم الراحة والاستقرار وقد ذكر الدكتور أحمد أمين فى كتاب (زعماء الإصلاح) أنه لم يعقب ولداً ولكن الصدفة الحسنة قادتنى إلى معرفة ابن له ولد بعد وفاة أبيه فى تركيا ، وعقب عودة والدته إلى مصر ، وهو السيد محمد سعيد عبد الله النديم وكيل إدارة المنائر بالاسكندرية . ولا تزال والدته بخير .

كثيرا من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة الإنجليزية . مما جعله يتجنب الخلاف مع الخديوى ، ويحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة واحدة تواجه الاستعمار[1] . وخطا مصطفى كامل خطوة جديدة إلى الامام حين جاهر بطلب الجلاء فى أول حديث له نشر فى صحيفة الأهرام[2] . وتابع بعد ذلك نشر المقالات الوطنية فى صحيفتى « الأهرام » و « المؤيد » ثم فى الصحف الأوروبية منذ بدأ رحلاته السنوية إلى أوروبا فى مايو سنة ١٨٩٥[3] . حتى ظهرت صحيفة (اللواء) اليومية فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . فكان يكتب مقالاتها الافتتاحية فى أكثر الأحيان .

* * *

وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العرابية بظهور الخديوى عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد وفاة أبيه الذى كان سببا فى تمكينها بالاحتلال الانجليزى .

والواقع أن عباسا كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت . فقد تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره . وكان جريئا واسع الأمل ، يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الإنجليز ، وكان مصريا بحتا كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول[4] فنفخ فى مصر روحا جديدة من الوطنية والشجاعة ، جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال[5] وكان ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للإنجليز[6] ولذلك كان أول ما فكر فيه عند تولى الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين ألفوا أن

(١) — مصطفى كامل ص ٣٠ .
(٢) الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل ص ٣٧ .
(٣) مصطفى كامل ص ٣٩ .
(٤) عباس الثانى ص ٢١ ، ٢٨ .
(٥) تاريخ الاستاذ الإمام ١ : ٥٦٩
(٦) عباس الثانى ص ٢٧ .

يذلوا أنفسهم ويمتهنوا كرامتهم أمام المستعمرين[1].

بدأ عباس حكمه كأحسن ما يبدأه ملك ؛ فهو شديد الرغبة فى التودد إلى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر[2] . ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا فى الثورة العرابية فى السنة الأولى لحكمه ، ويرد إليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة[3] وهو يستعرض الجيش المصرى مرتين فى هـذا العام[4] ، ويحيي شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع إلى تفسيره مع رجال حاشيته[5] وهو يطالب بخروج الجيش الإنجليزى من القلعة . ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبله[6] . وقد نجح نجاحا مؤكداً فى بث شعور الكراهية للإنجليز فى قلوب المصريين ، كما نجح فى إخراجهم عما ركنوا إليه من فتور واستسلام يشبه الموت ، ورسم لهم طريق المقاومة بجرأته فى تحديهم ، فكان كسيال من الكهرباء طبق جو مصر وكهرب جميع أهلها ، فشعروا بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم[7].

ولذلك لم يكن عجيباً أن يلتف المصريون حوله وأن يحبوه ، حتى لقد بلغ من حماستهم فى استقباله أن يتقدم الشباب لجر عربته بعد أن نحوا عنها الجياد ، حين ذهب لصلاة الجمعة فى مسجد الحسين رضى الله عنه[8] : وقد أقر كرومر بنفوذ عباس حين قال إن الصعوبة الكبرى التى واجهت الإنجليز حين استهدفوا رفع مستوى الفلاح هى أن يصلوا إلى ذلك دون الاصطدام بالقصر ، الذى أثبت

---

(1) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٦ .

(2) المرجع نفسه ٢ : ٢٦ .

(3) المرجع نفسه ٢ : ٣٥ .

(4) نفس المرجع ٢ : ٣٧ ،

(5) المرجع نفسه ٢ : ٣٨ .

(6) نفس المرجع ٢ : ٥٢ ،

(7) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢ ،

(8) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٧ .

على توالى العصور — رغم ما آل إليه من فساد — قدرته على جمع الشعب المصرى وتكتيله(١). واعترف بزعامته حين قال إن المبادىء العرابية قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب (خديوية)، وأن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتى كانت عليه عند بدء الثورة العرابية، غير أن الفرق الوحيد هو أن الخديوى نفسه فى هذه المرة كان هو قائد الحركة(٢) وحين قرر أن أنصار المبادىء الديموقراطية الحديثة ومن سماهم الغوغاء، الذين لا يملون من النفخ بها، كانوا جميعاً فى جانب الخديوى(٣). وإلى ذلك أشار السيد محمد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام حين قال « ومن إنصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الأمير الكبير — وقد ذكرت مساوئه — حتى لا تكون المساوىء هى التى تستقر وحدها فى نفس قارىء هذا الكتاب، وهو ظلم، فأقول : أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى فى عرف هذا العصر بالوطنية(٤) ».

وقد كان من آيات هذه الوطنية تشجيعه لمصطفى كامل منذ ألقى أمامه خطابة يرحب فيها بمقدمه حين زار مدرسة الحقوق، فشجعه على السفر إلى فرنسا لإتمام دراسته، وقربه إليه بعد عودته فكان يجتمع به سراً فى مسجد قريب من سراى القبة، يدبر معه الخطط للتخلص من الاستعمار(٥). وأمده بالنفوذ وبالمال،

---

(١) Modern Egypt ٢ : ١٩٣ .

(٢) عباس الثانى ٤٤، ٤٥ . (٣) المرجع نفسه ص ٤١ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢ .

(٥) عاد مصطفى كامل بعد إتمام دراسته فى ديسمبر سنة ١٨٩٤، وكان فيما اتفق عليه مع عباس وقتذاك أن تؤلف جماعة سرية من بعض الشباب الممتازين بالوطنية ممن تلقوا العلم فى مصر وفى الخارج (تاريخ الإمام ١ : ٥٩٣، مصطفى كامل ٢٨٠، ٢٨١، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٩٠، ب ؛ ١٤٠) ويقول أحمد شفيق إن هذه الجماعة هى التى قررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الانجليز بالكتابة فى الصحف الفرنسية وبالخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل فى مصر وفى أوروبا .

فشجعه على تأسيس الحزب الوطني ، وأعانه على إصدار صحفه المختلفة(١) .

وكان عباس إلى جانب تشجيعه لمصطفى كامل ، يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم من الإنجليز(٢) . وكان يحض الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم إزاء رؤسائهم من ممثلى الاستعمار فظهرت روح المقاومة بين الموظفين ، واستحكم الخلاف فى دواوين الحكومة ومصالحها وبينهم وبين الانجليز ، حتى قال كرومر إن الموظفين جميعاً من أكبر كبير إلى أصغر صغير كانوا تابعين لعصابة الحركة ضد الانجليز ، التى يقودها عباس . وكان يعرض عن الذين يترددون إلى الانجليز ، ويبدى عداء صريحاً واضحاً لكل من يلوذ بهم من الأعيان والعمد والمشايخ ، ويسىء استقبالهم فى القصر فى مختلف المناسبات(٣) .

من أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال ولم يكن هناك من وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع(٤) .

وظل كرومر يتصيد الفرصة المناسبة ليضرب ضربته دون أن يكون هو البادىء ،

---

(١) ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ ، ثم أصدر فى سنة ١٩٠٧ صحيفتين يوميتين ، إحداهما بالفرنسية وهى «ليتندار إجبسيان» ، والأخرى إنجليزية وهى «ذى إجيشيان ستاندار» . وأسس لذلك شركة مساهمة لاصدار الصحيفتين سنة ١٩٠٦ رأس مالها عشرون ألف جنيه . وقد حث عباس الأعيان على مساعدته بالاكتتاب فيهما حتى احتج كرومر على هذا التدخل السافر فى معارضة المشاريع المعادية للانجليز — راجع مصطفى كامل ص ٢٠٢ ، تاريخ الامام ١ : ٥٩٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٠٣ .

(٢) كان من آثار ذلك فصل عدد من الضباط المصريين فى السودان سنة ١٨٩٩ من بينهم حافظ إبراهيم الشاعر — راجع تاريخ الامام ١ : ٥٩٢ ، عباس الثانى ٨٢ ، ليالى سطيح ص ٨١ ، ١٠٩ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٢١ .

(٣) عباس الثانى ص ٥٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٠ .

(٤) بدأ هذا الاصطدام باستخفاف ضباط الجيش من الانجليز بالخديوى وإهمال تحيته فى الطرقات والمجتمعات العامة مما دعاه للشكوى إلى كرومر من سوء أدبهم — راجع مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١١٦ ، عباس الثانى ص ٢٩ .

حتى يقطع السبيل على كل احتجاج ، وحتى لا يبدو أمام الرأى العالمى العام معتديا(١) وسرعان ما وجد الفرصة المناسبة عندما اتهم عباس مرض مصطفى فهمى فتخلص منه بإقالته فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ . وأصـــدر أمره إلى حسين فخرى بتشكيل الوزارة ، مكتفياً فى كل ذلك بإبلاغ كرومر بما تم(٢) . وأبرق كرومر إلى وزير الخارجية البريطانية يقول « إن وقوع نزاع شديد مع الخديوى كما قدرت منذ وقت طويل أمر لابد منه ولا أرى من الصواب تأخيره . وأنى أرى وجوب انتهاز هذه الفرصة لوضع حد لهذه الأمور . . . وإنى أرى أن لا فائدة من اقتصار فخامتكم على النصيحة . بل أقترح أن ترسلوا إلى برقية أستطيع أن أريها لسموه . تذكرون فيها بكل جلاء أن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المشاكل الهامة مثل مسألة تغيير النظار . . . كذلك أقترح إعطائى السلطة بأن أتخذ الوسائل اللازمة التى أرى وجوب اتخاذها لمنع هذا التغيير .. الخ » وأصدر كرومر أمره فى الوقت نفسه إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة حتى يتلقوا أوامره(٣) .

وجد الخديوى الشاب نفسه وحيداً أمام السياسى المحنك . فالكتلة الشعبية لاتتجاوز قوتها كلاما يقال ، أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض . وفرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الإنجليز قد تخليا عنه . ورأى كرومر

---

(١) يقول كرومر « أما أنا فقد عرفت أن لامفر من وقوع نزاع شديد ، ولكنى اعتقدت أن البدء فى النزاع لا ينطبق على السياسة الرشيدة ... فالخطة التى كان يجب على اتباعها كانت مرسومة واضحة . وهى أنه كلما كان يتحقق اقتراب الأزمة كانت تزداد الحاجة إلى الاعتدال المتناهى ، لكى أبعد كل ما يدعو إلى الاشتباه بأن الأزمة أثيرت عمداً » عباس الثانى ص ٣٠ — ٣١

(٢) كان مصطفى فهمى من أطوع رؤساء الوزارات المصريين للإنجليز وأوثقهم صلة بهم .. حتى لقد روى أحمد شفيق وكرومر أنه أجاب رسول عباس إليه حين طلب منه الاستقالة بقوله « إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يتخذ خطوة فى هذا السبيل » . راجع مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٨ ، عباس الثانى ص ٣٤ . (٣) عباس الثانى ص ٣٥ — ٣٦ ؛ مصطفى كامل ص ٢٦٤ .

أن من الأفضل أن لا يسرف فى إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحاً التفاهم امله يستطيع من بعد أن يتألفه ، فحل المسألة حلا وسطا ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمى إلى رياسة الوزارة ، وبأن يعزل فخرى فى نفس الوقت ، ويعهد فى تأليف الوزارة إلى مصطفى رياض . ولكنه أصر على أن يتقدم عباس إليه بخطاب أول موصورته يقول فيه « إنه يرغب رغبة شديدة فى أن يوجه عنايته إلى إيجاد أصدق العلاقات الودية مع إنجلترا . وأنه يتعهد بكل رضاه بوجوب نصيحة حكومة جلالة الملكة فى كل المسائل المهمة فى المستقبل»(١).

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوى الشاب درساً لن ينساه . وكان يتوقع أن يجد فى رياض — عدو المبادىء العرابية القديم — عوناً على ترويض عباس وكسر حدته . ولكن الذى حدث هو أن رياضا قد انقلب إلى مؤازرة عباس . وظاهره فى موقفه العدائى من إنجلترا ، فمنع الموظفين الإنكليز عن جرت العادة بأن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون اللغة العربية هى لغة التعليم فى المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى باللغة الإنكليزية(٢) . وكثر الصدام فى عهده بين الموظفين المصريين والانكليز(٣) . وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة سلطات الاحتلال حتى اضطر إزاء إلحاح كرومر إلى إيقاف صحيفة « الأستاذ » ، وإبعاد صاحبها عن وطنه .

ومضى عباس لوجهه لا يتراجع يؤيده رياض ، وقد تأثر بما رأى من إجماع الشعب على تأييد الخديوى . فقد ظلت الجموع من مختلف الطبقات تتوالى على القصر طوال اليوم الأول لتوليه الوزارة ، تهتف داعية للخديوى مشيدة بوطنيته

---

(١) عباس الثانى ص ٣٧ - ٣٩ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٨ - ٩١ .

(٣) مثال ذلك ما حدث حين أصر ماهر باشا وكيل الحربية على أن يعرف مرتبات ضباط الجيش من الإنجليز لمقارنتها بمرتبات زملائهم من المصريين . وكان السردار يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه البيانات فى طى الكتمان ، وقد تعود منذ الاحتلال أن لا تكون موضع مناقشة ـ عباس الثانى ص ٥٦ - ٥٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٠ .

وجرأته . وهاجم فريق من الشباب ، وعلى رأسهم مصطفى كامل - وكان وقتذاك طالباً في الحقوق - صحيفة « المقطم » التي كانت تؤيد الإنكليز وتهاجم الخديوى[1] وتجلى حماس الشعب في استقبال عباس حين ذهب إلى مسرح (الأوبرا) لمشاهدة رواية « عايدة » بعد الأزمة بأربعة أيام[2] .

لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمى عام حتى أصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية في حادثة تافهة ، احتك فيها الخديوى بكتشنر — سردار الجيش وقتذاك[3] - فبادر كرومر إلى الاتصال برياض يطلب تقديم اعتذار رسمي من الخديوى عباس ينشر في الصحيفة الرسمية ، ويهدد بعزله . وأسرع رياض إلى مقابلة عباس في جرجا قبل عودته إلى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر فلم يجد الخديوى ، وقد وجد نفسه وحيداً للمرة الثانية ، بدأ من قبولها . ونشرت البرقية التي اعتذر فيها عباس إلى كتشنر في الصحف العربية ، كما نشرت ترجمتها الفرنسية في الصحف الأوروبية[4]. وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس في الجيش . فقد انتهى الأمر فيه إلى ما توقعته صحيفة الأهرام في تعليقها على الحادث واستنكارها لموقف رياض من الخديوى بمساعدته الإنجليز على إملاء شروطهم وإذلال عباس ، حين قالت : « إن الضباط والعساكر المصريين سينتهى بهم الأمر إلى أن لا يعرفوا

(١) عباس الثانى ص ٤٥ (٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٦٢

(٣) وذلك أن الخديوى سافر فى رحلة إلى الحدود . فلما بلغ وادى حلفا واستعرض الجيش فى ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ ، أبدى للسردار - وهو وقتذاك كتشنر - بعض الملاحظات التي تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق ، فاعتبر السردار أن فى توجيه مثل هذه الملاحظات إهانة له وغضاً من قدره ؛ فقدم استقالته . ولم يدع كرومر الفرصة تفلت من يده ، فهو يقول : « إن الفرصة التي كنت أرقبها قد جاءت ، وإنه من الصعب اختيار ميدان للواقعة أنسب من هذا الميدان » فانتهز هذه الفرصة لإذلال عباس - عباس الثانى ص ٦٠

(٤) راجع التفاصيل فى مصطفى كامل ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٢٠ - ١٢١ ، عباس الثانى ص ٥٨ - ٦٦

رئيساً عسكرياً سوى كتشنر باشا ، ولا رئيساً سياسياً سوى اللورد كرومر » .

* * *

كان اصطدام الخديوى بالإنجليز يزيد عطف المصريين عليه وحبهم له . وكان هو من جانبه لا يدع فرصة للاتصال بالشعب إلا اقتنصها (١) ، لذلك لم يكن عجيباً أن يقبل عليه الشعراء مادحين ، وأن يجدوا فيه وطنيته الصادقة وميوله المصرية ، التي كانت شيئاً جديداً من هذه الأسرة التركية التي عاملت الشعب من قبل بكثير من الترفع والاحتقار . ومن الإنصاف لهؤلاء الشعراء الذين مدحوه في هذه الفترة الأولى من حياته — وهم كثرة كبيرة ، لا يكاد يشذ عنها شاعر من شعراء ذلك العصر — أن نقول : إنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور وطني خالص لا تشوبه شائبة من التزلف أو الملق ؛ فقد جمع عباس في هذه الفترة الأولى من حكمه بين الزعامة والملك . وهذا هو عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، الذي لم يحد عن مبادئها حتى مات غريباً في تركيا ، لا ينى من الإشادة به في كل مكان من صحيفته « الأستاذ » ، محاولاً أن يجمع المصريين حوله ، وأن يجعله قطب الحركة الوطنية في ذلك الوقت . وهذا هو مصطفى كامل ، قائد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار ، يقول في خطبة له بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ :

« والحمد لله ، فقد أصبحت مصر عارفة بحقوقها ، وأصبح أبناؤها عارفين بواجباتهم نحوها ، مستظلين جميعاً — على خلاف ما يشتهيه الدخلاء — براية الوطنية الشريفة الحامل لوائها عزيز مصر وأميرها الجليل عباس حلمى باشا :

« أراكم أيها الوطنيون الأوفياء ، والمستوطنون الأعزاء ، صفقتم وهششتم وبدت عليكم علامات البشر والسرور ، عندما ذكرت اسم عزيزنا المحبوب . فاسمحوا لي أن أحمدكم من صميم فؤادي ، وأشكركم على المكانة السامية التي لأميرنا

---

(١) راجع على سبيل المثال : وصف رحلة الخديوى عباس إلى الصعيد لافتتاح الخط الحديدى بين أسيوط وجرجا سنة ١٨٩٣ فقد حرص على زيارة الأقاليم والنزول في ضيافة أعيانها على طول الطريق . مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٤ - ٨٧

الكريم فى نفوسكم ، الدالة على أن الشعب المصرى كله قدّر هذا السيد حق قدره . أنه حقيق بأن يحب ويخدم بصدق وإخلاص ، جدير بأن يساعد فى خدمة الوطن وعرف العزيز ....»

« إن هذا الأمير أرسل ليسترد لمصر حقوقها ، ويعيد لها أملاكها المفقودة . فليكن منا رجال أوفياء يساعدونه على هذا العمل الخطير ، ويفدون أشخاصهم فى جانب خدمة البلاد . فإن الوطن يستغيث بكل ذى شعور حى ، والأمة تستنجد بكل ذى إحساس شريف .

« ولا يجب أن ننسى أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيراً خدمة الوطن الشريف ، فإنه هو الذى أسمع أوروبا بأن مصر ترغب بغيرة تشوف نوال حريتها التامة . وهو الذى أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية ، وأيد العلائق الحسنة ، وأحبط مساعى الدخلاء مريدى التفريق . فلنساعده جميعاً فإن فى مساعدته خدمة لمصر وأهلها »(1) .

والذى يقرأ مدائح الشعراء لعباس فى هذه الفترة ، يستطيع أن يدرك بسهولة أن كثيراً منها يدخل فى صميم الشعر الوطنى ، بما اشتمل عليه من تصوير لذلك الكفاح المرير الذى كان يخوضه الخديوى ضد الاستعمار .

وطبيعى أن يكون شوقى فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين مدحوا عباسا . ولسنا نزعم أنه كان مدفوعا فى كل مدائحه بشعور وطنى ، فقد كان شوقى وقتذاك شاعر القصر ، وقد تضطره وظيفته إلى مدح أميره بالحق وبالباطل . ولكنا نقول : إن هذا الشعر طابق الحق فى هذه الفترة ، على ما كان فيه من تحوط واحتراس ، وتجنب لمهاجمة الاحتلال مهاجمة صريحة فى أغلب الأحيان(2) . ومن أحسن ما قال

(1) مصر والاحتلال الانجليزى - مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو 1895 إلى مايو سنة 1896 ص 142 - 143 . وراجع كذلك مذكراتى فى نصف قرن 2 : 203 .

(2) من الإنصاف لشوقى فى هــــذا المقام أن نشير إلى ماكان من صداقته لمصطفى كامل ، وإلى أن صلته به لم تخضع لصلة الخــــديوى به قوة وفتورا ، ولكنهـــا استمرت وثيقة قوية على كل الأحـــوال =

فى هذه الفترة ، مما يتصل بشعر الوطنية ، قوله(١) :

بصولك حاجتنا المالك والمصرا ... وقلنا فبانت مصر فى بعدها مصرا
وباسمك أسمعنا ، نريد زماننـــا ... كبيراً كعهد العالمين به حرا
ونطلب حقاً عند هذا الورى لنا ... تودع يورى فى توضحه الفجرا
فتى الملك ! لى فى حب ذا الملك سيرة ... فقل لى ، وإن من يرى أمرك الأمرا
بأى فؤاد جئتنا فى مكانـــــا ... من الدهر، لم تخطىء عزائمك الدهرا
ولا هبن فيها البأس والرأى والحجا ... خصوماً وذاك الملك والبرّ والبحر
فما ذقت فى هذا المقام مودة ... لقوم يذوق الناسُ ودّهمُ قسْرا(٢)
إذا نحن النيل المؤمل راحة ... فقد حمت الشمس الكريمة والبدرا
وإنا لنعطى النيل فى الله حقه ... ونخشاه فيه أن يُباع وأن يُشرى
فما ساءنا أن غالنا الدهر شطرنا ... ولكنا نرعى لأبنائه الشطرا(٣)
بعثنا وعيـــداً من زئير وطالما ... بعثنا الكون الجمّ والنظر الشزْرا
عرفنا خطوب الدهر والصبر عندها ... فلم نعرف الخطب الذى غلب الصبرا
وما نامت يا عباسُ ما نلته سدى ... ولكن أصاب الصابرون بك الأجرا
ستدعو بنى الدنيا إلى النيل دعوة ... يلبون منها الجاه والنائل الغمْرا
ومُلكاً كما تهوى الأحاديث عالياً ... كأن الخديوى فيه قيصر أو كِسْرى
تضىء به شورى المرائى التى زكت ... وتشرق أركان القضاء الذى برا

═ ومن الانصاف له كذلك أن نذكر أنه كان من أبغض رجال الحاشية إلى الانجليز . ويدل على ذلك ما كان من نصيحة كرومر لعباس فى آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر ، بأن يبتعد عن مصطفى كامل ، وعلى يوسف ، وأحمد شوقى . ويدل عليه كذلك إبعادهم إياه عن مصر بعد خلع عباس - يراجع فى ذلك (مصطفى كامل) للرافعى ص ١٢٠ ، ٣٠٤ - ٣٢٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ٢ : ١١٤ - ١١٥ ، ١١٨

(١) ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣ .

(٢) يقصد بالذين يذوق الناس ودهم مرغمين : الانكليز .

(٣) يقصد بالشطر الأول الذى اغتاله الدهر : السودان ، أما الشطر الثانى الذى يرعاه الخديوى لأبنائه فهو : مصر .

وتمرحُ في أيامه النفسُ حرة   تناولها مُعْشِباً وتلبسها خضرا

وهو يشير في قصيدة أخرى إلى شدة إقبال الشعب على عباس والتفافه حوله كلما اشتدت الأزمات، وكلما أسرف الانجليز في التضييق عليه فيقول(١) :

بعباس عشنا حين لا العيشُ هيِّن   وحين بنوه لا جيـــل ولا جدُّ
نحبك يا خير الملوك وحبنا   لنا منك ما يخفى والحال ما يبدو
ولاء مع الأيام ، تنمو صروفها   فينمو وتشتد الخطوب فيشتد

ويشير إلى قيادة عباس للحركة الوطنيـــة وكفاحه للاستعمار في قصيدة ثالثة حيث يقول(٢) :

هذه مصر جاءها النيل يسعى   وهو يا طالما جفاهـــا وصدّا
صاحبَ النيل في البرية ليه   حرر النيل للبرية وردا
وارفعِ الصوتَ إن مصرك حرة   أن يرى من سماع صوتك بُدا
إنما المُلكُ أن تكون بلاد   وتصيب البلادُ المُلك مجدا
فتولّ الذي سننتَ ونهّج   لرعاياك في المعارف قصدا
ومن العلم أن يزور بلادا   عهدتها له الخـــلائق مهدا

وهو يشير في هـــذه القصيدة إلى ما كان من احتجاج الانجليز على تقريب الخديوى له ، ونصحهم إياه بإقصائه عنه فيقول :

قل لراجٍ أن يسترقّ يراعى   أنا لا أشترى بذا التاج قيدا
ليراعى وللأحاديث شأن   ارتجى أن يكون مسكاً وندا
نومةُ السيف قد تكون حياةً   ورأيتُ اليراعَ إن نام أردى
خلق الله ذاك صاحبَ غدٍ   وبرا ذا لايعرفُ الدهر غدا

ويشير إلى حيرة المصريين ، وما صاروا إليه من سوء الحال ، مشيدا بجهاد عباس ، الذى لا يعرف قلبه اليأس حيث يقول(٣) :

---

(١) ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٧٣   (٢) المرجع نفسه ص ٨
(٣) ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٥٨

أبا الجيارى !.. الا رأى فيتعهدهم فليس إلا إلى آرائك المهربُ
باتوا يرجّون انّا طال بؤسهمو والنفس عند اشتداد الخطب ترتقبُ
لن يعرف اليأس قومٌ أنت حصنهمو وأنت رايتهم والفيلقُ اللجبُ
عوّدتهم أن يبينوا فى خلائقهم وأنتَ عانٍ بما عودتهم نَصِبُ
والصدقُ أرفعُ ما اهتز الملوكُ له وخيرُ ما عوّدَ ابناً فى الحياة أبُ
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويشيد حافظ بقيادة عباس للحركة الوطنية فى قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٤ حيث يقول(١) :

رددتَ ما سلبتْ أيدى الزمان لنا وما تقلّص من ظل وسلطان
... فكن بملكك بناء الرجال ولا تجعل بناءك إلا كلّ معوان
وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت عزاً ولا شعرت حباً لأوطان

ويقول إسماعيل صبرى فى قصيدة مدحه بها سنة ١٨٩٣ : (٢)

عباس !... قد سُستَ البلاد سياسة سيحدّث التاريخُ عنها الأعصُرا
أنفذت حكمك بادءاً بمسائل دقّت على الحكماء أن يتصوّروا
وبنيت سداً من ذكائك دونهم فأريتنا يأجوج والاسكندرا (٣)
يا صاحبَ النيل الذى جرّت به مصر على البلدان ذيلا أخضرا
حققت آمال البلاد وجزتها شأواً وما جزت الشبابَ الأنضرا
رامتك شبلا كى "تميز" عرينها فأبيت إلا أن تكون غضنفرا

(١) ديوان حافظ ١ : ٣٠ . ولحافظ قصيدتان سابقتان على هذه القصيدة قالها سنة ١٩٠١ ولم يشر فيهما إلى الحركة الوطنية من قريب أو بعيد ، لأنه كان وقتذاك فى الاستيداع ، وكان يؤمل أن يعود الى الخدمة . وإنما جهر حافظ فى هذه القصيدة بعد أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٠٣ فانقطع أمله ولم يعد يبالى غضب الانكليز .

(٢) ديوان إسماعيل صبرى ص ٤٦

(٣) يشبه المفسدين بيأجوج ، ويشبه عباس بالاسكندر الذى بنى سداً على يأجوج ومأجوج ليحول بينهم وبين الناس كما جاء فى سورة الكهف .

ويقول محرم من قصيدة مدحه بها في إحدى رحلاته الكبرى التي كان يطوف فيها بالأقاليم وينزل في ضيافة أعيانها(١) :

أهلا برب النيـــل يلقى شعبه فرحاً يضج مهللا ومكبّراً
فرعون ينظر من خلال عصوره خزيان يرفع كفه مستغفراً
سُسْتَ الرعية عادلا تبغى لها عن الحياة ، وساسها متجبراً
جحد الإله وفي يديك كتابه تقضى به وأعيده متــدبرا
الملك إصلاحٌ وعدلٌ شائع يحمى الضعيفَ ويقمع المتكبرا
ورعايةٌ تهب النفوس حياتها وترد جيش البؤس عنها مدْبِرا
مولاى أحييت الرجاءَ لأمـــة شهدت بطلعتك الرجاء الأكبرا
صدقُ الولاءِ أمانة لك في دمى يأبى لهـــا الإيمانُ أن تتغيرا
لستُ الذى يرضى المفرق سجية ويرى النفاقَ في المذاهب مَتجرَا
لو كنتُ طالب حاجة لوجدتنى أسعى إليها في ذراك مشمِّرا
ولو أنني ممن يتوق إلى الغنى لوجدتُه بندى يديك ميسَّرا
ما في الحياة على تعاظم شأنها ما يستخفُّ العاقلَ المتبصرا
لو كان لى قصرٌ يزانُ جماله لوفادة العباس بدعاً في الورَى

ويقول الكاشف ، من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠١(٢) :

مرَّ بالنيل قبـــل عهدك دهراً كان فيه لا يرتوى الورّادُ
ويتواديه - وهو أجدبُ محل - يشتكى عنـــده الطوى الروّادُ
... فيك آمالنا الكبارَ ، وفينا لك حب وذمة وانقيـاد
ولديك النجاة من كل عادٍ وإليـــك السكونُ والإخلاد
أتخاف العِدَى وأنتَ محيطٌ بالذى دبّر الدهاةُ وكادوا
وجدوا ما تروه ما دمتَ في مصْـ ـرَ محالا فاستسلموا أو كادوا

---

(١) ديوان محرم ٢ : ١٢٨ — ١٠٩ .
(٢) ديوان الكاشف ١ : ٢٣

واكتسبوا شيمة الصديق فما يظ ... هرُ منهم إلا الرضى والوداد

ويقول من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٢ (١) :

إن الذى أحيا البلادَ بنيلها ... لك مرجعٌ بك مجدَها المغصوبا
وكتبتك عالى عرشها ، ووهبتها ... عدلاً فكنتَ الواهبَ الموهوبا
لا يبلغُ الأقوامُ منها مأربا ... ما دمت فيهم ناقداً وحسيبا
وسينجلون كما انجلى من قبلهم ... أمم أشدُّ وقائماً وحروبا
سعياً لتنسينا بموعود الرضى ... إنما جناه مَنْ مَضَوْا وذنوبا
إنا لنرجو بعد اشتيتك التى ... جرت جسودك صيحة فوثوبا

ويقول عبد المطلب، من قصيدة مدحه بها حين عاد من الحج سنة ١٩١٠ م(٢) :

يدعو لمصر بأن يراها أحرزت ... فى دولة العليـاء كلَّ نصاب
بلد عرفناه يهيم بحبه ... منذ الشباب وقبلَ عصر شباب
وهو الغياثُ لمصرَ إن عبثت بها ... أيدى ثعالبَ فى الورى وذئاب
وهو الذى وقف المواقف كلها ... فى نصر مصر وقوفَ ليث الغاب
يدعو ويرجو نصرَها متبتلا ... لله بين القبـر والمحراب
فعلى بنيها أن يحلَّ ولاؤه ... منهم مع الأرواح والألباب

ويقول عبد الحليم المصرى من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٦ ، وكان وقتذاك تلميذاً بالمدرسة الحربية(٣) :

لك اللواءان فوق الإنس والجان ... فاخذل عداتك من قاص ومن دانى
ربُّ الأسود التى يوم الكريهة لا ... يرونَ إخوانهم فيها بإخوان
لبثتَ فى أمة السكسون تقرضها ... عدلا بعـدل وعدواناً بعدوان
وكنت كالدهر، لو أغفت لواحظه ... له على الناس قلب غيرُ وسنان

(١) ديوان الكاشف ١ : ٣٢ .
(٢) ديوان عبد المطلب ص ٥ .
(٣) عبد الحليم المصرى ١ : ١٦ — ١٩ .

... هتفتُ بالمدح والدنيا إلى تبطش   وكان مدحُك مقروناً بإيمان[1]
فإن ظفرتُ بآمالي سأخذلها   ولن خذلتُ فإني ذلك الجاني

* * *

هكذا أحب الناس عباساً في صدر حكمه ، وكذلك مدحه الشعراء مخلصين غير منافقين ، ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال . فقد تضعضع عباس وخار عزمه أمام اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر ، ولم يدر ماذا يصنع . هذه هي فرنسا وروسيا ، تشجعانه على مقاومة النفوذ الانكليزي ، ثم تتخليان عنه في المآزق . وهذا هو الشعب من ورائه ، قصارى جهده أن يصفق وأن يهتف بحياته أو بسقوط الظلم ، فجهده جهد المُقل ، وحبه حب الضعيف الذي لا يضر ولا ينفع . وهؤلاء هم الذين اصطفاهم وقربهم إليه : مصطفى كامل وعلي يوسف ، لا تتجاوز وسائلهم الخطب والمقالات . وهؤلاء هم أعيان المصريين وكبراؤهم ، يسرعون إلى موكب الظافر يرتمون تحت أقدامه ابتغاء النفع[2] .

(١) يشير إلى أن مدحه يغضب كرومر ويغضب الانجليز أصحاب السلطان ويعرضه للاضطهاد ، وكان وقتذاك طالبا في المدرسة الحربية .

(٢) من أمثلة ذلك ، تصريح فخري باشا الذي رشحه عباس لرياسة الوزارة بعد إقالة وزارة مصطفى فهمي ، بأن الاستعمار الانكليزي أهون من غيره، وأنه لو تولى الوزارة لما فكر في الاستغناء عن خدمات الموظفين الانكليز ، لأن مصر لا تستطيع تصريف أمورها بغير مشورتهم (مذكراتي في نصف قرن ٣ : ٧٤) ومن أمثلة كذلك تراجع ماهر باشا الذي كان من أشد أعداء الإنكليز بعد اللطمة التي تلقاها عباس في أزمة الحدود ، وبعد نقله من وكالة الحربية في هذه الحادثة بأمر كرومر . فقد انضوى إلى الانجليز بعد ذلك مستيئساً من مقاومتهم (عباس الثاني هامش ص ٥٨) ومن أمثلته كذلك انصراف رياض باشا إلى التقرب لكرومر بعد أن أقاله عباس من رياسة الوزارة لتخليه عنه في حادث الحدود . وقد ظهر تزلفه هذا في خطبته المشهورة عند افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية سنة ١٩٠٤ وهي الخطبة التي هاجمه شوقي بسببها في قصيدته « خاتمة رياض » (عباس الثاني هامش ص ٦٦ مصطفى كامل ١٤٤ - ١٤٧) . وهكذا جنح معظم رجالات مصر إلى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه ، فانتشرت روح الخضوع والاستسلام بعد انسحاب فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ وبعد اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ (مصطفى كامل ١٠١ و ١٠٨ ، ١٠٩) وتفشى الضعف والنفعية والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية بعد اتفاق فرنسا وانكلترا سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٤٢ ، ١٤٣)

والجيش — على ضآلته وضعفه — والشرطة والأداة الحكومية بعد ذلك كله فى يد كرومر ، فكيف يصنع ؟

بدا لعباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة فى تركيا فتوجه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر ، وارتمى بين أحضانه كما يرتمى الطفل بين يدى أبيه طالبا الحماية من كلب ضار . وخيل إليه أن السلطان سينصفه ، فبالغ فى إذلال نفسه له والتأدب بين يديه (١) . ولكن عبد الحميد كان غارقا فى متاعبه الخاصة . وكان هو نفسه عاجزاً عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها . وفى مقدمتها إنكلترا ، فكيف يدفع الضرّ عن غيره من لا يستطيع دفعه عن نفسه ؟ . . . وكيف يعين عبد المعين وهو أحوج لمن يعينه ؟ . . . كما يقول المثل المصرى(٢) .

وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس إلى الأستانة وعلى فمه ابتسامة ساخرة وهذا هو السفير البريطانى فى الأستانة يقول : « إن السلطان نصح الخديوى بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويثق بفعل الزمن ، محافظاً دائماً على العلاقات الحسنة مع الانكليز » . ويقول كرومر عن وفد عباس إلى تركيـــا وعن العريضة التى رفعوها إلى الخليفة ، فى عبارة ملؤها الشماتة والاستخفاف : « ومهما تكن البواعث التى جعلت السلطان يعاملهم هذه المعاملة ، فلا ريب أنهم نالوا ما يستحقون . فإن هذه العريضة كانت أتفه فصل هزلى فى رواية الحركة ضد الانجليز . . . هذه هى النتيجة الوحيدة من زيارة الخديوى للأستانة ، فإنه اقتنع بأن لاينتظر أى مساعدة من هذه الجهة ، ذهب شاهرا

(١) زار عباس السلطان عبد الحميد فى ثلاث سنوات متتالية عقب أزمة الوزارة الفهمية فى سنوات ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ . ويروى أحمد شفيق فى وصف المقابلة الأولى أن الخديوى كان يقف مؤديا التحية العسكرية للسلطان عبد الحميد كلما أجاب عن سؤال يوجهه إليه . كما روى أنه امتنع عن التدخين فى حضرته حين قدم إليه لفافة تبغ ، ولم يسمح لنفسه بالتدخين حتى أمره السلطان بذلك قائلا : الطاعة فوق الأدب (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٠٣)

(٢) المثل باللهجة الشعبية (جيتك ياعبد المعين تعينى لقيتك ياعبد المعين تنعان)

الحرب ، وعاد خصماً مؤدبا ذليلا[1] » .

واضطرب تفكير عباس ، وراح يتخبط فى تصرفاته ؛ فهو تارة يفر من الانكليز إلى تركيا،وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتميا منه بالانكليز[2]. وهو كاره لكليهما فى الحالين ، لا تطمئن نفسه إلى هذا ولا ذاك . ولكن صلاته بتركيا تقوى وتضعف تبعاً لحسن صلاته بالانكليز، وصلاته بالانكليز تزيد وتقل تبعاً لإقبال السلطان عليه أو انصرافه عنه[3] . وبينا كان عباس يشجع أعضاء « تركيا الفتاة » الفارين إلى مصر من مطاردة السلطان عبد الحميد ،[4] إذا به ينقلب إلى محاربتهم تقرباً للسلطان[5] وبينا هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه ، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور ، التماساً للحد من نفوذ كرومر[6]. إذا به يتنكر للشعب وزعمائه ، ويعرض عن مطالبه ، حين يرى إقبال جورست (خليفة كرومر) عليه ،فيحارب الحرية والصحافة،ويغضى عن الزج بأصدقاء الأمس فى السجون[7] . فإذا مات جورست وحل محله كتشنر (عدوه القديم فى حادثة

---

(١) عباس الثانى ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٤١١ ، ٢ ب : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٨) سافر عباس للآستانة فى أول حكمه ثلاث سنوات متتابعة ثم انقطع سنة ١٨٩٥ بعد زيارة الأسطول الانكليزى للاسكندرية . وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٠ حين فترت صلته بالسلطان بسبب تشجيعه للفارين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة . ولكنه عاد لاستمالة السلطان حين أمر كرومر بتفتيش قصره فى حادث ليون فهمى سنة ١٩٠١ . ولم يلبث أن انصرف إلى التقرب من الإنكليز حين اختلف مع السلطان على جزيرة طاشوز سنة ١٩٠٢ . وهكذا ظل طول حكمه يفر من الإنكليز إلى الترك تارة ، ومن الترك إلى الإنكليز تارة أخرى . وكان مما يفسد عليه صلته بالسلطان مكايد الأمير حليم الصدر الأعظم ، وقدكان طامعاً فى عرش مصر(راجع مذكراتى فى نصف قرن فى السنوات السابقة) .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، و ٢ ب : ٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠

(٥) المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨ ، ٣٩٤ — ٣٩٥ ، عباس الثانى ٧٧ — ٧٨ و ٨٠

(٦) محمدفريد:٥٧، ٥٨ ، مذكراتى فى نصف قرن٢ ب: ١١٤و١١٨و١٥٣ و ١٥٤

(٧) المرجع نفسه ٦٤ ، ١٠٠ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٧٦و١٦٨و١٧٣ و ١٨٢ و ٢٣١ .

الحدود) ، عاد يلتمس عون الزعماء الذين زج بهم أمس فى السجون[1] .

كان هذا التذبذب والتخبط داعياً لاختلاف آراء الناس فى عباس : أكان مخلصاً لقومه ولكنه غلب على أمره ؟ . . أكان صادق النية ولكنه غالب التيار فغلبه ؟ ... أكانت آماله أكبر من همته فلم يصبر للكفاح ؟ ... أم أن حبه للملك وتعلقه بما يحيطه من أبهة وجاه كان أكبر من حبه لقومه ووطنه ؟ ... أم أنه كان يسعى إلى زيادة نفوذه وإطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتمس الوصول إلى هذه الغاية من كل سبيل ؟ ... وهو إذن لا يكره الاحتلال الانكليزى نفسه ، ولكنه يناهض ممثله وينازعه السلطان .

مهما يكن من دخيلة أمره ، فقد انتهى إلى نهاية لا يختلف عليها اثنان ؛ انتهى إلى اليأس والانحلال . فشهد العرض العسكرى الذى كان يقيمه جيش الاحتلال فى ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة فكتوريا ثم الملك إدوارد السابع من بعدها . ووقف للمرة الاولى تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر فى سنة ١٩٠٤ مرتدياً بدلة التشريفة الكبرى يحيط به حرسه الخاص .[2] ثم قبل تعيين (باور) إنجليزى له فى سنة ١٩٠٥[3] ثم نشرت له صحيفة (الديلى تلغراف) حديثا فى سنة ١٩٠٧ (بعد تعيين جورست) ينفى فيه عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، مطريا اللورد كرومر ، مصرحا بأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وبأن الاحتلال الإنجليزى أفضل من أى احتلال آخر[4] .

وانصرف عباس فى غمرة يأسه إلى المال يجمعه فى شره ، ويكدسه فى نهم ، ولا يبالى شيئاً غير تحقيق منفعته معتذراً عن سلكه بأنه يعادى دولة قوية قاهرة يحتاج فى حربها إلى المال ، وبأنه لا يدرى هل ينتهى الأمر بظفره فينجح

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٠٣ ، محمد فريد ٣٤٤ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ .

(٢) مصطفى كامل ١٥٢ ، ١٥٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٥٦ .

(٣) مصطفى كامل ص ١٥٥ .

(٤) » » » ٢٨٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١١٥ - ١١٦ .

في إجلائها أم تظفر هي فتطرده خارج مصر ! ! ! . فهو يحتاط لنفسه بأن يدخر ما يمكنه من العيش إذا دارت عليه الدائرة (١) . والأمثلة على هذا الشره كثيرة . منها جزيرة طاشوز (٢) ، وشركة الزبرجد والنحاس (٣) . ومنها بيع الرتب والنياشين وما استتبعه من فضائح (٤) . ومنها حرصه على وضع يده على إدارة الأوقاف وإطلاق يده فيها دون مراقبة ، مما أدى إلى اصطدامه بحسن عاصم وبمحمد عبده وبقاضي القضاة التركي وبغيرهم في تفتيش مشتهر سنة ١٩٠٤(٥) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٧ .

(٢) خلاصة المسألة أن الخديوي اتفق مع أحد الأجانب من السويسريين على بناء معصرة زيت بهذه الجزيرة سنة ١٩٠٢ وهي وقف لأسرة محمد علي، وهبها له السلطان مكافأة على حملته الوهابية - وثار سكان الجزيرة حين فرض عباس ضريبة عالية على المعز التي كانت تأكل كثيراً من شجيرات الزيتون وشكوا للسلطان ، فأصدر أمره باحتلال الجزيرة حفظاً للأمن ، وقد ساءت علاقة عباس بالسلطان من أجل ذلك حتى لقد التمس معونة إنكلترا . (راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ - ٤٠٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١ - ٥٦٢) .

(٣) ملخص المسألة أن الخديوي اتفق مع ثلاثة أحدهم سويسري على تأليف شركة لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحر الأحمر والتنقيب عن النحاس والمعادن في جزره وفي شبه جزيرة سيناء ، على أن يكون الربح مناصفة بينه وبين الشركاء ، وووجه عباس بمنافسة شركة إنكليزية له في الطور فلم يستطع الوفاء بعقد الشركة (راجع التفاصيل في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٦٦، ٦٧)

(٤) كانت الرتب تباع كالسلع وكانت لكل رتبة سعر معين وكان لها وسطاء معروفون ، وربما اعتدى بعضهم على البعض الآخر فنافسه في عملائه ، ولقد ترتب على ذلك أن الرتب منحت في بعض الأحيان لأشخاص محكوم عليهم في جرائم خلقية كالتزوير والاختلاس ، فأحدث ذلك ضجة وكان حديث الناس والصحف . وتدخل كرومر في الأمر مهدداً بسحب امتياز منح الرتب من الخديوي (مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٧ ، ٨ و ٤٣ - ٤٤) وراجع على سبيل المثال : مقالا للطفي السيد نشر بصحيفة (الجريدة) في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ عن (الرتب والنياشين) المنتخبات ص ٧٢

(٥) ملخص المسألة أن زورفاداكي اشترى من الحكومة حديقة الجيزة وسرايها وجزء من الأرض الزراعية التي أمامها على النيل. ثم اتفق مع عباس على أن يستبدل له أرض الوقف الواقعة بجوار الكوبري الأعمى بتفتيش الخديوي بمشتهر وكان الخديوي راغباً في إنفاذ الصفقة للتخلص من تفتيش مشتهر وليكون شريكا لزورفاداكي في الأرض التي تشترى من الوقف . ولذلك غالى في تقدير أرض مشتهر وبخس أرض الوقف . فلما عرضت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى عارضها محمد عبده وآزره حسن عاصم رئيس الديوان الخديوي مما كان سببا في غضب عباس عليه (مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٤٥ - ٤٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٢) .

وفى تفتيش المطاعنة سنة ١٩١٠[1] . وكان الذى يعنى الإنكليز من الأمر - إلى جانب تشويه سمعة عباس والتودد إلى الشعب - هو أن لا يتركوا فى يد عباس مصادر حرة للمال لا تخضع للرقابة يمكن أن يستغلها فى مناوأتهم . ولذلك كان الشيخ محمد عبده ، صديق كرومر ، أكثر الناس اصطداماً بعباس فى ديوان الأوقاف . وقد بلغ من كره عباس لمحمد عبده أن سخط على كل من اشترك فى رثائه أو تشييع جنازته[2] ومن الأمثلة على هـذا الشره فى جمع المال مساومته لإيطاليا على شراء سكة حديد مريوط التى كان قد أنشأهـا لإصلاح أراضيه الزراعية بغرب الإسكندرية ، وذلك فى مقابل إغرائه السنوسيين على وقف مقاومتهم للاستعمار الإيطالى سنة ١٩١٢ ، وإقالته لوزارة محمد سعيد سنة ١٩١٤ حين اشترت الحكومة هذا الخط بمبلغ لم يرض شرهه[3] . وقـد تدنى عباس فى جشعه إلى سفاسف الأمور ، حتى لقد فصل موظفا بسراى رأس التين لأنه رفض أن يرسل بقايا (مراتب) و (كراسى) إلى تكية المنتزه ، معتذراً بأن (المراتب) يمكن أن يقال إنها استهلكت وأدخل قطنها فى (التنجيد) ، أما الكراسى فهى (عهدة) ثابتة ولا يمكن إرسال شىء منها[4] .

ولم يكن شره عباس إلى السلطة بأقل من شرهه إلى المال . فلم يكد كرومر يرحل عن مصر ويحل محله جورست فهرضى شرهه إلى السلطة والمـال ويطلق

---

(١) ملخص المسألة أن الدائرة السنية باعت ٣٠٠٠ فدانا لمشترين ، قسطا باقى الثمن للبنك العقارى ، وتأخر عليهما قسطا سنتين ، فشرع البنك فى نزع الملكية وعند ذلك أوعز الخديوى لديوان الأوقاف بشرائها بالممارسة بأكثر من ضعفى ثمنها حتى لا تبخس فى المزاد الجبرى . وقد عارض أحمد شفيق الصفقة فنقل من الأوقاف وحل محله آخر مقابل رشوة ٥٠٠٠ جنيه وأنفذ الصفقة .

ثم تبين أن الصفقة تمت مقابل ستين ألف جنيه قدمت رشوة للخديوى . وقد علم كتشنر بالأمر فصمم على تحويل ديوان الأوقاف إلى وزارة (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٩٢ — ٢٩٨) .

(٢) وهذا هو السبب فى أن شوقى لم يرثه إلا بثلاث أبيات . ويراجع فى أمثال هذه الفضائح إلى ما سبق تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، عباس الثانى ٧٣ ، ٧٦ .

(٣) مذاكرتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٠٩ ، وراجع التفاصيل فى نفس المرجع ٢ ب : ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢

يده فى كل ما أشتهيه نفسه منهما ، حتى تنكر الحركة الوطنية وحارب رجالها وعدل عن تحمسه للمطالبين بالحياة النيابية ، لأنها أصبحت تقيد إرادته بعد أن كانت تقيد إرادة ممثل الاحتلال ، وهذا هو مصطفى فهمى الذى تلقى بسببه أول صفعة من الاحتلال ، لا يكاد يحتفى بعيد جلوس عباس ، فيقيم الزينات الفخمة أمام بيته ، حتى يرضى عنه ويقبل عليه ويستشيره فى كل صغيرة وكبيرة . ويروى أحمد شفيق عن استبداده قصصاً عجيبة . فهو يكلف أحد الموظفين ـ حين يغضب عليه ـ بالعمل فى نقل الفحم ، فإذا هرب والتحق بإحدى الشركات أمر بإعادته إلى القصر . وهو دائم السب والشتم لموظفيه . بل لقد يبالغ فى ذلك أن يضربهم بالسوط بيده(١) .

* * *

كان انحراف عباس سبباً فى تحول الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، مما دعا إلى زج الأحرار فى السجون .

أخذ مصطفى كامل يهاجم الحكومة وينتقد تصرفاتها واستسلامها للانجليز منذ سنة ١٩٠٤(٢) ، مما أغضب الخديوى . وانتهى بإعلان مصطفى كامل انفصاله عن القصر(٣) ، ولكن مصطفى كامل كان يتفادى الاصطدام بعباس ومهاجمته رغم ما شجر بينهما من خلاف ، حتى لا يتيح للانجليز فرصة للتدخل ، وكان يتخذ القصر وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية فى مقاومة الاحتلال(٤) .

وهذا هو ما عناه شوقى حين قال فى الذكرى السابعة عشرة لوفاته :

جمعتَ الناسَ حول العرش علماً ... بأن لمصر فى العرش اعتصاما
هو العَلَمُ الذى تفديه مصر ... ونحن الجُنْدُ فى العلم انتظاما

(١) المرجع نفسه ٢ ب : ١٣٢ و ١٤٣ و ١٥٢ .
(٢) راجع خطبة مصطفى كامل فى الاسكندرية : يونيو سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٧٤ - ١٥٠ .
(٣) اللواء عددا ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ - مصطفى كامل ص ٢٨٢ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ٥٩ ، ٦٠ (٤) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢، ٥٩٤

وكان عباس فى الوقت نفسه يحس أنه محتاج إلى مصطفى كامل ، لا يستطيع أن يجمع على نفسه بين عداوته وعداوة كرومر ممثل الاحتلال ، ولذلك ستكشف علاقة مصطفى كامل بعباس رغم انفصاله عنه . فلما خلفه محمد فريد ، شعر عباس بأنه يستطيع الاستغناء عنه بعد أن ساد الوفاق بينه وبين جورست ممثل الاحتلال . ورأى محمد فريد أن عباسا لم يعد مستعداً للمضى مع الشعب فى كفاح المحتل الغاصب ؛ بل لقد رآه يتساهل فى حقوق مصر ، حرصا على صلات الود الجديدة ، أو على سياسة الوفاق — كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت — وعند ذلك هاجم محمد فريد عباساً ، ورد عباس هـــذا الهجوم ، فأمعن فى اضطهاد الحركة الوطنية ، واستعان على ذلك ببعث قانون المطبوعات فى سنة ١٩٠٩ (وهو قانون كان قد صدر فى أيام الثورة العرابية سنة ١٨٨١) ، وسن قانون النفى الإدارى ، الذى يخول الحكومة حق نفى المصرى لمجرد الشبهة ، بحجة أنه خطر على الأمن العام(١) . وبذلك نجح ذلك الداهية الإنكليزى جورست ، وصرف جهود الشعب إلى محاربة الخديوى بدلا من محاربة المحتلين . ووقف الإنجليز موقف المتفرج ، يتدخلون للتوسط وحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك . وتحقق بذلك ما أوصى به اللورد دوفرين فى تقريره الذى وضعه فى السنة الأولى للاحتلال ، حين نصح بأن لا يتولى الإنكليز حكم مصر المباشر وإدارتها مقترحاً أن تحكم بأيد مصرية موالية للاحتلال ، حتى تقع أخطاء الحكم على رءوس المصريين أنفسهم(٢) وكان تصرف جورست صورة من المأساة الخالدة التى كررها الإنكليز فى كل مستعمراتهم على مر السنين ، يغرون الزعيم من الزعماء بالمال وبالجاه ، ثم يملون له حتى يتورط فى أخطاء تفقده ثقة الرأى العام . فإذا قضوا عليه نبذوه ، وظهروا أمام الشعوب بمظهر الغيورين على العدالة ، الذين يتدخلون للحد من جشعه واستغلاله(٣) . وذلك

---

(١) محمد فريد ص ١٠٠ و ١٠٦ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٧٣ ، ١٧٤ و ١٧٨ و ١٨٠ .

(٢) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ٢٣ .

(٣) راجع عباس الثانى ص ٧٣ .

هو ما حدث مع عباس ، أملوا له حتى تخلى عنه الشعب وأصبح وحيداً . ثم تنمروا له ، وبعثوا لمصر بعدوه اللدود كتشنر ممثلا للاحتلال ، يسومه الخسف ويذيقه الذل ويضيق عليه ، حتى لقد لزم قصره مفكراً في التنازل عن العرش .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الوطنيون يحاربون في جبهتين ، يحاربون الاحتلال ويحاربون في الوقت نفسه الخديوى وأذناب الاستعمار . وعرفت مصر مظاهرات الطلبة منذ سنة ١٩٠٦ . وبلغ من تحدى الطلبة للخديوى ، وكرهه إياه أن مر بنفر منهم في قهوة الشيشة ، وهو في طريقه لتوديع ولى عهد انكلترا الذى كان في زيارة مصر سنة ١٩٠٩ ، فظلوا جلوساً وقد وضع كل منهم ساقا على ساق ينظرون إليه دون اكتراث(١) . وأثار هذا الموقف الكاشف فقال يخاطب الطلبة ، وقد عز عليه أن يرى الخديوى محوطا بالحراس خشية اغتياله وهو الذى كان يتزعم الحركة الوطنية في الأمس القريب(٢) :

أرأيتم الحرّاس دون ركابه ... سداً فما يرنو إليه مسلمُ
قد يصبح الإنسانُ شيطاناً ولا ... يقع الذى ظنوا بكم وتوهّموا
هل نحن أمة قيصر أو جاره ... كسرى فيخشى أن يحيط به الدم ؟
أم بعد ما أمن الأعادى ليلة ... يأبى على الفُضلاء أن يتكلموا ؟!

وانضم الأزهر للحركة الوطنية، يندد مع المنددين بحكم الخديوى الاستبدادى وبحكم من يشد أزره من أعوان الاستبداد والاستعباد(٣) . وظهرت المنشورات الثورية التى تدعو إلى تأسيس جماعات سرية للاغتيال(٤) . ثم عرفت مصر أول حادث اغتيال سياسى سنة ١٩١٠ حين قتل الوردانى بطرس غالى رئيس الوزراء.

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٧٨ .

(٢) قصيدة الكاشف ، الطلبة والسياسة ، ديوانه ٢ : ٩٥ .

(٣) مصطفى كامل ١٦٢ - ١٦٤ ، محمد فريد ٧٧ ، ١٠٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، روتشتين ٣٥٠ .

(٤) وصلت إلى عباس خطابات تهديد ثم قبض على ثلاثة من الشبان بتهمة التآمر على الخديوى وعلى كتشنر وعلى محمد سعيد ، فزجوا فى السجن (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٦٥ ، ٢١٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠) .

وجهر المعارضون للخديوى بعدائه وتجرءوا عليه . فاستطاع سعد زغلول فى سنة ١٩٠٧ أن يضرب بيده المنضدة فى إحدى جلسات مجلس الوزراء وهو يقول — موجها الخطاب لعباس — « حينئذ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم هنا » كما استطاع أن يكسب إلى جانبه أغلبية المجلس ضد عباس فى مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى كان يعارضه وقتذاك(١) ورفض محمد فريد أن يقف عندما عزف السلام الخديوى فى حفلة لرعاية الأطفال أقيمت فى دار الأوبرا سنة ١٩١٢ ، وكان يشهدها مندوب من الخديوى(٢) . ونشر محمد عبده مقالا عنيفا فى صحيفة المنار سنة ١٩٠٢ يهاجم فيه محمد على ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية . وقد صور فى هذا المقال الجرىء كيف وصل محمد على الحكم ثم كيف احتفظ به . فقال :(٣)

« ما الذى صنع محمد على ؟ . . لم يستطع أن يُحيى ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه . ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا . حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهالى . وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ ، ٢٤٢ . ولمدرسة القضاء الشرعى قصة طويلة ليس هنا مجال تفصيلها . فقد أنشئت بإشارة من اللورد كرومر على نمط معين أعده وعهد إلى الشيخ محمد عبده باحتذائه (راجع تقرير كرومر السنوى عن سنة ١٩٠٥ فى الفقرة رقم ٩٨ تحت عنوان : The Mehkemeh Sheraieh المحكمة .

(٢) المرجع نفسه ٢ ب : ١٦٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٩ .

فى أنفى بعض أفرادها ، فلم يبق فى البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه . فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ، ليصير البلاد المصرية جميعاً إقطاعا واحداً له ولأولاده ، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة » . ثم يقول محمد عبده :

« إن محمد على قد ملأ مصر بالأجانب والدخلاء ، يستعين بهم على إقرار نفوذه وإذلال المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم ، يحكمون على هواهم ، لا هدف لهم إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير » .

ثم ينفى عنه ما ينسب إليه من إصلاح ، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة أو النخوة فى مصر ، مما ظهر أثره عند غزو الإنكليز لها ، فيقول :

« حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات . ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك .

يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع . ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ . . . وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟ . . . أين هم ؟ . . . ومن كانوا ؟ . . . وأين آثارهم ؟ . . . لا . . . بل بغض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم إليه .

يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك . وأنشأ

أسطولا ضخما تتثاقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار . فهل علمَّ المصريين حب التجند، وأنشأهم الرغبة فى الفتح والغلب ، وحبّب إليهم الخدمة فى الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ؟ ... لا ... بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك .. هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ؟ . وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه ، بأن يقول : « هـذا جيشى وأسطولى ، أو جيش بلدى وأسطوله ؟... » كلا .. لم يكن شىء من ذلك ، فقد كان المصرى يعدّ ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه ، فهى قوة خصمه .

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابى . دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم[1] . ثم استقروا ولم توجـد فى البلاد نخوة فى رأس ثابت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها . وهو ضـد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين فى مصر . وبهذا رأينا الفرق بين الحيـاة الأولى والموت الأخير ، وتجهيل الأحداثُ فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون إليه » .

وعند ذلك يبلغ محمد عبده قمة العنف والهياج ، وقد أوشك أن يختم مقاله ، فيقول :

« لا يستحى بعضُ الأحداث من أن يقولوا أن محمد على جعل من جدران سلطانه بنيةً من الدين . أى دين كان دعامة للسلطان محمد على ؟ . . . دين التحصيل ؟ . . . دين الكرباج ؟ ... دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ ... وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين

(١) الدامر : هو الذى يدخل على القوم بلا استئذان .

الإسلامي الجليل »[1] .

* * *

وظهر أثر هذا الانحراف عن عباس واضحاً في الشعر . فأصبحنا نرى الشعراء الذين كانوا يمدحونه بالأمس ينتقدون سياسته ؛ منهم من يبلغ في ذلك حد الهجاء العنيف الذي يعرض صاحبه للسجن ، ومنهم من يرفق في ذلك إشفاقاً على وحدة الأمة ، أو خوفاً من الاضطهاد ، فلا يتجاوز فيا يقول العتاب الرقيق .

هذا هو على الغاياتي شاعر الحزب الوطني ، يعرّض بالخديوي الذي يحارب الأحرار والذي يعارض إرادة الشعب المطالب بالدستور ، وذلك في مقدمة ديوانه (وطنيتي) منتهزاً الفرصة المناسبة في كلامه عن لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت فيقول[2] :

« وكان ملك فرنسا في ذلك الحين (لويس السادس عشر) مستسلماً لإرادة حاشيته الظالمة ، وزوجته المستبدة المسرفة (ماري أنطوانيت) ... وقد كانت حمقاء عدوة للإصلاح والإنصاف ، وكانت تحتقر الشعب الفرنسي الكريم وتعامله معاملة يأباها الحر وتعافها النفس الشريفة . وهي التي دفعت زوجها إلى مصادرة الأحرار والوقوف في وجوههم . فلما اشتدت الأزمة وحمى وطيس الثورة كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيرة ، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الجرارة المنتصرة الملوكية ، بل كان التغلب للأمة ، والنصر العزيز لفرنسا الحرة ...

---

(١) راجع كذلك تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٨٣ وفيه تلخيص المقال الذي هاجم فيه رشيد رضا محمد علي ، وهو سابق على مقال محمد عبده . والواقع أنا لا نستطيع أن نعتبر هذين المقالين صدى لسخط الرأي العام في ذلك الوقت . فقد كان الخديوي لا يزال يتمتع بعطف الرأي العام وبتأييد الحزب الوطني وقتذاك . ولكن محمد عبده كان صديقاً لكرومر ، وكان يستمد منه القوة والتأييد حين يهاجم الخديوي . ولعل هذه الحقيقة تقلل من تقدير الجرأة التي ينطوي عليها هذا المقال .

(٢) وطنيتي ص ٢٥ ، ٢٦ ، وكذلك كان أكثر الناس — ولا يزالون — يتمثلون بالثورة الفرنسية وبأقوال رجالها . لأنهم يجهلون أصابع اليهودية العالمية الخفية التي اشتركت فيها ، بل التي حركتها وأثارتها .

ودالت دولة الطغيان ، وكذلك عاقبة الظالمين ... لم تتدبر هذه المملكة الظالمة فى أمرها ، وسارت فى الأمة سيرة الملوك المطلقين والحكام المستبدين ، فقابلت إحسان الرعية بالكفران، مستعزة بسلطان الملك ، مضللة بشياطين الملوك . وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق — كما يرى بعض الحكام فى هذه العصور — فاستحقت غضب الشعب . ويا ويل الحكومة من غضب الشعب . وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار » .

ثم يعقب الغاياتى فى مقدمة ديوانه على نشيد المارسليز بقوله(1) :

« إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبيل العسف ، فتحت من حيث لا تدرى للأمة أبواب الحرية الواسعة . وهدتها طرق السعادة المنشودة ، والضغط لا محالة محدث الانفجار . فطوبى لأمة تقوضت فى ديارها دعائم العدل ، ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياه . فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة ، فما رأت غير ظلم وظلام ، يأخذ أموالها الحاكم المستبد بإحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى ، فهو يجيعها ليشبع ، ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ، ثم يسد فى وجهها مناهل العلم ، لتنفسح أمامه مناهج الظلم . حتى إذا ما رفعت رأساً أثقلته المظالم ، أو فتحت عيناً أغمضتها رؤية الظالم ، أو شكت وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها ، ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ، ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملته ، ويرتفع بين الأمة صوت الأباة ، مردداً قول أبى العلاء :

مُلَّ المقـــامُ ، فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها !!
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحهـــا وهم أجراؤها

« هنالك تشرق شمس الانتقام ، وتأخذ الشعب نشوة الانتصار ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن يوم الظالمين يوم عصيب ، هنالك يغير الله حالا

(1) المرجع نفسه ص ٣٣ — ٣٥ .

بعد حال ، وتستوى الأمة على عرشها ، تدير دفة الحكم بيدها ، وتسير القضاء العدلى بإرادتها . هنالك ينادى منادى الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مدو فى أرجاء البلاد أن (لا ظلم اليوم ... لا ظلم اليوم) .

ويختم مقدمة ديوانه بهذه الكلمات الثائرة (١) .

« إن الحرية ليست منحة ولا هبة ملك أو أمير ، بل هى حق طبيعى للشعوب ، متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدى مغتصبيه ، وقدمت فى سبيله النفس والنفيس . فهؤلاء الذى يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة ، وينتقمون للوطن منهم ثم ينالون الموت من يد ظالمة وهم فى سبيل جهادهم سائرون ، أولئك الذين رضى الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة » (٢) .

وها هو ذا يتحدث عن خضوع الخديوى وحكومته لإرادة المحتلين ويستحث الشعب على الجهاد لاستخلاص حقوقه ، فيقول (٣) :

وعداة ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب فى حق ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العدا منهم مراما
رَبِّ ! ! ماذا يصنع المصرىُّ إن	جاوز الصبر مدى الصدر فقاما !؟
طال يوم الظلم فى مصر ، ولم	ندرِ بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتلُّ أنّا أمة	مذ عرفنا السلم لا ندرى الخصاما؟
أو يرى الظالم فينا أننا	نحمل الخسف ولا نبغى انتقاما؟

وها هو ذا يهاجم شوقى عباس ، حين نشر له (المؤيد) فى سنة ١٩٠٨ حديثاً يعتذر فيه عن إصدار الدستور بأن عباساً لا يستطيع أن يمنحه بغير رضاء

(١) وطنيتى ص ٤١

(٢) يشير الغاياتى إلى الوردانى الذى قتل بطرس غالى رئيس الوزراء ثم حكم القضاء بإعدامه . ويراجع فى ذلك قصيدتان للشاعر فى ديوانه ص ١٠٩ ، ١١٥

(٣) وطنيتى ص ٤٥

الإنكليز ، ويقول : « إن الأمة لم تبلغ من النضج ما يؤهلها الحياة النيابية ». يقول الغاياتى (١) :

يا شاعر الأمراء ويحك ، هل ترى ... فى النثر ما فى النظم من خطرات ؟
إنى رأيتك فى حديثك شاعراً ... لكن خيالك زائغُ النظرات
ياشاعر النيل العظيم ! . . أما ترى ... للنيل إلا أسوأ الحالات ؟
ما كنت أحسب أن مثلك وهو فى ... شعراء مصر صاحب الآيات
يجنى على الشعب الكريم جناية ... ويود أن يبقى مع الأموات ! !
أو أنت تروى عن سواك حديثه ... كيما نرى الدستور ليس بآت ؟
والله يعلم أننا لا ننثنى ... يوم ولا نلهو عن الطلبات
حتى نفوز ببغيتنا رغم العدا ... وتنبِّه العزمات للهمات

وتصل مهاجمة الغاياتى عباساً إلى قمة العنف عند صدور قانون المطبوعات ، إذ يقول مشيراً إلى ما لقيت الأمة على يدى عباس من نكال ، بعد أن تحول إلى مهادنة الإنكليز ، منزلقاً إلى ما سماه (سياسة الوفاق) (٢) :

عبَّاسُ ! هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخشَ منا بعد ذلكَ عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ... فنال إذا رمنا الحياة عقاباً ؟ !
أرضيت أعداء البلاد وأهلها ... وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدكَ يا عباس . لا تبلغ المدى ... ولا تستمع للظالمين خطابا
فإيبتغى جورمتُ إلا مكيدةً ... تحوِّل أقلامَ السلام حرابا

ثم يتجه إلى مهاجمة بطرس غالى ، الذى ولى الوزارة بأمر المحتلين ، ويذكره بماضيه فى دنشواى ، مهدداً بأنه لن يبلغ ما يريد حتى يلقى جزاءه :

ألا قطّرَ الله الوزارة نقمة ... ولا بلغتَ عما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ... ولكن ستلقى دون ذاك أثاما (٣)

---

(١) وطنيتى ص ٥٨ (٢) وطنيتى ص٦٩
(٣) الأثام (بفتح الهمزة) جزاء الإثم .

وزارة خداع ، أقامته بيننا يد الحاكين الآثمين فقاما
جنى ما جنى فى دنشواى وغيرها ولم يكفه جنى استحل حراما
فقيّد أقلام الصحافة علمها إذا أبصرت سوءاً له تتعامى
بنى مصر ! بصرى فالرجاء محقق ومن عدم الأقوال رام فعالا
فإنى لمت النصر بين صفوفكم وأبصرت عقبى الظالمين وبالا

وديوان محرّم ملىء بالقصائد التى حاول بها الشاعر أن يردّ عباسا إلى صوابه ويعيده إلى الإخلاص لشعبه ووطنه . منها ما يستغنى بالتلميح عن التصريح ، فيتكلم عن صفات الملك الصالح ومعايب الملك الفاسد . ومنها ما يهاجم فى عنف ، فيصف الملوك بالكذب والنفاق وإفساد الحياة .

يقول محرم فى صفة الملك الصالح(١) :

أحبّ المالكين إلى الرعايا مليك ليس يألوها افتقادا
تغلغل فى مكان الحسّ منها فكان السمع فيها والفؤادا

ثم يقول فى تصوير الملك الفاسد :

أضرّ الناس ذو تاج تولّى فما نفع البلاد ولا أفادا
وكان على الرعية شرّ راع وأشأم مالك فى الدهر سادا
تسيت له الأريكة فى عناء تمارس منه أهوالا شدادا
كأن الملك فى عينيه حلم يلذ به فما يألو رقادا
وتدعوه الرعية وهو لاه فتصدع دون مسمعه الجمادا
فلا هو يرتجى يوماً لنفع يعود به الرعية والبلادا
ولا هو مالك كشفاً لضرٍ إذا ما كائد الحدثان كادا

ثم يتخلص من ذلك إلى مخاطبة عباس ، طالبا منه أن يأخذ بيد الرعية ، ويوحد صفوفها المتفرقة ، ويقودها فى كفاحها ، متسائلا : ألا يرضيك أن تكون ملكا على شعب عزيز ؟ . .

(١) ديوان محرم ٢ : ٥٣ - ٥٦ .

عزيزَ النيل ! والآمالُ تجرى تسائلك الهـداية والرشادا
أضىءْ قصْدَ السبيل لنا والـمّف أوابدها(١) ، فتوشك أن تمادى
وقدها قوْدَ مأمونٍ عليها يصاديها بأحسنَ ما تصادى
إيهٍ يا عزيزَ النيـلِ إيه أما ترضى لحكمك أن يشادا ؟ ...
وللشعب المصفد أن تراه وقد زرع الآدامِ والصِّفاد ؟ ...
... ألست ترى بنيها فى شقاق فما يرجون ما عاشوا اتحادا ؟ ...
أتتركهم يهب الشر فيهم ونارُ الخطب تتقد اتقادا ؟ ...

ويشير محرم فى قصيدة أخرى إلى فساد الشعب تبعاً لفساد الملوك حيث يقول (٢) :

رأيتُ الشعبَ - والأمثال جم - على ما كان مالكه يكون
وما تبقى الممالكُ لاهيات تصرّفها الخلاعة والمجونُ
إذا غوت الهداة فلا رشدُ وإن خان الرعاة فلا أمينُ
واعجبَ ما أرى : شعب نحيف يسوسُ قطيعه راعٍ بدينُ !!!

يهاجم الملوك ، وينسبهم إلى الظلم ومجافاة العدل حيث يقول(٣) :

أرى العدل دعوى يُعجبُ الناس حسنها
ويخدعهم عنها الحديثُ الملفق
أكاذيب يُزجيها الفتى وهو عالم إذا ما ادّعاها أنه ليس يصدق
فشا الظلم بين الناس واعتز أهله وبات ضعيف القوم يؤذَى ويرهق
خليقاً من الأعوان يُغصبُ حقه فيغضى، ويرمى بالهوان فيُطرق
... رأيتُ ملوكَ الناس لا ينصفونهم
وخير الملوك المنصف المترفق

---

(١) الأوابد من الوحوش : الشاردة النافرة .

(٢) ديوان محرم ٢ : ٥٧ .

(٣) ديوان محرم ٢ : ٨٦ .

يقيمون صرح الظلم فى كل أمة — إذا ملكوا ، والعدلُ بالملك أخلقُ

ويلتهب شعر محرم بالثورة حين يهاجم قانون المطبوعات فيقول (١) :

صبوا المداد وحطموا الأقلاما — واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما
وخذوا على الوجدان كلّ ثنيّةٍ — وافضوا الحيـاة مؤمّلين نياما
..يا مصرُ!... ماذا تطلبين؟..أما كفى — أن تصبحى للعاديات طعاما ...
موتى فمـا موت الذليل بضائر — وكفى بآلام الحيـاة حماما
من ذا يرد عليك عهدكِ صالحا — ويعيد صوتك عاليا يترامى ؟...
قنـا بنصركِ والخناق مضيّق — والنفس مُرهَقَةٌ أذى وعُرَاما
... أتخون مصر ، وما تحوّل نيلها — عنها وما انقلب الضياء ظلاما ؟...
نبغى لهـا الشرف الأشمّ مؤيّداً — بالعلم يونسُ صرحَه الهداما
ونعيز رايتها ونمنع حوضها — ونزيد صادق حبها استحكاما
أيسوس ريبُ الدهـر منا أمة — تبغى حياةَ المجد أم أنعاما ؟...

ويهاجم عباسا فى عنف ، متهماً الملوك بالكذب ومجافاة الشرف مشهراً إلى فضائح بيع الرتب والنياشين حيث يقول (٢) :

كذب الملوك ومن يحاول عندهم — شرفاً ويزعم أنهم شرفاء
رتب وألقاب تذرّ . وما بها — فخر لمحرزها ولا استعلاء
آناً تباع ، وتارة هى خدعة — تُلهى بشرّ سماتها الأمراء
كم رتبـةٍ نعم الغبى بنيلها — من حيث تُحِلّها أذى وشقاء
لو كان يعلم ذلهـا وهوانهـا — ما طال منه الزهوُ والخيلاءُ
... لا المجدُ مجد بعد ما عبثت به — أيدى الملوك ولا السناءُ سناءُ
مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا — ما شاءت الأوهامُ والأهواء
رفعوا الطغامَ على الكرام فأشكلت — قيمُ الرجال ورابت الأشياء

---

(١) ديوان محرم ٢ : ٤٧ — ٤٨

(٢) ديوان محرم ١ : ١٥٠

وإذا الرعاة تنكبت سبل الهدى غوت الهداة وطاشت الحكماء
لو جاور الشرف الملوك لأورقت صم الصخور وضاءت الظلماء
الحق منتهك المحارم بينهم والعدل وهم والوفاء هباء
رفعوا العروش على الدماء ، وإنما تبقى السفينة ما أقام الماء

أما الكاشف ، فهو يتقدم إلى عباس فى قصيدة أنشأها فى عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ناصحاً له فى رفق أن يعيد إلى شعبه الدستور الذى أصدره أبوه ، حتى ينكشف موقف الإنكليز ، ويعرف الناس أنهم هم المعارضون (١) :

يا تابع الأجداد والآباء فى حكم البلاد أعد صنيع أبيكا
وامنح رعيتك الذى سألوكه وعلى الطغاة الإثم إن منعوكا (٢)
ماذا عليك إذا انتزعت أمورها منهم ، وشاطرك الأمور بنوكا ؟ ...
هذى نفوسهموا لديك رهينة ولو استطاعوا غيرها منحوكا
لا يسألونك مدفعاً وصوارماً هم يسألونك آية من فيكا
لك فى الخليفة أسوة محمودة ولنتبعن سبيله المسلوكا (٣)

ثم هو يحذره من سياسة الوفاق الخبيثة التى جاء بها جورست ليفرق بها بينه وبين شعبه . فهو اليوم يشكو إليه الأحرار من شعبه ليبغضهم إليه ، ثم هو فى غد يشكوه إليهم حتى يكرهوه . وهو ينصحه بأن يستبقى ود شعبه ويحرص على تأييده فهو عدته وقوته (٤) :

أهلاً وسهلاً بالوفاق ومرحبا لو كان فيه قضاء ما وعدوكا
إن كان مشترط الجلاء فواجب لك أن تودهمو كما ودوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من أن يعلنوا لك موثقاً مفكوكا

---

(١) ديوان الكاشف ٢ : ٤٨ — ٥٠ .
(٢) يقصد بالطغاة الانكليز الذين كان يتعلل عباس بمعارضتهم الحياة النيابية .
(٣) يشير إلى الدستور التركى الذى كان قد صدر فى هذا العام .
(٤) ديوان الكاشف ٢ : ٤١ .

ما كان حوباً ما ترى ، لكنه … كتمُ المُخاتل سرَّه المهتوكا
أرأيته كيف وشى بكل مهذّب … حرٍّ فكان الأفك المأفوكا
اليوم يشكونا إليك وما بنا … غير الوفاء ، وفي غد يشكوكا
أعييَ على أوهامه ووعيده … هذا المِراس . فقام يستصفيكا
ماذا ترى في قادرين يسوؤهم … أنا نحن وأنتما نرجوكا
حسبوا الرعية - وهي عند يقينها - … ترضى العوازل فيك أم حسبوكا ؟...
وعليك يجني ، أم على أعدائه … من لا يرى لك في البلاد شريكا؟...
لم يبق غيرك للبلاد وأهلها … فاحرص على تأييد مستبقيكا
لك من يقينك والتجارب عاصم … للمخلصين يقيهم ويقيكا
يا حبذا يومُ الجلاء ، ولا ترى … جنداً يصول ، ولا دما مسفوكا
هذي خواطري الحسان وغيرتي … أرأيتني أغريكا أم أوصيكا ؟...
لا راقني عيد بمصرَ وعرسهم … حتى يعودَ محرراً واديكا

ويحذره في قصيدة أخرى قالها سنة ١٩٠٩ مما تنطوي عليه سياسة الوفاق الكاذبة من أخطار ، وينصح له أن يعلن رضاه وعفوه عن ضحايا قانون المطبوعات . حيث يقول(١) :

صدقوا رجال الملك أم كذبوهم ؟ … ووفاء صحب أم رياء دهاة ؟(٢)
أيؤيدون مصاولا بحسامه … ويعادون منادياً بشكاة ؟...
لم يعملون على البقاء ؟ ... وما لهم … غفلوا عن الميعاد والميقات ؟ ...
أمن الذنوب شكاة مصرك بعدما … ملكوا أعنة أمرها سنوات ؟ ...
عدّوا على أحرارها أنفاسهم … وترقبوا اللحظات والخطرات
إن ينقموا منها مراس غلاتها … فالعجز أن تبقى بغير غلاة(٣)

---

(١) ديوان الكاشف ٣ : ٥٦ .
(٢) الضمير في « صدقوا » عائد على الإنكليز .
(٣) يقصد بالغلاة : رجال الحزب الوطني الذين كانوا يتهمون بالتطرف .

أرأيتها في المهرجان ، وقد خلت من حلية الأتراب والأخوات(١)
أعلن رضاك عن الأباة ، فإنه فصل الخطاب وفرجة الأزمات

وهذا هو عبد الحليم المصري الذي يملأ مدح عباس ديوانه ، يقسو عليه في العتاب ، في قصيدة رفعها إليه سنة ١٩٠٨ على لسان الأمة المصرية ، مطالباً بالدستور ، يحذره فيها من معاداة الشعب وتجاهل مطالبه ، ويضرب له الأمثال بمظفر الدين شاه العجم ، الذي خلعه شعبه حين ألغى الدستور الذي أصدره أبوه ، بعد أن وعده قبل جلوسه أن يرعاه حانثا بقسمه الذي أقسمه أمام أبيه ، وبالثورة المراكشية التي انتهت بخلع عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ . ثم هو يذكر عباساً بحديثه الذي أدلى به إلى صحيفة (الطان) ، ووعد فيه بإصدار الدستور(٢) . ويقول له إننا شعب مسالم ، لا نتوسل إلى ما نطالب بالثورات . فهل لا يشفع لنا ذلك عندك ، إذ نطالب الدستور بالخطابة والكلام ، حين يطلبه غيرنا بالدماء ؟ :

رد الوديعة ، لا مالاً ولا شاناً … لم نرج في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يدا … من الرجاء ، ولم نسألك غفرانا
رب الأريكة ! إنا لا نزال على … وثيق عهدك أحداثاً وأعوانا
لا يفصم الدهر حبلاً من مودتنا … ولا تشاب بماء البؤس نعمانا
إن الحياة لدار نحن نسكنها … وحاش لله أن نشقى بسكنانا
الناس تخلق أحراراً ، فكيف بنا … نرضى المقام بوادي النيل عبدانا ؟! ..
مظفر الدين هل أغمضت عينك عن … منابت الشعب ، أم أوقرت آذانا ؟! ...
حتى ترى الدم حول العرش منهمراً … وتبصر القوم فتاكاً وطغانا

(١) يشير إلى ما قوبل به عيد جلوسه الأخير من فتور .

(٢) ديوان عبد الحليم المصري ١ : ٥٨ وراجع كذلك إشارته إلى الدستور في قصيدة العام الهجري سنة ١٩١٠ و ١٩١١ م وإشارته إلى اضطهاد الصحافة والأحرار في قصيدتة « المساجين » و « الحرية » في ديوانه ١ : ٥٦ و ١١٩ و ١٠٨ - ١١٢ و ٧١ - ٧٤ .

وتسائل القسم المبرور ، هل حنثت فيه الأعاجم . أم ظنته بهتانا (١) ؟
قد قام شبلك بالإفتاء يهدم ما شيدت العدل أركانا وجدرانا
فأجرت القوم يماً من دمائهم يكاد يعشى عن الأبصار (طهرانا)
وعلمت من رآها كيف ترخص فى حب الدساتير أرواحا وأبدانا
إن قام بالملك مولاى (الحفيظ) ولم يقم له الدهر فوق العرش أركانا
وحرر الشعب من ذل الضعيف إلى عز القوى وأمضى فيه سلطانا
فكيف لم تولنا مثل (الحفيظ) يداً وأنت أكرم أنساباً وأوطانا ؟ . . .

هلا أدركت الوعود السالفات ، وهل
نسيت بالأمس ما أسمعته (الطليانا) ؟...

ما نال فى الغرب أقوام مآربهم إلا وسالت دماء القوم ألوانا
ونحن فى الشرق لم تنض السيوف ولا نرى بنهج اليراع الحر فرسانا

فكيف لا يشفع الصبر الجميل لنا
عند (الأمير) ولا ترضيه شكوانا ؟..

يا لفظة منك فى الآذان نرقبها كأن آذاننا أصبحن أجفانا
ثنى لنا فى الدياجى مثلما وثبت لترك أختك ، إن الوقت قد حانا

* * *

كان عباس يكره الإنكليز فى أعماق نفسه ، وكانت علاقته بهم سيئة طوال مدة حكمه ، إذا استثنينا السنوات الأربع التى تخللتها ، من تعيين الدون جورست معتمداً بريطانياً سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩١١ وتعيين اللورد كتشنر خلفاً له (٢)
وسواء كان كره عباس للإنكليز بدافع عن وطنيته على رأى الذين يحسنون

(١) كان مظفر الدين قد أقسم لأبيه قبل جلوسه على العرش أن لا يسترد الدستور فلما مات أبوه حنث بقسمه وألغاه .

(٢) وبتعيين اللورد كتشنر عدو عباس القديم فى حادثة الحدود انتهت الفترة التى يسمونها فترة الوفاق ، وعاد الخلاف بين عباس والإنجليز إلى حدته الأولى التى اتسم بها مدة إقامة كرومر فى مصر .

به الظن ، أو بدافع من منازعتهم إياه سلطته - على رأى الذين يسيئون به الظن - فالحقيقة الثابتة هى أنه لم يطمئن للإنكليز ولم يطمئن الإنكليز إليه ، ولم يتوانوا فى التخلص منه حين سنحت لهم الفرصة بإعلان الحرب العالمية الأولى أثناء رحلته إلى تركيا سنة ١٩١٤ . وقد جاهر عباس الإنجليز بعدائه وحاربهم حرباً صريحة فى بداية حكمه، ثم أخفى هذا الكره ، وظل يدس لهم فى الظلام، مسدلا حجاباً من البراعة والرصانة على كرهه المتناهى لهم ، كما يقول كرومر(١) . ولكن النزاع بينه وبينهم لم يفتر ولم ينقطع فى المدتين . بل ظلت فى مصر سلطتان قائمتان تتنازعان النفوذ : سلطة الخديوى وسلطة المعتمد البريطانى ، أو السلطة الشرعية والسلطة الفعلية كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين ، وكما يقول الكاشف (٢) :

أيسود شعب ليس منه رعاته ... فهما وإن طال المدى ضدان
يأبى ويشفق أن يصرف أمره ... ويسوسه حكمان مختلفان
أيهم بالأمر الكبير وَليُّه ... يوماً وليس له عليه يدان (٣)

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة فى جمع الأنصار واكتساب الأعوان . وقد نجح عباس فى السنوات الأولى لحكمه فى بث حركة وطنية إسلامية تزعمها مصطفى كامل والشيخ على يوسف . واستطاع أن يضم إلى صفه عدداً من ضباط الجيش وكثرة من الموظفين . ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الإنجليز ، منذ اضطره كرومر إلى الاعتذار لكتشنر سنة ١٨٩٦ ، ثم اضطره بعد ذلك إلى التخلى عن الضباط الذين حوكموا عندما تمردت فرقتان من الجيش المصرى فى السودان سنة ١٩٠٠(٤) . وخسر عباس الحزب الوطنى

---

(١) عباس الثانى ص ٤ ويصفه كرومر فى موضع آخر من الكتاب بأنه كان أستاذاً فى فن الدسائس الحقيرة ص ٨ .

(٢) ديوان الكاشف ٢ : ٤٢

(٣) ولى الأمر : هو الخديوى الحاكم الشرعى وقتذاك .

(٤) علم كرومر أن عباس هو الذى حرض الضباط على الثورة . فتجاهل الأمر وذهب إليه مقترحا أن يقابل الضباط المحكوم عليهم ويوبخهم بكلمات اختارها له. فلم يجد عباس بداً من قبول عرض كرومر حتى لا تلتصق عليه تهمة تحريض الضباط وبذلك فقد الضباط ثقتهم فيه ، وفقد هو نفوذه وهيبته
=

بعد ذلك منذ لوح له جورست بالسلطة ، ونجح فى إفساد ما بينه وبين رجاله الذين كانوا يطالبون وقتذاك بالحياة النيابية ، فانقلب إلى محاربتهم والتنكيل بهم .

وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء ، كان الإنكليز يجدون فى اصطناع الأصدقاء والأولياء ، ويسرعون إلى احتضان كل خصم له وللسلطان عبد الحميد ، مظهرين أنفسهم فى صورة المدافعين عن الحرية والعدل ، المقاومين للظلم والطغيان . وساعدهم على ذلك انتشار روح الخضوع والاستسلام عقب الاتفاق الودى بين فرنسا وانكلترا سنة ١٩٠٤ ، مما أدى إلى تفشى اليأس والنفعية(١) .

استطاع الإنكليز أن يكسبوا إلى جانبهم العمد والمشايخ، بتأييدهم فى التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك ، وبحرصهم على تخفيف ضرائب الأملاك ، ولو أدى ذلك إلى شل المشروعات الضرورية فى شتى نواحى الحياة(٢) . استطاعوا أن يشتروا نفراً من رجال الجيش ، فكانوا يمنحون بعضهم (مداليات) تخول حاملها الحق فى أخذ راتب شهرى من الخزينة الإنكليزية فوق مرتباتهم ، وذلك على سبيل المكافأة والتشجيع لما يظهرون من ضروب الشجاعة فى القتال أثناء حملة السودان التى لم يتحمس لها الرأى المصرى العام . ونجح كرومر فى عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين ، مثل شيخ الأزهر والمفتى ومشايخ الطرق ، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبي وبحرص عباس والسلطان على اصطفائهم وتقريبهم

= فى أوساطهم (راجع عباس الثانى ص ٨٢ ، وراجع كذلك تصوير حافظ إبراهيم لاستبداد الإنكليز فى الجيش ومكايدهم لإفساده وإضعافه ، والتفريق بين المصريين والسودانيين ، وما انتهى إليه أمر الضباط المصريين من رهبة الانكليز والرضوخ لهم، وقصة تمرد الفرقتين المصريتين فى السودان : « ليالى سطيح ص٧٩ ، ١١٢ » وراجع كذلك مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٦) .

(١) مصطفى كامل ص١٠٨ ، ١٠٩ و١٤٢ ، ١٤٣ . تاريخ الإمام ١ : ٩٢٣-٩٢٤

(٢) يقول كرومر فى ذلك : « إن الرابطة الوحيدة التى تربط الحاكم بالمحكوم عند ما تختلف اللغة والجنسية والمذهب والعادات تنحصر فى المصالح المادية . وبين هذه المصالح وأهمها جعل ضرائب الأملاك خفيفة . لذلك أرى أن الأحوال السياسية التى علينا مقابلتها والعمل فيها هى من نوع يجعل كل الاعتبارات تزول فى جانب ضرورة إبقاء الضرائب منخفضة ... إلخ » (راجع عباس الثانى ص ١٥ ، ١٧ وقارن ذلك بما جاء فى ص ٥٧ عن العمد والمشايخ) .

والاستعانة بنفوذهم[1] . واحتضن محمد عبده حين اصطدم بعباس ، حتى أصبح هو سنده فى كل ما استهدفه من مشاريع تطوير الأزهر وإنشاء مدرسة للقضاء الشرعى[2] كما احتضن اللاجئين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة ، وشجعهم على تشويه سمعة الحكم التركى ونبش سيئات عبد الحميد والتشنيع باستبداده ، متظاهراً بأنه يفعل ذلك دفاعا عن الحرية[3] . وفتح كرومر أبواب قصره لكل صاحب شكوى ، ثم أخذ يتدخل باسم هؤلاء الشاكين ، وباسم العدل والإنصاف . للحد من نفوذ الخديوى ومقاومة شرهه وجشعه[4] ، حتى رأينا بعض أعضاء الأسرة العلوية يلجأون إلى إنكلترا وإليه ، طالبين إنصافهم من عباس[5] .

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلا أدبياً . فكان لعباس صحيفة رسمية تعبر عن اتجاهاته وتدافع عنه وتهاجم أعداءه ، هى صحيفة المؤيد . وكان للإنجليز صحيفة رسمية أيضاً تدافع عنهم وتهاجم أعداءهم، هى صحيفة المقطم.

---

(1) Modern Egypt ٢ : ١٧٤ - ١٨٥ .

(٢) بلغ من ثقة محمد عبده به واعتماده عليه أنه حين عزم على زيارة الأستانة سنة ١٩٠١ لم ينفذ عزمه إلا بعد استشارته . فحمله توصية إلى السفارة الانجليزية فى تركيا لرعايته وحمايته مدة إقامته بها وكان كرومر هو الذى توسط فى العفو عن محمد عبده وإعادته إلى مصر (مذكراتى فى نصف قرن ٢: ٣٧٩ ، تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٨١٧ ، Modern Egypt هامش ٢ : ١٨٠ - ١٨١) .

(٣) راجع ضبط مطبعة تركيا الفتاة فى مصر وتفتيش دارهم وتدخل كرومر لحمايتهم فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٥ ، عباس الثانى ص ٨٠ راجع كذلك تدخل كرومر فى : « حبس عباس ليون فهمى الأرمنى وتهديده بتفتيش القصر فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٩٨ ، تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٧٩ ، عباس الثانى ص ٧٩، ٨٨ وراجع كذلك قصة بدرخان الذى لجأ إلى مصر فاراً من عبد الحيد وحماية الإنجليز له وغضبهم من إلحاح عباس فى حمله على العودة لتركيا فى «عباس الثانى ص ٨٠ ، ٨١ » .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٣ ، ٥٤ .

(٥) من الأمثلة على ذلك أن المحاكم الشرعية أصدرت حكما بالحجر على إحدى الأميرات وعينت عليها وصيا اختاره عباس ، فشكت الأميرة إلى ملك انكلترا ، وأحال شكواها إلى كرومر فتدخل فى الأمر واستبدل بالوصى الذى اختاره عباس وصيا آخر موثوقا به من إنكلترا ، (مذكراتى فى نصف قرن ٣ : ٢٢٤) ومن الأمثلة عليه كذلك أن أميرة أخرى شكت إلى ملك الانكليز من عباس أثناء زيارته له سنة ١٩٠٥ ، فوجه كرومر إلى عباس نقدا قاسيا فى شأنها بعد عودته (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ب ٧٠ ، ٧١) .

وكان للخديوى شاعر رسمى يشيد به وهو « شوقى » ، تؤيده طائفة من الشعراء . وكان للانجليز شاعر نصب نفسه لمدحهم والاشادة بهم وهو « نسيم »(١) تؤيده قلة من الكتاب والشعراء الذين يدينون بكيانهم لهم مثل ولى الدين يكن .

وكان شاعر الخديوى يرصد المناسبات المختلفة ليسجلها فى شعره مادحا أميره فى أعياد جلوسه وفى أعياد ميلاده ، وفى أعياد الفطر ، وأعياد الأضحى ، وأعياد الهجرة ، وفى أسفاره داخل البلاد ، وفى أسفاره للأستانة ، وفى سفره للحج ، وفى حفلاته الراقصة التى كان يقيمها فى عابدين كل عام . وكان شعره السياسى متأثراً بتقلبات أميره صراحة وغموضا ، وعنفاً ولينا . فهو فى أول حكم عباس صريح فى مهاجمة الإنكليز فى مثل قصيدته :

بصوتك هاجمنا الممالك والقصرا وقلنا فبات مصر فى جدها مصرا (٢)

فإذا تراجع عباس أمام كرومر تراجع هو أيضاً ، ولم يعد يهاجم إلا فى كثير من الغموض والالتواء الذى لا يدع لمناقشته ومحاسبته سبيلا وذلك فى مثل قصيدته التى قالها سنة ١٩٠٢ ، حين أجل حفل تتويج إدوارالسابع بسبب إصابته بدمل(٣) ويسكت فى حادث دنشواى الذى أقام الدنيا وأقعدها ، فلا يتكلم إلا بعد رحيل كرومر وقد مر على الحادث عام (٤) . ولا تذهب جرأته إلى أبعد من مهاجمة المتوددين إلى الإنكليز من المصريين ، كالذى فعله برياض حين أشاد بكرومر فى

(١) عدل نسيم عن موقفه بعد رحيل كرومر عن مصر ، وأعلن ندمه على مافرط منه فى قصيدة نشرها باللواء سنة ١٩٠٨ ، الديوان ١ : ٣ - ٦) زاعما أنه فعل ذلك غيرة على الإسلام لمهاجمة كرومر له . والواقع أن شعر الشاعر يشهد بأنه محترف يجرى وراء المال ويبيع نفسه لن يدفع ثمنا أكبر . ثم إنه لم يجد مجالا القول بعد أن ساد الوئام بين جورست خليفة كرومر وبين عباس .

(٢) ديوان شوقى : طبعة سنة ١٩١٢ص ٨٣ .

(٣) راجع قصيدة شوقى : لمن ذلك الملك الذى عز جانبه . لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه (الديوان ١ : ٧٥)

(٤) راجع قصيدة شوقى : يا دنشواى على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام (الديوان ١ : ٣٠١)

حفل افتتاح مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية سنة ١٩٠٤(١) . فإذا أمن عباس مكر كرومر بعد رحيله هاجمه شوقى مهاجمة عنيفة فى قصيدته :

أيامكم أم عهد إسماعيلا ؟ . . . أم أنت فرعون يسوس النيلا ؟(٢)

ويسكت شوقى عندما أطمأنت صلة عباس بالإنجليز فى فترة الوفاق ، فإذا عادت إلى الكدر ، وأخذ عباس يكيد فى الخفاء ، أخذ هو يلتمس المناسبات التى يشير فيها من بعيد إلى الاستعمار حين يتحدث عن قانون الغابة الذى يسود العالم ، وحين يحث المصريين والمسلمين على الأخذ بأسباب القوة ، فى مثل قصيدته عن قصر أنس الوجود ، التى وجهها إلى روزفلت الكبير حين زار مصر سنة ١٩١٠ ، وفى مثل قصيدته عن (الحجاب والسفور) ، وقصيدته فى نهج البردة ، اللتين نشرتا فى العام نفسه ، والهمزية النبوية التى نشرت سنة ١٩١٢ ، والبائية فى ذكرى المولد التى نشرت سنة ١٩١٤(٣) .

وكان شاعر كرومر ينتهز كل فرصة تمكنه من مدح الإنجليز والإشادة بعدلهم وفضلهم على مصر فيبالغ فى ذلك المدح . أليس عجيبا أن نجد شاعراً مصريا يضله المال ، فيقول للملك الانكليزى بمناسبة شفائه من داء الأمور(٤) :

صاحب التاج أنت بالقوم أعلم   هم يودون أن تعيش وتسلم

يشيد فيها بعدله ، معرضا بعباس حيث يقول :

وعيناً لولاك عاث طغاة   فى بلاد من جورهم تتظلم
فأمن الجور من بلادك لما   طيب العدل فى ذراك وخيم

ثم يجد فى نفسه الجرأة لأن يقول :

إننا نعرف الملوك ولكن   إن عددناهم فأنت المقدم

---

(١) راجع قصيدة شوقى : كبير السابقين من الكرام ، برغمى أن أنالك بالملام (الديوان ١ : ٢٥٩)   (٢) راجع القصيدة فى (الديوان ١ : ٢٠٩)
(٣) راجع القصائد السابقة فى ديوانه ٢ : ٦٥ ، ١ : ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٥٩
(٤) ديوان نسيم ١ : ١٠٠ — ١٠٢

ليس إلا إياك مولى مفـدّى ﴿ يبدأ القول في ثناه ويختم
وإذا قيل : أين أعظم منه ؟ ﴿ لم تجد - التقى - سوى الله أعظم

ثم يختم قصيدته مفتخراً بأنه السابق المقدّم بين مادحيه :

تبعتني إلى مديحك ناس ﴿ إنما الفضل للذى يتقدم
أنا فى مصر شاعر قيل عنه ﴿ ساجع فيك بالثناء ترنم

ويرثى هذا الشاعر الملكة فكتوريا سنة ١٩٠٨ ، فيختم قصيدته بتهنئة ابنها والتعريض بعباس وبكل مصرى تجرى فى دمه قطرة من وطنية حين يقول(١) :

رأيتك فى الورى ملكا وحيدا ﴿ وليس لها سواك بلا ارتياب
فخذ من شاعر النيل امتداحا ﴿ يثير حفائظ القوم الغضاب

ثم يطاوع هذا العاق لسانه إذ يقول فى قصيدة يهنىء بها ملك الإنكليز فى تتويجه إمبراطوراً للهند(٢) :

يا قوم مصر ، ولم أنظر لكم أثراً ﴿ إذا المعالى دعت قومى دواعيها
أتفخرون بآثار لغيركم ﴿ الظلم شيّدها والدهر يبليها ؟...
إلام تبغون ملكا عن جانبه ﴿ وتبلغون من الدعوى تناهيها ؟...
وتفخرون بما « خوفو » بنى لكم ﴿ وتمدحون من الأهرام بانيها ؟...
فأى فخر لكم فيما نشاهده ﴿ يا أمة نسيت فى الذل ماضيها ؟...

ويقول مشيداً بالاحتلال ، فى وضع الحجر الأساسى لخزان أسوان سنة ١٨٩٩ ناسباً فخره للانكليز(٣) :

أمة المجد شيدتك بقطر ﴿ بلغت فى احتلاله الأوطارا
وأحق الأقوام بالمدح قوم ﴿ ركبوا فى سبيلها الأخطارا
فخليق لمثل مصر بأن تعـ ﴿ ـجب حتى تفاخر الأمصارا

(١) ديوان نسيم ١ : ١٠٣ .
(٢) ديوان نسيم ١ : ١٠٨ .
(٣) ديوان نسيم ١ : ١١٠ .

ثم يقول في افتتاحه سنة ١٩٠٣ الذي شهده « الدوق أوف كنوت » زوج أخت الملك إدوارد ، معرضا بعباس الذي تخلف عن حضور الحفل ، خشية أن تمس كرامته بوضع الدوق في موضع الصدارة :

بناء عظيم لم يعد لافتتاحه سواك عظيما فيه الفخر مألف
وكم من دعي فارق الصدر عبرة إذا حضر المستأذن المتنصف(١)

وحين كانت مصر في عيد يوم رحيل كرومر كان هذا البائس الهالك يذرف الدمع على فراقه فيقول (٢) :

يا منقذ النيل لا ينسى لك النيل يدا لها من فم الإصلاح تقبيل

وحين يقول له شوقي ، مشيرا إلى أن تنحيته جاءت نتيجة حملة مصطفى كامل عليه بسبب دنشواى :

فاذهب بحفظ الله جل صنيعه مستعفيا إن شئت أو معزولا

يقول نسيم في هذه القصيدة :

حاشاك ما أنت بالمغصوب منصبه كلا ، ولا أنت عن علياك معزول

وحين يعدد الشعراء سيئاته ، يرد إليه نسيم كل الفضل فيما ساد مصر من عدل وما بلغته من رقى :

جعلت مصر بلادا أمطرت ذهبا فتربها بمذاب التبر مبلول
خلفتها وبك الإسعاد تكنفها دار عليها من النعمى سرابيل
حللت فيها وغل الجور مقعدها ذلا ، وفارقتها والجور مغلول

ويهاجم رجال الحزب الوطني ، زاعما أنهم يهولون في غير موضع التهويل :

أرى أناسا تمنوا في سياستهم أن يخذلوك وخصم الحق مخذول
يهولون بلا جدوى مواضعهم ولن يضرك إيهام وتهويل

---

(١) ديوان نسيم ١ : ١٣٠ : المستأذن الذي لا يدخل الناس إلى مجلسه إلا بإذنه . المتنصف المخدوم . والمقصود بهما هو الدوق ، كما أن المقصود بالدعي هو الخديوي عباس . (٢) ديوان نسيم ١ : ١١٤ - ١١٥ .

لو كان بالناس عدل ما قضى عمر ... رب العدالة فيهم وهو مقتول
صرنا نخاف على الأعراض من نفر ... كأن جرمهم في نهشها غول
قد جردوا السنا يا ليتها قطعت ... من دونها مرهف الحدين مسلول(١)

أما ولى الدين يكن فقد كان أحد أعضاء جماعة (تركيا الفتاة)، الذين يهاجمون عبد الحميد ويشنعون به ويزعمون حركة المطالبة بإصدار الدستور. وقد نفاه السلطان عبد الحميد إلى سيواس، وظل في منفاه سبع سنوات. ولم يخرج منه إلا بعد سقوط عبد الحميد وإعلان الدستور سنة ١٩٠٩. وقد عانى خلال هذه السنوات هو وأمه العجوز وزوجته الشابة وطفلاه الصغيران - وكان أصغرهما رضيعاً - من العذاب والآلام ما وصفه في كتابه (المعلوم والمجهول بجزأيه)، وكان كثير من جماعة تركيا الفتاة قد فروا إلى مصر من مطاردة عبد الحميد فاتخذوها مركزاً من مراكز دعايتهم المنبثة خارج الدولة العثمانية، وأصدروا فيها بعض الصحف والمنشورات التي تشنع بفساد حكمه واستبداده. وكان عباس يغطى عنهم ويشجعهم حين تسوء صلته بالسلطان عبد الحميد، ويشدد عليهم حين يريد أن يتقرب إليه باضطهادهم. وكان كرومر هو الذي يتولى حمايتهم حين يتخلى عنهم عباس ويمكر بهم، لذلك كان أعضاء تركيا الفتاة يدينون له بالولاء، ويشيدون بعدله، بينما كان كرومر يستخدمهم في تحقيق أهداف السياسة الإنجليزية التي تريد أن تقضى على الجامعة الإسلامية وتقطع الإمبراطورية العثمانية. وقد وجدت بغيتها في هذا النفر الذي يشنع بسيئات عبد الحميد، ويدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية، ويهاجم من يسمونهم رجال الدين ويتهمونهم بأنهم سبب البلاء وموطن الداء، بل ويهاجم الدين نفسه ساخراً بقيمه وشعائره، مستبدلا

---

(١) راجع فيما عدا القصائد السابقة قصائده: في نور العدل ١ : ٦ - ٨ وتتويج ملك الإنجليز، ١ : ١٨، لزلزلة التهانى، بقدوم ولى عهد إنكلترا سنة ١٩٠١ ، ١ : ٨٩، وراجع كذلك قصائده الكثيرة في هجاء الشيخ على يوسف بمناسبة زواجه من بنت الشيخ عبد الخالق السادات: وهى قصائد مقذعة كان مدفوعا إليها بولائه لكرومر وولاء الشيخ على يوسف لعباس.

بها القيم التى كان يدعو إليها المتحررون من اللادينيين فى أوروبا (Liberals) وكان ولى الدين يكن من أشد أنصار تركيا الفتاة تقديراً لكرومر ، حتى لقد صدّر الجزء الاول من كتابه (المعلوم والمجهول) بصورته ، وكتب تحتها « مصلح مصر » وقد انتهى به اعترافه بفضل كرومر إلى تأييد الاحتلال . وكان من بين ما كتبه فى ذلك مقال نشر فى المقطم عنوانه (المحتلون يخرجون من مصر) (١) وهو يتصور فى مقاله الآثار التى تترتب على خروجهم فيروى حلماً رأى فيه جيش الاحتلال يخرج من مصر ، ثم رأى تمثال إبراهيم ينزل إلى الميدان ليمنعه من الخروج ، مستحلفاً الإنكليز أن يمكثوا ليقيموا العدل وليكفوا الرعاع عن الإفساد . وقد بدأ ولى الدين يكن قصته بقوله :

« ... فرأيت فيما يرى النائم كأنى أسير إلى ميدان عابدين .. فلما وافيت مدخل الميدان مما يلى الشارع الآخذ من ميدان الأوبرا إذا جموع من الجنود المحتلة ، تتقدمها موسيقاها ، ويقودها قوادها مشاة وفرساناً ، تخفق بينها الأعلام البريطانية التى أظلت الأمن والعدل بمصر فى أكثر من ربع قرن . وبأطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة ، يتوسطها بعض تلامذة المدارس ، وآخرون جملة أعرف بعضهم كلما حاق بهم نظرى . فالتفت إلى وسط الميدان ، فإذا العلم البريطانى وإلى جانبه العلم العثمانى ، يصل بينهما رباط أخضر إشارة إلى الود والاتحاد ، وإلى أمام العلمين منبر ذو درجات أعد ليخطب عليه من لا أعرفه » .

فإذا بلغ من حلمه الذى تخيله خطبة الجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال قال:

« فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر ، وخطب الحاضرين فقال :

« نحن الآن يتنازع قلوبنا عاملان، واحد للفرح وآخر للحزن، فأما عامل الفرح فبأن أثمرت مساعينا لإصلاح مصر حتى تستطيع أن تعيش وحدها . وأما عامل

---

(١) الصحائف السود ص ٤٥ — ٥١ .

النوع فبأن سنودع وادى النيل وأبناءه بعد أن طاب لنا المقام واستحكمت فى قلوبنا الألفة » .

ثم هو يصـــور انتهار المفسدين وما يدبرون من تخريب بعد رحيل جيش الاحتلال فيقول :

« فإذا شرذمات من أهل الضوضاء وسكان الأعشاش ، وقد عصبوا رءوسهم بمناديل حمر وبأيديهم العصى ، تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار الشنبر ، له شارب أسود يخاله على البعد راثيه غمد خنجر ، وعلى رأسه طربوش أعوج . وإلى جانبه آخر مثله ، ولكنه منتفخ البطن كـ « البرنية (١) » ، وفى يده شىء يشبه به لم أتبينه جيداً ، وأحسبه سوطا . وأمام العربة بين هؤلاء الجموع رجل أســـود الشاربين طويل القامة ، معمم مكمم ، يحمل على كتفه مشملة مغطاة بكوفية(٢) من كوفيات المحلة الكبرى ، وقد جمع أيما جماح . فكان ينظر يمنة ويسرة ، ويصيح بملء فيه قائلا : (ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى) . فتأملته فإذا هو أحد مشاهير الكتاب والخطباء ، عزيز القدر بين أشياعه ، فتركته وحبله على غاربه ، وقلت أنظر إلى غيره . فسمعت واحد من فى العربة يقول لجماعة من الماشين : إذا ركب الجنود القطار ، وسار بهم حتى غاب عن الأبصار ، تذهبون من ساعتكم فى جماعة من الشذاذ إلى إدارة كذا ، فتهدمونها على من فيها ، ثم تفعلون ذلك بإدارة كذا ، ثم استعلموا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذى يسمى نفسه زهيراً(٣) . فجعلوا فى عنقه حبلا وجروه على وجهه، ثم ألقوا به فى النيل » .

ويختم مقاله الذى يروى فيه هذا الحلم المزعوم بخطاب إبراهيم بن محمد على ، إذ يناشد المحتلين البقاء فيقول فيما يقول :

---

(١) البرنية : كلمة يستعملها العامة فى مصر يطلقونها على إناء فخارى صغير منبعج البطن يستخدم فى حفظ الأطعمة السائلة .

(٢) الكوفية فى العامية المصرية : ملفحة صغيرة تحيط بالرقبة .

(٣) يقصد نفسه ، و (زهير) هو الاسم المستعار الذى كان يذيل به مقالاته فى المقطم .

« . . . حتى صار ما صار (١) ، وحمى الحمى بهذه البواتر ، ونامت الأعين فى امن هاته الأعلام ، وتريدون اليوم أن تخرجوا من مصر ، ليصبح عاليها سافلها ، وليجرى هذا النيل أحمر قانيا ؟ . . . كلا . . . ثم كلا . لاصيحن صيحه تخرق حجب الأزل ، وتنفذ إلى من ولجوا غابته ، ولا يمشى لكم من تحت المقابر أجساداً تسد دونكم طريق الرحيل . اما والهرمين والنيل ، ليدخلن أهل الطيش غداً على العذارى فى خدورهن ، وليأخذن بغدائرهن ، وليقومن بعد زماعكم من الشر أضعاف ما أتى بعقابكم من الخير . ارجعوا إلى ثكناتكم ماجورين غير مأزورين إنما يأنس إليكم أهل الوقار وانصار الفضل » .

ويوجه ولى الدين يكن خطابه فى مقال آخر إلى والى البصرة العثمانى فيقول(٢) :

« يزعمون أنك تبغض الإنكليز . أبغضهم ما شئت ، وأحببهم ما شئت ، لسنا على فؤادك مسيطرين . ولكن الوالى العثمانى يحب من تحب دولته ، ودولتك تحب الإنكليز ، والإنكليز يحبونها .

« يزعمون أنك تقول إن الهند ومصر شريكتان فى الشقاء ، وإنهما يتململان من ظلم الإنكليز ، ولكنك تعرف أن فى الظلم ضروبا لايجارينا إليها الإنكليز ، وأن القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم ، وأن فضلهم على هذا القطر أعظم من فتح الشوارع وإقامة التماثيل ، وان لهم عندنا — معشر العثمانيين — جميلا لا ينساه من فى فؤاده مثقال ذرة من المروءة . وربما كان من أبناء التاميز أفراد لا يحبون العثمانيين ، فليكن فى العثمانيين أناس يبغضون أبناء التاميز . غير أن والى البصرة يجب أن لا يكون إلا وفيا عارفا بمرامى الكلام » .

ويعترف ولى الدين يكن بجميل إنكلترا على من يسميهم (الأحرار) من أعضاء

(١) يشير إلى الثورة العرابية .

(٢) الصحائف السود ص ٧٩ .

تركيا الفتاة في رثائه لإدوار السابع سنة ١٩١٠ ، حيث يقول(١) :

أيها الأحرار لا ينساك حر شبابهمو يُجلك والكهول
رفعتَ بنامهم وجريتَ معهم كذاك الليث يتبعــه الشبول
تنــاديك الشعوب بكل أرض فليتك سامع ماذا تقول ؟ !..
تناجي منــك حاميها المرجي وصولتها إذا قامت تصول ...

* * *

وكان للاستعمار - إلى جانب هذه البطانة التي اتخذها من المصريين . أعوان آخرون من الشآميين ومن الأرمن النازحين إلى مصر والمنبثين في الوظائف الحكومية في مختلف النواحي والفروع . أما الشآميون — وقد كانت كثرتهم من المسيحيين — فيرجع نفوذ جاليتهم ونشاطها في مصر إلى حكم إسماعيل ، حين أراد أن ينشر الحضارة الأوروبية ، فاحتاج إلى موظفين يتقنون الفرنسية إلى جانب العربية — وكانت الفرنسية وقتذاك لغة دولية — فلم يجد بغيته في المصريين ، إذ كان أصحاب الثقافة الأوروبية منهم قلة لا تكفي ، فاتجه إلى الشآميين الذين كان مسيحيوهم أسبق من المسلمين إلى الالتحاق بالمدارس الفرنسية والأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، يستخدمهم في مختلف المصالح الحكومية ، ثم ساعد الرعيل الأول منهم إخوانهم ومواطنيهم على الرحلة إلى مصر . ومهدوا لهم احتلال مراكز حكومية فيها(٢) وكان طبيعياً أن لا يشارك هؤلاء الشآميون المصريين في إحساسهم الوطني . فإنما هم مرتزقة لا يبالون إلا الغنم ، يجرون وراءه حيث كان ، ويحققون لأنفسهم منه أوفر نصيب ، لا يعنيهم في ذلك أن يرضى المصريون أو يغضبوا ، وإنما يعنيهم أن يرضى صاحب السلطة الذي يجرى رزقهم على يديه . هذا إلى أن فساد الحكم التركي وغلوه في اضطهادهم وتحقيرهم قد ولد فيهم حقداً على الترك خاصة ، وعلى المسلمين عامة . لذلك لم يجد الانجليز حين احتلوا مصر خيراً منهم معيناً ونصيراً .

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٦٣ — ٦٤ .
(٢) Modern Egypt ٢ : ٣١٤ — ٣١٥ .

فاتخذوا منهم صاحب المقطم والمقتطف ليكون لسانهم الناطق . وتدخلوا لحمايتهم حين هم رياض باشا أن يصدر قانوناً يحرم عليهم فيه الالتحاق بالوظائف الحكومية في سنة ١٩٠٠(١) . وقد أثنى عليهم كرومر ، واعترف بما أدوا للانجليز من خدمات ، وما بذلوا لهم من معونة صادقة . وخص المسيحيين منهم بثنائه ، فقال : « إنهم أهم كثيراً من مسلميهم من وجهة النظر السياسية(٢) » .

أما الأرمن فيرجع نفوذ جاليتهم إلى حكم محمد علي . فقد كانوا يشغلون منذ ذلك الوقت مناصب رئيسية خطيرة في الدولة ، جعلت لهم كلمة نافذة مسموعة في كل ما يتصل بشئون مصر ، حتى لقد استطاع أحدهم فيما بعد أن يصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً للوزارة ، وأن يمكن لزوج ابنته من بعده حتى يصل إلى وزارة الخارجية(٣) ، وقد قص مصطفى كامل في خطاب له بعث به إلى أحمد شفيق باشا ما جرى بينه وبين الاميرالاى بارنج (شقيق اللورد كرومر) من حديث خلال إحدى أسفاره إلى فرنسا للدعاية لمصر ، ومن هذا الحديث نستطيع أن نتبين مدى اعتماد الإنجليز على نوبار باشا في تنفيذ سياستهم في مصر وفي السودان ، وما كان يطمع فيه نوبار من مكافأة الإنجليز له على إخلاصه ، بالعمل على استقلال أرمينيا وإنشاء وطن سياسي لبني جنسه(٤) .

ذلك تأويل ما نجده في أدب هذه الحقبة من التعريض بالدخلاء .

يقول مصطفى كامل في خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦(٥) :

« وإذا كان صالح مصر يقضي كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم جاهرين بإحساساتهم ، مطالبين

---

(١) مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢١٦ .

(٢) Modern Egypt ٢ : ٢١٣ - ٢١٩ .

(٣) Modern Egypt ٢ : ٢١٩ - ٢٢١ .

(٤) مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٢ - ١٩٥

(٥) مصر والاحتلال الإنجليزي مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو ١٨٩٦ ص ١٤١ ، ١٤٩ .

بحرية بلادهم . فوجود خطباء مثلهم فى مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ، ويحذرونها من الوقوع فى الشر ، أصبح أمراً حتما ، خصوصاً فى هذا الزمن الذى يعمل فيه الدخلاء للتفريق بين الوطنيين وبعضهم ، والشقاق بين المصريين والأوربيين، ويكيدون للأمة أعظم كيد ، ويدسون الدسائس لخلق القلاقل وإحداث الاضطرابات .

أجل أيها السادة... أجل . . إن تحذير الأمة من أعمال الدخلاء صار واجبا على كل مصرى شريف الإحساس ، مخلص النية لبلاده . وما نبلاء المصريين بجاهلين طغمة الدخلاء ، بل الكل يعرفها ، والكل إذا لقيها يشير إليها ، فلتحبطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعى هذه الفئة السيئة ، ولتردوها على أعقابهم خاسرين.. فالدخيل الدخيل ... هو العدو الحقيق ، وهو العدو الألد ، الذى تجب محاربته بالقلم واللسان ، حتى تعرفه الأمة وتنبذه ، وتجتنبه كل الاجتناب . ولا يسلم شعب راغب فى الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية إلا إذا اتحدت أفــــراده ، ومنعوا الدخيل من إلقاء بذور الفتن ، والتفريق بينهم وبين بعضهم مما يكون وراءه ضياع بلادهم وضياعهم هم أنفسهم » .

ويقول عبـــد الله النديم فى مقال نشر فى مجلة الأستاذ فى عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ :

« أنا أخوك... فلم أنكرتنى ؟... ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الإثنين ما ساء أحدهما . فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون فى جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم فى مصر؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية فى صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟... أبراتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ؟ ... أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا فى خدمة الأجنبى لنعينه على إخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجنى على غير جان ؟ بئس والله ما وصلتنا إليه هذه الخزعبلات التى نسميها معارف وآدابا . زرعنا الأحقاد فى قلوبنا بغيا وعدوانا . وأهلكنا أنفسنا بالعداوة فى غير

مصلحة جهلاً وحماقة ... فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهة منا وجنونا... ومنا هيأنا الأجنبى بلا ثمن خبلاً وبلاهة ، ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت سرائرنا وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنين وإعلاء كلمة الجنسين ، لحسدتنا المعالى ، ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال . ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا ، لينتفع الغير بنادم اصطلاء وطبخا واستعمالا فيما يشاء . والعهد قريب ، والعود غير عسير .

وا أسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان لا يفرق بينهم دخيل ، ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبى ، فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم ، وحالفوا غيرهم ، وخدموا الأجنبى بمساعدته على التداخل فى بلادهم ، بل على الاستيلاء عليها . لا لعداوة بين الأمتين ، ولا لحرب جرت فى الوطنين ، بل برغيف يحصله الزبال ، وخرقة يملكها الشحاذ . وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم ، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين . فإن الأجنبى يغر الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه ، ثم يلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ، ولا يعرف له حقا غير خدمته ، ولا يفرق بينه وبين من غايره دينا فى الاستخدام والاستعباد » (١)

وصور حافظ إبراهيم ما كان يقوم بين المصريين وبين هـذه الطائفة من الشآميين ، من الكراهية المتبادلة وسوء الظن ؛ حيث يقول مصوراً شكاة الشآمى(٢) :

جلست أبعد النيل شكاتى من أبنائه . وأنت تعلم أنهم صارمونا على غير ريبة ،

(١) وقد خصص عبد الله النديم عدداً كاملا من مجلته (الأستاذ) لمواجهة أصحاب (المقطم) ومن يذهب مذهبهم من أبناء جنسهم . وكان بالغ العنف فى مواجهته . ولم يمض على مقاله هـذا شهر واحد حتى أرغم الرجل الوطنى الذى لم يفتر عن الكفاح ولم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا على إغلاق صحيفته والهجرة عن مصر (العدد ٢٩ من الأستاذ الصادر فى ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣) .

(٢) ليالى سطيح ص ١٩ - ٢٢ . وهو يشير فى هذا الموضع من كتابه إلى أن المسيحيين من الشآميين هم المقصودون بهذا الذم بنوع خاص . ويعلل تفوقهم وتخلف المسلمين من الشآميين بانصراف الفريق الآخر عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية .

وقاطعونا على غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ، ولم يراعوا حق الجوار ، فسموا إقدامنا قحة ، ونشاطنا جشعاً ، وكدحنا وراء الرزق فضولاً ، ونزوحنا عن الوطن عاراً ، وضربنا في الأرض شروداً . وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد الله ؟! ... اللهم إنها محاسن عدّوها عيوباً ، وحسنات صيّروها ذنوباً » .

ثم يقول مصوراً شكاة المصريين على لسان سطيح :

« إنني لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم ، فهو ذلك عليهم من أقرب الناس إليهم ، نزلتم بلادهم فنزلتم رحباً وتفيأتم ظلالها فأصبتم خصباً ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلاً ، وحللتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلاً . ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم وداً صحيحاً وإخلاصاً صريحاً . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب فسددتم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تجاوزون ستة الآلاف عداً . فأصبحتم اليوم وقد نيّفتم على الثلاثين »[1] .

وقد وسع النثر في مهاجمة هذا الفريق من مسيحي الشآميين الذين أيدوا الاستعمار في مصر ما لم يسع الشعر . لأن الشعراء خافوا إن هم تعرضوا للشآميين جملة أن يسيئوا إلى المخلصين منهم أو يفسدوا الرابطة الشرقية التي كانت ناشئة في ذلك الوقت . وخافوا إن هم أشاروا إلى المسيحيين منهم أن يثيروا فتنة دينية تفرق بين المصريين . ولذلك اكتفوا بالإشارات العابرة في مثل قول حافظ ، إذ يصور جدهم وخمول المصريين ، الذين يتبرمون بما أصاب هؤلاء من رزق ،

---

(١) يقول كرومر : إن أهمية الشآميين - ومن الواضح أن كلامه هنا ينطبق على المسيحيين منهم - لا ترجع إلى ضخامة جاليتهم . ولكنها ترجع إلى المراكز التي يشغلونها ، فمعظمهم موظفون في الحكومة . وفي كل قرية مصرية تجد مرابيا ، إذا لم يكن يونانيا فهو شآمي : فالشآميون يحتلون في مصر المكان الذي يحتله اليهود في الدول الأوروبية . فهم مكروهون من المصريين - مسلمين وقبطاً - لأنهم يستأثرون دونهم بالوظائف من ناحية ولأنهم دائنون من ناحية أخرى ، وعلاقة الدائن بالمدين يسودها البغض في أكثر الأحيان (Modern Egypt) ٢ : ٢١٣-٢١٤)

وقد قعدوا عن منافستهم فى مختلف الميادين . وذلك من قصيدة له فى زواج الشيخ على يوسف سنة ١٩٠٤(١) :

وقالوا : دخيل عليه العفـاء ونعم الدخيـل على مذهبي
رآنا نيـاما ولما نُفِق فشمّر للسعى والمكسب
وماذا عليـه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمـول ويا ليتنا ألفنـا الخمول ولم نكذب

ويقول فى قصيدة ألقاها فى حفل أقامه له جماعة من السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ ، بعد أن وصف نشاط الشآميين الموفق فى مصر وفى أمريكا(٢) :

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسَها العربُ
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُب
لولا رجال تغالوا فى سياستهم منا ومنهم لما لُمنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لى ذنباً فى مودتهم فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

ويقول على الغاياتى فى كتبها بمناسبة حبس الشيخ عبد العزيز جاويش فى المقال الذى كتبه عن ذكرى دنشواى فى صحيفة اللواء سنة ١٩٠٩ (٣) :

وغدا (الدخيل) مروعا أركانه تتهـدّم
يرجو النجاة ولا سبيـل ويستبين فيُحجم
ويمـد صوت ندائه نحو (العميد) فيجحم
ذاق الوبالَ بما جنـاه ولم يفـده الدرهم
فاندك صرح كان فيـه للخيانة مغنم
وكذاك شأن المجرميـنَ يصيبهم ما أجرموا

(١) ديوان حافظ إبراهيم ١ : ٢٥٧ .
(٢) ديوان حافظ ١ : ٢٦٩ — ٢٧١ .
(٣) وطنيتى ص ٨٠ وهو يقصد (بالدخيل) صاحب (المقطم) .

ويقول نسيم : (١)

اتقوا الله يا غواة قليلا ... واخلعوا العار عنكمُ والشنارا
تنسبون المصرى للعار جهلا ... وهو أسمى من العُقاب مزارا
جئتمُ داره ضيوفاً عراة ... فكساكم من الثراء دثارا
أيها المشترى بمجدك حظا ... هجوك القوم قابل استنكارا
نمق النثر فى مقاصد تهدى ... ألف حمد الورى عليك نثارا

* * *

وبين هاتين الطائفتين من الكتاب والشعراء ، التى تؤيد إحداهما السلطة الشرعية ممثلة فى الخديوى ، وتؤيد أخراهما السلطة الفعلية ممثلة فى قنصل بريطانيا العام ، كانت هناك طائفة ثالثة تتردد بين المعسكرين ، تحاول أن تحتفظ بصداقتهما معاً ، وترجو أن لا يخطئها الخير والبر من أحدهما . وتخشى إن هى أعطت كل نفسها لأحدهما أن تبتلى بعداوة الآخر وأذاه . وهؤلاء هم ضعاف النفوس من المسالمين الذين لا يصبرون لكفاح ولا يستطيعون تجشم أعبائه وتبعاته ، وطلاب النفع الذين لا يرون الحياة إلا طعاما يملأ البطون ، وكساء يختال على الأبدان ، ومتعاً تملأ حياتهم الفارغة التافهة .

وكان حافظ إبراهيم واحداً من هؤلاء المسالمين من طلاب العيش . وكأنما كان يعنى نفسه بالبيت الأخير من قوله فى تبكيت المصريين : (٢)

وشعب يفر من الصالحات ... فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب ... وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ... ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين ... على غير قصد ولا مأرب

---

(١) ديوان نسيم ١ : ٤٨ (٢) ديوان حافظ ١ : ٢٥٦

فقد ظل هذا المسكين متذأحيل إلى الاستيداع فيمن حوكموا من المتهمين فى حادث تمرد فرقتى الجيش المصرى بالسودان سنة ١٩٠٠ يدير وجهه إلى عباس تارة ، وإلى السلطان عبد الحميد تارة أخرى . . . فإذا استيقنت نفسه قلة حيلتهما وقصر باعهما انصرف إلى الإنكليز ، وقوى صلاته بالشيخ محمد عبده صديق كرومر وعدو عباس ، ولم يترك رجلا ذا سلطة يؤمل أن يجرى خيره على يديه إلا قصده . وهو فى كل حالاته يتملق ويستعطف . مؤملا ان يصيبه الخير آخر الأمر من إحدى هذه السلطات . وقد تتخلل سكراته صحوات يتشبه فيها بالثائرين فى مثل حادث دنشواى أو توديع كرومر . ولكن الحرص والخوف يمنعان ثورته من الانطلاق ، ويقيدانها بأغلال يتم عنها شعره . فهو فى الأولى يضع إنجلترا موضع الأب الذى يظن بابنه العقوق إذ يقول (١) :

لا تظنوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

وهو يشعر شعوراً عميقاً بضعفه أمامهم ، وليس هذا شأن الثائرين :

كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟
إنها مُثلة تشف عن الغيـ ـظ ، ولسنا لغيظكم أندادا

وهو فى الأخرى يروى ما يقول الناس من حسنات كرومر وسيئاته ، بل ويقدم الحسنات على السيئات ، ثم يقول آخر الأمر إنه شاعر لا رأى له (٢) :

فهذا حديث الناس والناس ألسُن إذا قال هــذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم لسجلت لى رأيا وُبلغت مقصــدا
ولكننى فى معرض القول شاعر أضاف إلى التـاريخ قولا مخلدا

وكأنما كان حافظ يصف نفسه ، حين صور ما يسيطر على رجال الجيش من رهبة الإنجليز فقال (٣) :

---

(١) ديوان حافظ ٢ : ٢٠ (٢) ديوان حافظ ٢ : ٣٠
(٣) ليالى سطيح ص ١١٠

« ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة، فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ويمنعه نعمة التنفس فى جو يتنفس الانجليزى فيه . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر .

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام ، فالمم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم ؛ فلقد سقاهم ساقى السياسة الانجليزية كوسا من منقوع الرعب ، فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث . حتى إذا صدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى . وهو على حفظ أمره أحرص من الفنوغراف على حفظ الصوت .

« الأمم إن العيش مع الأبيضين وإن أبردا العظام ، أروح للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ، فيروقك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء » .

« فليت سيوفهم كانت عصياً وليت نجومهم كانت رجوما »

مدح حافظ عباسا سنة ١٩٠١ بقصيدتين ، إحداهما فى عيد الفطر ، والأخرى فى عيد جلوسه(١) ، وهنأ السلطان عبد الحميد فى العام نفسه بعيد جلوسه ، متقربا إليه بمهاجمة حزب تركيا الفتاة(٢) . ثم لم يلبث أن انصرف إلى تهنئة إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه ، فإذا كل بيت من أبيات قصيدته ينطق بما يملأ قلبه

---

(١) ديوان حافظ ١ : ١١ و ١٣ .
(٢) ديوان حافظ ١ : ١٥ .

من رهبة الإنكليز ، يبدأ قصيدته بقوله[1] :

لمحت فى مصر ذاك التاج والقمرا فقلت للشعر هذا يوم من شعرا

ثم يصور قوة إنكلترا القاهرة إذ يقول :

من ذا يناويك والأقدار جارية بما تشائين ، والدنيا لمن قهرا
إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم وإن كشرت لنا عن نابه كشرا

ويخرجه الخوف عن وقاره وكرامته حين يقول :

اليوم يلثم تاج الهنـــد محتشما رأساً يدبر ملكا يكلأ البشرا
يصرف الأمر من مصر إلى عدن فالهند فالكاب حتى يعبر الجورا

بل إنه ليدعو الله أن ينصر جنده فى الآفاق إذ يقول :

إدواردُ دُمت ودام الملك فى رغد ودام جندك فى الآفاق منتصرا

ويقرنه فى عدله بعمر بن الخطاب إذ يقول :

يذكرونك إن عدُّوا عدولهم ونحن نذكر إن عدّوا لنا عمرا
كأنما أنت تجرى فى طريقته عدلا وحلما وإيقاعا بمن أشرا

ثم ينصرف حافظ إلى مدح محمد عبده والدفاع عنه فى سنتى ١٩٠٢ و١٩٠٣[2] ويعود فى سنة ١٩٠٤ إلى عباس ، فيمدحه بقصيدتين فى عيد الأضحى وفى عيد العام الهجرى[3] ، معتذرا عن سكوته فى العامين الماضيين ، ويقول فى القصيدة الثانية مستعطفا :

عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشير ؟
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلى ليـــلُ الأسىَ وينير

فإذا عين سعد وزيراً للمعارف فى وزارة صهره مصطفى باشا فهمى سنة ١٩٠٦، مدحه متقرباً إليه بصلته بأستاذه محمد عبده[4] :

(١) ديوان حافظ ١ : ١٨ .
(٢) » » ١ : ٢١ — ٢٧ .
(٣) » » ١ : ٢٨ و ٣١ .
(٤) » » ١ : ٢٦٤ .

فردد لنا عهد الإما — م وكن بنا الرجل المفدّى

فإذا انتهى به المطاف إلى دار الكتب وعين بها سنة ١٩١١ ، بلغ به اليأس والاستسلام أن يمدح السلطان حسين كامل ، حين وضع على عرش مصر بعد خلع عباس سنة ١٩١٥ ، وموالاة الإنكليز والإخلاص لهم إذ يقول (١) :

ووالِ القومَ إنهمُ كرام — مَيامينُ النقيبة أين حلوا
لهم ملك على التاميز أضحت — ذراه على المعالي تستهل
وليس كقومهم في الغرب قوم — من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
فإن صادقتهم صدقوك ودا — وليس لهم إذا فتشت مثل
وإن شاورتهم والأمرُ جد — ظفرت لهم برأى لا يَزلُ
وإن ناديتهمْ لبّاك منهم — أساطيل وأسياف تسلُّ
فاودهم بحبال الودّ وانهض — بنا فقيادُنا للخير سهلُ

ويقنع بطلب الإصلاح فى ظل الراية البريطانية فى قصيدته التى استقبل بها السير آرثر مكماهون سنة ١٩١٥ (٢) :

نرجو حياة حرة — مضمونة فى ظل راية
ونروم تعليما يكو — ن له من الفوضى وقاية
ونود أن لا تسمعوا — فينا السعاية والوشاية
أنتم أطباء الشعو — ب وأنبل الأقوام غاية
أنى حللتم فى البلاد — لكم من الإصلاح آية
رسخت بناية مجدكم — فوق الروية والهداية
وعدلتم فلكم الـ — دنيا وفى العدل الكفاية
إن تنصروا المستضعفـ — ين فنحن أضعفهم نكاية

(١) ديوان حافظ ١ : ٦٧ — ٧١

(٢) ديوان حافظ ٢ : ٨٢ والسير آرثر مكماهون هو أول مندوب بريطانى عين فى ظل الحماية . وقد وصل إلى مصر فى ٩ يناير سنة ١٩١٥

وإزاء هـــذا النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية انقسمت مصر إلى معسكرين كبيرين ، أحدهما يحارب الاستعمار ، ويتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، فيعتمد على نفوذ الخديوى آنا ، وعلى نفوذ تركيا آنا أخرى ، وعلى نفوذ فرنسا فى بعض الأحيان ، وذلك هو الحزب الوطنى ، يؤيده شباب مصر المثقف وطلبة المدارس فى مختلف المعاهد . أما المعسكر الآخر فقد جنح إلى موالاة الإنكليز واكتساب رضائهم ، معتقداً أن مصر فى ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم ، وأن الطريق الأمثل للتقدم هو إصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال ، وذلك هو حزب الأمة ، يؤيده كبار الملاك ، ويشايعهم نفر من أصدقاء الشيخ محمد عبده ؛ مثل سعد زغلول وفتحى زغلول (١). وبين هذين الحزبين الكبيرين كان هناك فريقان آخران ، فريق يعبر عن اتجاهات الخديوى ، استحدثه عباس حين فسد ما بينه وبين الحزب الوطنى ، ويمثله الشيخ على يوسف ومعه قلة من الأشياع يسمون أنفسهم حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ، وفريق باع نفسه للاستعمار وسمى نفسه الحزب الوطنى الحـــر ، وما هو بوطنى وما هو بحر ، وتمثله صحيفة المقطم . وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين الفريقين فريقا ثالثاً كان مستقلا عن هـذه الأحزاب جميعاً ، وكان يقاوم النفوذ الإنكليزى ، ولكنه لا يقاومه من وجهة النظر المصرية أو التركية ، وإنما يقاومه من وجهة النظر الفرنسية ، التى كانت - قبل الاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤ - تدور حول إخراج الانكليز وإقلاق مركزهم فى مصر ، بإثارة المشاكل ووضع العقبات فى طريقهم . وكانت صحيفة الأهرام هى الممثلة لهذا الاتجاه (٢) . وربما كان مقال الجريدة « تعالوا نتفق أو نختلف » من أوضح

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ و ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١ .

(٢) راجع نشأة هذه الأحزاب وبرامجها والظروف التى مهدت لظهورها فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٦ - ١٣٢ ، الدولة العربية المتحدة ٣ : ٩٦-١٠٧ تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٣ - ٢٩ .

ما كتب فى بيان الفروق بين هذه الأحزاب، وقد جاء فيه(١) :

« ... (فالمؤيد) يتحيز دائماً فى سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وأما فى جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجرى من النقيض إلى النقيض ، أى من (اللواء) إلى (المقطم) . فأحياناً يكون كالاول ، وأحياناً كالثانى ، وغالباً ينفرد فى هذا الميدان الفسيح بتحكم النقيضين، مراعيا فى ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التى ذكرناها . وأما (الجريدة) فإنها لا تتحيز لجهة من السلطتين ، ولا تتفق مع طرف من طرفى النقيض ، وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقاً . بل قلمها وقف على خدمة الأمة دون سواها ، وليس أمام نظرها إلا أن تصبح الأمة ذات إرادة ثابتة ووجود مستقل عن كل سلطة ، تقف فى مركز مكين لمطالبة السلطتين جميعاً بحقوقها من غير استكانة ولا محاباة(٢). وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة السياسة مع (المؤيد) . وأما (المقطم) فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . وأما (الجريدة) فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنها لا تناقش الآن فى أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنتقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق فى الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) و (المقطم) متفقتى المذهب . وأما (اللواء) فإنها تدعو إلى الاستقلال بالطفرة ، وخطتها عدائية للمحتلين . ونحن نرى أن الطفرة محال ، وعواقب التشبث بها خطرة جداً ،

---

(١) صحيفة (الجريدة) عدد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧ المقالة الافتتاحية .

(٢) كذلك تزعم (الجريدة) . والواقع أنها كانت تتحيز لكرومر وتتحامل على عباس . وقد كانت فكرة المصرية والتمصير وقتذاك من خلق الإنجليز ، وهى فكرة — على ما فيها من حق فى ظاهرها — لم يكن يراد بها إلا الباطل . فهى شبيهة بفكرة السودنة التى خلقها الانجليز فى السودان للتفريق بين المصريين والسودانيين . وليس من محض الاتفاق أن يكون المنادى بفكرة التمصير وقتذاك هو حزب الأمة ، وأن يكون المنادى بفكرة السودنة بعد ذلك فى السودان هو الحزب المسمى بهذا الاسم نفسه .

وأن الاستقلال لا يكون إلا بعداته التي شرحها سعادة حسن عبد الرازق باشا في خطبته . كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التي لا يحكم العدل بقبحها ليس من الاعتدال الذي هو شعارنا في شيء » .

وقد تكلمت في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب عن الفوارق الأساسية بين هذه الأحزاب . ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن الخلاف بين هذه الأحزاب قد انتهى إلى خوض الصحف في مهاترات لم تكن تستهدف الحق دائماً ، وقد كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة(١) . وقد أفسدت هذه المهاترات الأخلاق والأذواق ، فتولد في المصريين ميل جامح لتتبع هذا السباب والتشفي بسماعه . وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا في شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدهم في حفل مصارعة الثيران ، وقد غدا أقدرُ الناس على السباب وعلى رده هو أبرعهم في أعين الناس . وبذلك استُنفدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصُرفت عن مواجهة الاستعمار ، عدوهم الأول ، الذي استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حرباً على صاحبه . وارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم ، حتى ضج المصلحون من هذه الفوضى المؤذية للأذواق ، والمفسدة للأخلاق والباعثة على بلبلة الأفكار .

يقول عبد الله النديم(٢) :

« أطلقت إنجلترا حرية المطبوعات والأفكار ، فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد ، وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول : انا وطنية ، أنادي بأن خير البلاد وصالحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة

---

(١) راجع أمثلة لذلك في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٤، ٦٦٨، ٦٩٤، ٧٠٤، ٧١٠، ٨٣٣، ٨٥٣ .

(٢) الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ .

ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفت وعدها ، وأجلت جندها ، وتركتهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والصرب وغيرها مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذه تقول : مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الانكليز ، ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء ، حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم . لا تبالى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول : إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوى ، ولا يضرها إلا وجود الانكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس ، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد . وهذه دينية . وهذه حقوقية . وهذه طبية . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس . ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم إلى طلب حقوقهم ، وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم ، تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة ، وتلعب بالأفكار الجامدة ، ونحن في بحور اللهو غارقون » .

وصور حافظ إبراهيم فساد الصحف التي لا ينفق سوقها إلا بتبادل الشتائم بالباطل ، وقد أصبح الناس لا يتقبلون كلاما في الأدب أو الأخلاق ، ولا يستهويهم إلا السباب . فقال في (ليالى سطيح) على لسان صاحبه إذ يبثه شكاته (١) :

« فتق الذهن أن ألقى بنفسي في غمار المحررين ، وأن أنشيء صحيفة أسبوعية . فصحت عزيمتي على الدخول في زمرة الكتاب وإن لم أكن منهم . . وجعلت أكتب في الفضيلة وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطره الأول وجرى عليه الأخير ، وأستمد من بطون الكتب أحكم الأمثال وأمثل العظات وأكد ذهني في الاستنباط . . ولكن فاتني أن أنظر نظرة في أخلاق الأمة التي أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة في وجوه عاداتها . فلم تنفق لذلك سلعتي ،

(١) ليالى سطيح ص ٣٣ — ٤٧ .

ولم أنتشر صحيفتي ... فقلت لنفسي : أيتها النفس لقد أعذر صاحبك وما قصر ، فأنت اليوم بين أمرين ، إما الفضيلة والنعش ، وإما الرذيلة والعيش . وكانت من غير تلك النفوس المطمئنة ، التي بشرها الله بالجنة . فشمست عن الأولى وسكنت إلى الثانية . فما زالت تأمرني بالسوء ، حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص ومستنقعاً للعيوب ، وأصبح يراعي وقد استمد من لعاب الأفاعي لعابه ، واستعار من المسامير سبابه(١) فما زلت أطعن على زيد لأجتذب من عمرو ، وأغض من خالد لأشد من بكر ، حتى زل الرأي وعثر القلم ، فأصبحت غريم الحكومة ، وخوصمت إلى المحاكم فأصبحت خصوما ، وبت وقد اصطلحت على الخطوب » .

ثم يقول على لسان سطيح في الرد على صاحبه :

« أي فلان ! ... إن للصحافة رجالا ، وللسياسة أبطالا ، طرقوا لها إلى الضمائر ، وتناولوا بها ما وراء السرائر ، فسددوا الكلام كما تسدد السهام . وبلغوا بالمقال ما لا تبلغه النصال . يحببونك فتحب ، ويستغضبونك فتغضب ... وهم كما قال صاحب كليلة (يحقون الباطل ويبطلون الحق . كالمصور الذي يصور في الحائط صورا كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) » .

ثم قال على لسان صاحبه إذ يسأل سطيحاً عن معنى الحرية وحدودها :

« ألا يحدثنا ولي الله عن تلك الكلمة التي أخذها الناس على غير وجهها . فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها ، ثم أسكنوها في غير مغناها ، وأرادوا منها غير ما أرادت منهم ، فذلت بهم وذلوا بها . وكان ذلك علة هذه الفوضى التي تراها في الصحف ، وذلك الفساد الذي سرى في الأخلاق » ؟

ويقول على لسان سطيح في مضار ما وقعت فيه الصحف من مهاترات :

« أما في وجوه المضرة في بقائها فقد أصبحت شيئاً يحسن ، وأصبح مثلها كمثل

---

(١) المسامير : كتيب لعبد الله النديم في هجاء أبي الهدى الصيادي الذي كان شيخا للاسلام في تركيا وكان متسلطا على السلطان عبد الحميد . وهو عربي الأصل . وقد ابتلي النديم بعداوته مدة إقامته في الاستانة بعد إبعاده عن وطنه عقب تعطيل صحيفة (الأستاذ) . و « المسامير » مملوء بالفحش المقذع .

الهواء فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى هجمت الأيدى بلمسه ، وتلوّن حتى وقع فى النظر تحت حسه .

« فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال . فأقاموا لها سوقا فرشت فيها الصحف وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراض الناس ، فتراهم يجلسون للمساومة فى تلك الأعراض . ويأتى حامل الضغن (الحقد) لأخيه ، فيساومهم فى تمزيق عرض من أراد ، ويشهر ذلك فى المزاد .

« ومنها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة ، لكثرة ما يقرءون ويسمعون من ألفاظ السباب . فإذا فسدت الأخلاق فى الأمة فقد فسد فيها كل شىء .

« ومنها دخول السقاط من القوم فى زمرة المحررين . اللهم إلا نفراً من أنصار الفضيلة ، ذهب صرير أقلامهم ضياعا فى وسط تلك الضجة القائمة . وهذا قليل من كثير » .

ويقول محرم فى تصوير هذا الفساد والشقاق(1) :

ولقـــد بلوت الكاتبين جميعهم ... فوجدت أكثر ما يقال دعاويا
شدوا العِيابَ على هنات لو بدت ... ملأت مناديح الفضاء تساويا (2)
لا بوركت تلك الأكف فإنها ... ضربت على الألباب سداً عاتيا
حجبت صديع الرشد عنها فارتمت ... تجتاب ليلَ الغىِّ أسفع داجيا (3)
سلى أنبئك اليقين فإن لى ... علمـــاً بما تخفى السرائر وافيا
ألفيتُ أصدقَ مَن بلوت مداهنا ... ورأيت أمثلَ من رأيت مداجيا
بعثوا الصحائف يلتوين كأنما ... بعثوا بهن عقاربا وأفاعيـــا

---

(1) ديوان محرم ٢ : ٩٧ — ١٠٠

(2) العياب جمع عيبة (بفتح العين) وهى الحقيبة . مناديح جمع مندوحة وهى ما اتسع من الفضاء . يقول إن بين جنبات هؤلاء الكتاب الذين يتشدقون بالفضيلة من الشر ما هو خليق أن يسد الفضاء .

(3) الصديع : الصبح .

صحف يزل الصدقُ من صفحاتها — ويظل جد القـول عنها نائيا
... صدقوا العدوّ ولامهم وتمزقوا — خصماء فيما بينهم وأعاديا
فهم المعاول إن رماهم هادما — وهم الدعائمُ إن علاهم بانيا
وهم السلاح إذا يشيح مناجزا — وهم الحديد إذا يصيح مناديا
ما لي أهيب بمن لو أتى نافخ — في الصور ما نبهت منهم غافيا
... ليت الزلازل والصواعق في يدي — فأصبها للغافلين قوافيا
فنيت براكين القريض ولا أرى — ماشفّني من جهل قومي فانيا
فلئن صمتُّ لأصمتن تجلدا — ولئن نطقت لأنطقن تشاكيا

من أجل ذلك أخذ الناس يتصايحون بالدعوة إلى الاتحاد وإلى ضم الصفوف، فكانوا كالذين يصرخون وسط الضجيج ينشدون الناس السكوت، فيضيفون إلى الضجيج ضجيجاً جديداً. أو كالذي يحاول أن يوحد بين الأديان فلا يزيد على أن يضيف إليها ديناً جديداً، او كالذي يريد توحيد اللغات فينتهي إلى خلق لغة جديدة، فالمختلفون لا يملون الخلاف، كما أن دعاة الخير لا ييئسون من الدعوة إلى الوحدة وإلى الوئام.

يقول حافظ إبراهيم في قصيدة وجهها إلى (البرنس) حسين كامل حين وكلت إليه رياسة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سنة ١٩٠٩ طالبا إليه أن يعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة (١) :

هلاك الفرد منشؤه تواني — وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وُلينا وانقسمنا — فلا سقيٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامنا في أرض مصر — وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا — مذاهبنا ! ... وأكثرنا نيام
حسينُ ... حسينُ أنت لها فنبه — رجالا عن طلاب الحق ناموا
أفِضْ في قاعة الشورى وئاما — فقد أودى بنا وبها الخصام

(١) ديوان حافظ ٢ : ٥٥ ، ٥٦

وعليهم مصادمة العوادى فتلك لا يزوِّعه الصدام
ففى حرب اليمين لديك قوم وإن قلوا فإنهمُ كرام
وفى حرب الشمال لديك أُسْد كماة لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يفتكم من الشهوات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا ولكن فى صفوفهم انضمام

ويقول محرم : (١)

بلوتُ المدَّعين بلاءَ صدقٍ فلا أدبا وجدتُ ولا خلاقا
دعاة الشر يتفقون فيه ولا يرجون فى الخير اتفاقا
إذا كان الهوى دلفوا سراعا وإن كان الهدى ركبوا الإباقا(٢)
كأن بهم هداة يقال سيروا إلى العلياء قيداً أو وثاقا
أسارى فى قيود الجهل تأبى لهم أخلاقهم منها انطلاقا
لبئس القوم ، ما منعوا ذماراً ولا رفعوا لصالحة رواقا
ألست ترى مجال الجد فيهم على سعة الجوانب كيف ضاقا
أضاعوا الشعب حين تواكلوه وساموه التفرق والشقاقا
ولو أنى وليت الأمر فيه جعلت مكانه السبع الطباقا
ولكنى امرؤ لا شىء عندى سوى قلم يذوب له احتراقا !!.

ويقول (٣) :

ليس الشقاء بزائل عن أمة حتى يزول تفرق وتحزُّب
من لى بشعب فى الكنانة لا القوى تنشق منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغى الحياة كأنه جيش على أعدائه يتألب

ويقول شوقى فى الهمزية النبوية التى نشرت سنة ١٩١٢ ، متوجها بخطابه إلى

---

(١) ديوان محرم ٢ : ١٢٥ .
(٢) أبق العبد أباقا : استخفى وهرب من سيده .
(٣) ديوان محرم ٢ : ١١١ .

الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً — ومن المديح تضرعٌ ودعاء
أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة — في مثلها يُلقى عليك رجاء
أدرى رسولُ الله أن نفوسهم — ركبتْ هواها ، والقلوبُ هواءُ
متفككون فما تضم نفوسهم — ثقةٌ ولا جمع القلوبَ صفاءُ
رقدوا وغرهمُ نعيم باطل — ونعيم قومٍ في القيود بلاء

ويقول في قصيدة أخرى هنأ بها عباساً بعيد الفطر : (٢)

وعلى أسفت عليك في عيد الملا — وبكيت من وجدٍ ومن إشفاق
لا عيدَ لي حتى أراك بأمةٍ — شماءَ راوية من الأخلاق
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم — وبقيت في خلفٍ بغير خلاق
أيظل بعضهم لبعض خاذلا — ويقال شعب في الحضارة راقِ
وإذا أراد اللهُ إشقاءَ القرى — جعل الهداةَ بها دعاةَ شقاق

ويقول في ختام القصيدة الحزينة التي هنأ بها السلطان حسين كامل بعد عزل عباس : (٣)

يا أهلَ مصر كِلُوا الأمورَ لربكم — فاللهُ خيرٌ موئلاً ووكيلا
جرت الأمورُ مع القضاء لغاية — وأقرها من يملك التحويلا
أخذتْ عِناناً منه غيرَ عِنانها — سبحانه متصرفاً ومُديلا
هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً — للسلطتين وللبلاد وبيلا ؟ ... (٤)
يعتز كلُّ ذليلِ أقوامٍ به — وعزيزكم يُلقي القياد ذليلا(٥)

(١) ديوان شوقي ١ : ٢٩ (نشرت في المؤيد ٧ مارس سنة ١٩١٢) .
(٢) » » ٢ : ٩٢ .
(٣) » » ١ : ٢١٧ .
(٤) يشير إلى تنازع السلطة الشرعية الممثلة في الخديوي والسلطة الفعلية الممثلة في قنصل بريطانيا العام .
(٥) يقصد بالعزيز عباساً الذي أذله الانجليز ، وخصوصاً في السنوات الأخيرة، حين كان كتشنر هو ممثل بريطانيا .

رفعت بنا فيه الحوادث وانقضت   إلا نتائج بعدها وذيولا

وانفضّ ملعبه وشاهدُه ، على   أن الرواية لم تتم فصولا (١)

فأدمتم الشحناء فيما بينكم   ولبثتمُ في المضحكات طويلا

كل يؤيد حزبه وفريقه   ويرى وجود الآخرين فضولا

حتى انطوت تلك القرون كلعب   وفرغتم من أهلها تمثيلا

وإذا أراد الله أمراً لم تجد   لقضائه رداً ولا تبديلا

---

(١) كان هذا البيت والذى قبله مما دعا الإنكليز إلى أن لا يطمئنوا إلى شوقى ، فأبعدوه عن مصر .

الفصل الخامس

نزعات اصلاحية

ليس التفريق بين ما هو من السياسة وما هو من الإصلاح بالأمر الهين . بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية أو إصطلاحية . فكل حركة إصلاحية تخدم هدفاً سياسياً فى حقيقة الأمر . وكل منهج سياسى يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية . ولكن العرف جرى على إدخال ما يتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى فى نطاق السياسة ، بينما أطلق اسم الإصلاح على البرامج التى ترمى إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله فى شتى نواحى الحياة . ولذلك اقترن اسم السياسة فى الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة ، فى الوقت الذى لا تثير فيه كلمة (الإصلاح) إلا التفكير الهادىء الذى يتسم بالاتزان والإنصاف . والذى ينأى بصاحبه عن المخاطر ، ولا يجره إلى المجازفة فى ميادين النزاع العنيف . فالذين يتعرضون للسياسة ممن يجدون فى أنفسهم الجسارة عليها ، والذين يشتغلون بالإصلاح ممن يغلب على طباعهم الهدوء والروية، ولا يريدون أن يزجوا بأنفسهم فى طريق محفوف بالمكاره وبمكامن الخطر ، هؤلاء وهؤلاء يعملون فى ميدان واحد هو الوطنية أو السياسة بمعناها الواسع الذى يدخل فيه كل ما يتصل بتدبير علاقات أفراد الأمة أو الوطن بعضهم بالبعض ، ودفعهم فى مدارج التطور والرقى . بيد أن من الناس من يجمع بين الصفتين ويشتغل بالناحيتين ، ومنهم من يقصر نفسه على ناحية واحدة . فكل الذين يشتغلون بالسياسة يشتغلون فى الوقت نفسه بالإصلاح ، لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لا تقوم إلا على سلامة جبهتها الداخلية . ولكن كثيراً من المشتغلين بالإصلاح لا يزجون بأنفسهم فى شئون السياسة ، لأنهم لا يأنسون فى

أنفسهم الخسارة عليها ، أو لأنهم يؤثرون البعد عن مواطن الزحام حين يتكالب على المورد كل منافق وكل طامع وكل مغامر من الذين يطلبون الغنم الكبير من أقرب طريق ، وممن لا يبالون أن يقعوا على الثروة العريضة أو الموت الذريع .

كذلك كان شأن المشتغلين بالإصلاح في هذه الفترة التي نؤرخ لها . كان بعضهم من المشتغلين بالسياسة ممن تكلمنا عنهم في الفصل السابق . وكان بعضهم الآخرين كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف ، فآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان ، بعد أن رأوا ما رأوا من سوء مصير العرابيين ، وما يتعرض له المجاهدون للاستعمار من أذى واضطهاد ، وقد كان لهؤلاء المصلحين مندوحة ومتسع في المجتمع المصري الذي آل إلى حال بغيضة من الانحلال والفساد.

وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه كل سياسي وكل مصلح هي : كيف نخلق أمة قوية راقية من هذا المجتمع المفكك ، الذي انتهى به الجهل والفقر ، مع تحكم الاستبداد فيه أجيالا طويلة ، إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكترث لشيء مما يجري حوله ؛ بل أصبح في حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع ، واختلط عليه فيها الخير بالشر ، وأنس إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذي عينيه ؟ . . . قال رجال السياسة : إن الاحتلال هو أصل البلاء ، فلابد من مناجزة المحتل . وقالوا : إن الاستبداد هو جرثومة الداء فلابد من المطالبة بالدستور . ولكن المشكلة ظلت باقية تنتظر الحل في رأي رجال الإصلاح ، لأن مجاهدة المستعمر أو الحاكم المستبد تحتاج إلى تضافر القوى واتحاد الجهود . وكيف تتضافر القوى في شعب خيم عليه الجهل والفقر ، وتحكم فيه اليأس والتخاذل ، حتى بلغ حالة تشبه الموت ، إن لم تكن هي الموت عينه ؟ ! ! . . .

كان الفتور والتبلد قد استولى على المجتمع المصري ، بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان ، فماتت فيهم الآمال ، وفقدوا بتوالي العصور أخص ما يميز الإنسان وهو الإرادة ، فتركوا أنفسهم للتيارات المعتركة تقذف بهم حيثما قذفت ، وهم في سكون الجماد الذي لا يحس شيئاً .

وقد رسم عبد الله النديم فى رواية «الوطن» صورة حية ناطقة لهذا المجتمع الذى أفقده الاستبداد إرادته، وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه ؛ حتى فقد الأمل، وترك العمل، وارتاح للكسل، وانحصرت لذته فى ألوان من المتع الرخيصة التى يغرق فيها همومه التماساً لتسكين الآلام[1] . والتمثيلية تشخص (الوطن) رجلا، وتعرض صوراً حية للحوار بينه وبين أفراد من مختلف طبقات المصريين، بعضهم من سكان القرى وبعضهم من المدن، وبعضهم من الفقراء وبعضهم من السادة المترفين الفارغين الذاتهم، وبعضهم من الفلاحين الذين يعيشون على ما تخرج الأرض، وبعضهم من الصيادين الذين يعيشون على ما يخرج البحر، وبعضهم من الجملة الذين يكسبون عيشهم من احتراف الحرف المختلفة، وبعضهم من الموظفين الذين أصابوا حظاً من التعليم المدنى الحديث . عرض النديم صوراً لهذه الطبقات جميعاً تبين أنها على تباينها فى مظاهرها لا تختلف فى جوهرها . فكل منهم يعانى من آثار الاستبداد ومن فادح المغارم والتكاليف مثلما يعانى الآخر . وكلهم مشغول بنفسه عما حوله ، وكلهم مصابون بشلل فى أعصابهم ، مبتلون ببلادة فى إحساسهم ، لا يزعجهم البلاء الذى يصب على رءوسهم والذى يجرى من حولهم ، ولا يعلمون بغير ما هم فيه ، ولا يرون الذين يحاولون ذلك إلا حالمين يتعلقون بالأوهام ويحاولون المستحيل .

أنظر إلى هذا الحوار بين « أبو دعموم » و « أبو الزانى » وهما من الفلاحين سكان القرى[2] يبث كل منهما صاحبه شكواه ، وما يحل به من المغارم ، وما ينزل به من

---

(١) مثلت مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية - التى كان يشرف عليها النديم - هذه المسرحية على مسرح زيزينيا بحضور الخديوى توفيق - وهذه الجمعية هى جمعية أخرى غير الجمعية الحالية - وقد كان الحوار يجرى فى أكثر الأحيان باللهجة العامية المحلية وهى - كما هو معروف - تختلف باختلاف الأقاليم ، بل باختلاف الطوائف والطبقات فى الإقليم الواحد ، كما تتعرض للتطور والتغير على توالى السنين ، وذلك كله يضيق دائرة صلاحيتها زماناً ومكاناً ويفقدها صفة العموم والدوام . لذلك رأيت أن أعدل عما فعلته فى الطبعة الأولى من تقديم نصها مكتفيا بتلخيصها ، ولمن شاء أن يرجع النص فى « سلافة النديم »

(٢) سلافة النديم ٢ : ٢٣

صنوف الخن والتعصب والنهب ، على أيدى (الطَّوَّافة) و (مشايخ البلد) و (حكّام الخط) و (المديرين) . وبيناهما فى هذه الحال إذ يطلع عليهما (الوطن) يندب أهله وأولاده ورجاله الذين تخلوا عنه وفتر حبهم له ، فيتصدى له الرجلان يسألانه فى ازدراء - للدارة ورثاثته - ماذا يطلب من هؤلاء الذين ينسبهم ؟ . . وأى شىء فيه يدعوهم إلى حبه والتعلق به ؟ . . . فإذا طلب إليهما (الوطن) أن يعملا على جمع الكلمة رأيا أنه يتعلق بالمحال فى بلد تفككت فيه عرى المودة ، وشغل كل واحد فيه بنفسه . فإذا دعاهما إلى التعليم تعجبا من قوله متسائلين : وماذا يجدى التعليم ، وفقيه القرية يتكلم كل يوم فى الحلال والحرام ، بينما (شيخ البلد) يقطع جلود الناس بالسياط ؟ ولا يسلم (الفقيه) نفسه من هذا المصير إن حدثته نفسه بالاعتراض ؟ . . . فإذا علما أن المقصود بالتعليم هو إرسال الأولاد لمكتب القرية سخروا منه ، وقد ازدادا يقيناً ببلاهته ، لأن أولادهما - بحمد الله - صحاح الأبدان ، وقد تعود الناس أن لا يرسلوا إلى الكتاب إلا العميان ممن يُعَدُّون للارتزاق بتلاوة القرآن . فإذا أكثر الوطن عليهما وأثقل ، ردا عليه فى استهزاء يعرِّضان بسطوة (ناظر القسم) الذى تخرس من رهبته الألسنُ ، وبالجابى (الصراف) جرجيوس الذى يضرب ويشدخ ، وبالحاجب التركى (القواس) الذى يرفس ولا يبالى أن يقتل بلا حساب ، متمنيان أن يطلع عليهما الساعة واحد من هؤلاء ليستمتعا بفصاحة (الوطن) فى حضوره . فإذا طلب (الوطن) إليهما أن يشكوا الحكومة من قسوة هؤلاء الظالمين وتجبرهم ، أظهرا الخوف الشديد من لقاء (الحُكّام) ، الذين ترتعد منهم الفرائص يوم يبلغهما أنهما مطلوبان للقاء أحدهم .

ثم يعرض علينا المؤلف لوناً آخر فى حوار يدور بين (أبو دعموم) و (أبو الزُّلُق) وهما من سكان الريف ، وبين (الحاج حسين) و (المعلم أبو العلا) وهما من سكان المدن ، يصور فيه كل من الطرفين ما يعانى من فوضى الحكم واستبداد الحاكمين . فساكنا المدينة يعددان صنوف الضرائب والمغارم التى لا تكاد تدخل

تحت حصر . مثل (الشخصية ، وحب الرمان ، والطلنبة ، والخفر ، والنضافة ، ونزح الكنفان) . فلا يكاذان يفرغان من إحصائهما حتى يعدد لهما ساكنا القرية من أمثالها عندم ما يحملهما يحمدان الله على مصابهما . وذلك من مثل: (ضريبة المال والمقابلة والسدس ومصاريف الرى والسهوم والمصالح والشخصية وعوايد البهائم والوطنية والأغنام والنخيل والدخولية) وذلك عدا ما يغرمه الفلاح من محاصيله كل عام فى مثل : (عادة الحكيم والمهندس والمورن والمشدّات والطوافة ورياسة المدير وخدمه وسنوية الناظر وخدمه والعونة والسخرة) وما يخضع له بناته وأولاده وبهائمه من ضروب السخرة وصنوف الإهانات من خدم الحكام وأولادهم ونسائهم . ويضاف إلى ذلك ما يغتصب من غلات الفلاحين ودوابهم ودجاجهم نهبا للناهبين بين الأيدى التى تتناقله حتى يصل منه ما يصل - إن وصل - إلى أيدى الحكام الذين ينهبون باسمهم ما ينهبون . وجابى الضرائب (الصرّاف) مع ذلك كله يمر كل يوم فيأخذ ما يأخذه بلا حساب والضريبة باقية كما هى لم ينقص منها شىء . فإن ناقشه (الفلاح) أو اعترض لكمه (شيخ البلد) الذى يرافقه قائلا (أعقلك أثبت مما هو مسطور فى الدفاتر يا لُكَع ؟...)

ثم استمع بعد ذلك إلى حديث (الوطن) مع (الحاج حسون) و (المعلم أبو العلا) حين يفاجئهما وهما غارقان فى الحديث عن المقارنة بين الأوكار التى يُحرَق فيها (الحشيش) فيجفلان منه مذعورين . فإذا اطمأنا إلى أنه (الوطن) سألاه عن علة ما اعتراه من تغير وما وصل إليه من سوء الحال . فيقول لهما إن أولاده هم سبب تعاسته . ويظل يبكى شقاءه ويندب أبناءه حتى يلهو به (الحشّاشان) الجنون ، ويضيقان بشكايته التى نغصت عليهمـــا مجلسهما ، فينصرفان عنه إلى متعتهما .

وقريب من هذا الحديث حديث رجلين آخرين من السادة المترفين ، وهما (السيد على) و (السيد إبراهيم) . يتحدثان عن السهرات والأفراح والولائم ، ويخوضان فى ذكريات ماضية يتحدثان فيها عن جمال أحدهما فى صباه وحب والد

الثاني له وتنداك وتغزله فيه . ولا يقطع عليهما حديثهما إلا صياح الوطن : « أين رجال الفتوة ؟ .. أين رجال النجدة ؟ .... » ويضيق به السيدان المترفان ويلعنان وجهه وحاجته وتنطعه ، إذ تخوّف أن يفسد عليهما مجالس المتعة بنقيقه حين ينوح على السابقين الأولين .

ويرى أحد السيدين — بعد عائنة من صاحبه — أن يواسيه بسؤاله عن حاله ، فيشكو إليه (الوطن) ما ابتلى به أبناؤه من تواكل وخمول انتهى بهما إلى التخلف عن ركب العلم والمدنية . فيعجب السيد المترف لقول (الوطن) في إنكاره على المصريين أنهم أهل مدنية ، مع ما هو معروف عنهم من الظرف وحضور البديهة والدعابة .

فإذا صحح له (الوطن) خطأه ، وعرّفه أن المدنية الحقيقية في نشر العلم وفتح المدارس أجابه السيد المترف في استنكار بأن (المدارس) شيء لا يشتغل به إلا النصارى . أما المسلمون فيحسبهم مكاتب تحفيظ القرآن .. هي — بحمد الله — ملأى بكل أعمى وكل كسيح . فإذا أطال (الوطن) الكلام في تصحيح خطأ السيد المترف ، نظر إلى صاحبه قائلا الآن أدركت أنك كنت على حق حين عارضت في حديثي مع هذا الشخص ; فهو حقيقةً مخبول ذاهب العقل . ويعودان إلى ما كانا فيه من لغو الحديث .

ثم يقدم عبد الله النديم بعد ذلك حواراً بين (الوطن) وبين صيادين من أهل الإسكندرية ، لا يختلف في دلالته عما مضى . ثم يلتقى (الوطن) باثنين من المتخرجين في المدارس الأجنبية هما (عزت أفندى) و (مظهر أفندى) — وأحدهما مترجم في بعض القنصليات الأجنبية — فإذا هما يتحدثان عن الليالى الصاخبة في دور الخلاعة والخمر ; ويتفاخران بما ينفقان فيها من مال ، في جمل تتخللها عبارات فرنسية . وإذا هما لا يعرفان التعليم غاية إلا تحصيل لقمة العيش من أى وجه ، ولا يفكران إلا في المتعة وفي الابتعاد عن المنغصات ، ولا يريان ما سوى ذلك مما يدعو إليه (الوطن) من ضروب الجد إلا سخفاً واشتغالا بما يملأ الحياة هماً وحزناً .

كذلك صور عبد الله النديم حال الناس قبيل الثورة العرابية ، لا يدركون من المصالح إلا الدانى القريب الذى يمس أشخاصهم ، ولا يعرفون من المتع إلا أدناها مما يتصل بملذات الجسد ، ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس القرية (الكتاتيب) إلا أن يكونوا عمياناً يرتزقون بقراءة القرآن . وهم بعد ذلك مستكينون لما يقع عليهم من الظلم ، لا يكادون يطمعون فى دفعه . ولذلك فهم يعيشون فى ذوات أنفسهم، وفى أضيق حدود الجماعة التى لا تتجاوز نطاق الأسرة، لا يعنيهم شىء مما يجرى من حولهم، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتصل بهم ولا يغير من الواقع المر البائس الذى هم فيه شيئاً . ذلك شأن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون . أما المرزوقون ممن أتيحت لهم وسائل العيش ؛ فهم لا ينظرون لمن حولهم ممن ابتلى بألوان المحن إلا ليحمدوا الله على ما رزقهم من خير وما كفاهم من شر . وهم يملؤون الفراغ الممل من أعمارهم الضائعة بالسهرات وبالأحاديث التافهة فى مجتمعاتهم وفى ندواتهم ، ويقتلون البقية الباقية من أحاسيسهم ويقظاتهم — إن كان فيها بقية — بطلب ما يغيبهم عن شعورهم من ألوان الخمور والمخدرات، وقد أعجزتهم اللذة فى اليقظة فهم يلتمسونها فى أحلام المخمورين وخيالات المخدرين . لا يميز الجاهل من المتعلم إلا أن الثانى يدير لسانه بألوان من الرطانة يحشرها فى كلامه ، ويتخذها عنواناً للكياسة والظرف والتمدن ، ويظن أنها تميزه عن غيره ممن لا يعرفها .

* * *

وعرت الثورة العرابية فى حياة الناس سريعاً وكأنها لم تكن فعادوا إلى يأسهم أبلغ ما يكون اليأس ، وإلى انطوائهم أشد ما يكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث ، وكأن الأمر لا يعنيهم فى شىء . ولم يكن ينتظر من هذه حالهم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الإسراع لاستقبال الخديوى الظافر عند عودته للقاهرة بمثل ما استقبلوا عرابى الظافر من قبل . تابعوا الثوار مبهورين بجرأتهم مأخوذين بصنيعهم الذى لم يكن يخطر لأحد ببال . فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم

المؤلم كما يقول البارودى :

وكنا جميعاً ، فلما وقعت معة صبرت وغادرنى معشرى

واستأنفوا حياتهم كأن لم يكن مما كان شىء .

وأدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل أى نهضة . فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض فى حياتنا وينبهون إليها فى لين الواعظ المشفق على قومه ، الحريص على هدايتهم حيناً وفى عنف المغيظ المحنق الذى غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حيناً آخر . وكان من أثر ذلك أن ظهر فى أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعى الذى يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجرى من حوله ، فاحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة . وطالعتنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التى تلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معايبه ، وتتهكم بأساليب حياته الفاسدة . فمن ذلك قول الكاشف فى وصف وباء الكوليرا الذى اجتاح مصر سنة ١٩٠٢ ، مصوراً فتكه بالناس ، وتفشيه نتيجة للجهل والاستسلام وانتشار الخرافات وسوء فهم الناس وتفسيرهم لمعنى التوكل على الله والرضا بقضائه(١) :

وكم ليل قضيته حليف وجد	وسهد فى الضراعة والصلاة
فإن أغفيت ُ أيقظنى مخيفا	صياح الثاكلات الباكيات
فمن أم معى عنها بنوها	ومن أم أصيبت فى البنات
وهذا كان لى جارا وفيا	وكانت تلك إحدى التابعات
فأحسب أننى فى الظهر ميت	إذا أبصرت ميتاً فى الغداة
وذى هوس يقول لقيت ليلا	شياطين المنايا الدائرات
بأيديها سيوف لامعات	كلمح عيونها المتوقدات
... وما حيل الحكومة فى مغير	به وجد البلاد مرحبات

(١) ديوان الكاشف ١ : ٥٥ — ٥٧ .

إذا ما طاردته في مكان رأت منه مراس الراسخات
وكان له من الأهلين عون علينا ، فهو موفور الثبات
تساوى عندهم نفع وضر فما عرفوا الحماة من العداة
إذا لاقوا الأطباء استعاذوا وخاضوا في الظنون السيئات
وأبدوا للعقاقير احتقارا وظنوها سموما مهلكات
وقالوا : في منازلنا دعونا فإن الموت في المستشفيات
وإن لنا من الدايات عنكم غنى لعلاجنا ومن الرقاة
ولولا غفلة العلماء عنهم لما تركوا الوساوس غالبات
إذا استهديتهم قالوا : استعينوا بصبر واخضعوا للكارثات
نرى أن لا فرار من المنايا فنهزأ بالدواء وبالأساة
وما العدوى ، وإن نقموا علينا سوى وهم النفوس الحائرات
وإن تك نقمة فقد احتمينا بأسرار البخارى الشافعات
وإن لنا على الله اعتمادا وأسبابا إليه واصلات

ومن ذلك قول حافظ ابراهيم ، من قصيدة له في الحرب اليابانية سنة ١٩٠٤ ، يصور يأسه من إصلاح المجتمع الذي شاعت فيه روح الاتكال والتخاذل والنفعية (١) :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا وتفدى بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها أم بها صرف الليالي لعبا

وقوله من قصيدة أخرى(٢) :

---

(١) الديوان ٢ : ٧ . (٢) الديوان ٢ : ١١٠ ، وقد وردت القصيدة في « ليالي سطيح » ص ٢٦ الذي طبع للمرة الأولى سنة ١٩٠٦

سكتُّ فأصغروا أدبي ... وقلتُ فأكبروا أربي(1)
وما أرجوه من بلدٍ ... به ضاق الرجاءُ وبي ؟ ...
وهل في مصر مفخرةٌ ... سوى الألقابِ والرتب ؟ .
وذي إرث يكاثرنا ... بمال غير مكتسب
وفي الرومي موعظةٌ ... لشعب جدَّ في اللعب
يقتّلنا بلا قَوَدٍ ... ولا دية ولا رَهَب
ويمشي نحو رايته ... فتحميه من العطب(2)
فقل للفاخرين : أما ... لهذا الفخر من سبب ؟ ! .
أروني بينكم رجلا ... ركيناً واضحَ الحسب
أروني نصف مخترع ... أروني رُبع محتسب(3)
أروني نادياً حفلا ... بأهل الفضل والأدب
وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب ؟...
وماذا في مساجدكم ... من التبيان والخطب ؟ ...
وماذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب ؟ .
حصائد ألسُنٍ جرّت ... إلى الويلات والحَرَب
فهبّوا من مراقدكم ... فإن الوقت من ذهب
فهذي أمة اليابا ... ن جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً ... وهِمنا بابنة العنب

ويقول محرم مصوراً انشغال كل رجل بنفسه وبتحقيق مصلحته ، وأسباب الثروة والجاه ، ولا يبالي شيئا غير ذلك : (4)

أكلُّ امرىء في مصر يسعى لنفسه ... ويطلب أسباب الحياة لذاته ؟ ...

---

(1) يقول إنه سكت حين انتابه اليأس ؛ فلامه الناس لسكوته ، فلما تكلم أكبر الناس ما يقول ، وظنوا أن ما يطلبه شيء كبير لا سبيل لتحقيقه .

(2) يشير إلى الامتيازات الأجنبية .

(3) يقصد بالمحتسب الخبير بشئون المال والاقتصاد . (4) الديوان ٢ : ٧٦ - ٧٧ .

طروبُ الأماني ما يبالي بشعبه ... وإن ملأ الدنيا ضجيجُ نعاته
يرى نفسه فوق الملائك عفة ... وقد ضجت الجيشانُ من فتكاته
إذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ ... سواه ولم يحفل بطول شكاته
يظل كأن الحق يتبع خطوَه ... إذا سار يبغى المغنم فوق رفاته
سواء عليه منزل السخط والرضى ... إذا نال ما يرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا تراث يصيبه ... وقصراً تزل العين عن شرفاته
يفوق الصلاب الصم إن سيم نائلا(١) ... ويمتد لج البحر من حسناته
ويجهل ما يدرى الصبي، ويدعى ... من العلم ما ينسيك ذكر ثقاته
ويأتيك بالأخبار يزعم أنها ... بقيةُ وحى وهى من نزعاته
ويحلف ما داجى ولا خان صاحباً ... وقد عبَّ سيلُ الغدر في لحظاته
لعمرى لقد مارست دهرى وأهله ... فأربت مساويهم على نكباته

* * *

رأى بعض رجال السياسة أن الاحتلال هو أصل البلاء، وأن مصر لن تصبح لها نهضة إلا بإجلاء العدو الجاثم على أرضها، المتحكم في أرزاق أهلها وفي مصائرهم، والذى يعترض كل حركة حقيقية تهدف إلى النهضة. ورأوا أن الجهود يجب أن تنصرف إلى محاربته، فإذا حققت هدفها من الجهاد بإجلائه فكل شيء بعد ذلك سهل يسير. ورأى آخرون أن يبدءوا بإصلاح المجتمع المصرى وأفراده، لأن ما انتاب مصر من تفكك وانحلال، وما فتك بأهلها من أدواء، لم يجيء ـ في رأيهم ـ نتيجة للاحتلال، بل إن الاحتلال هو الذى كان من نتائجه وآثاره. فالاحتلال عندهم ليس هو علة هذا التأخر وإن كان من المسلم به أن يضع العراقيل في سبيل التقدم، ورأوا بعد ذلك أن جمع الناس على كره المحتلين لا سبيل إليه. فالعدو قوى متحكم موفور العدة، والناس في يأسهم واستسلامهم لا يعنيهم إلا ما يمس أشخاصهم، لأنهم يدركون أن ما يصيب مصر من خير أو شر لا يصل إليهم

(١) الصلاب الصم: هي حوافر الخيل. يقول إنه يسبق الخيل جريا وراء المغانم.

منه إلا الضر ، وإنما خيره كله لمن كانوا يسمون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية ، ومن ليس له فى مصر مصلحة كيف يمكن أن يحس مصريته ويدافع عنها ويقتل نفسه فى سبيلها ؟ . . .

وأتى الذين يسعون إلى الإصلاح تشجيعاً من كرومر ؛ لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين : فهو يشغل الرأى العام بما يطرح على بساط البحث من مسائل وما يثار من مشاكل فينصرف عن الانسياق فى تيار الكراهية للاحتلال الإنكليزى التى كان يذكى نارها الحزب الوطنى الثائر .. ثم إن الإصلاح يدعم فى الوقت نفسه حجة الاستعمار فى أنه دائب العمل لترقية مصر وإصلاحها . ويقدم لكرومر مادة جديرة بالفخر جديد يضيفه إلى تقريراته السنوية التى كان يتشدق بها ، بما تم فى عهده من إصلاح . وهو قادر دائماً على أن يضع حداً لما يراه خطيراً وضاراً بمصلحة دولته مما لايروقه من وجوه الإصلاح ، لا تعوزه الوسائل فى صرف الناس عنه بالحيلة أو العنف .

لذلك أطلقت حرية الصحافة فى الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل علاجه . وطرح على بساط البحث كثير من المسائل ، واحتدم النقاش حول بعضها . وبرز بين المصلحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ؛ طائفة تدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية والشرقية .

ظهرت آثار هذين التيارين فى السياسة ، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول ، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثانى ، وظهرت فى الأدب وفى الفن ؛ فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوروبيين ، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قيم العرب ومن تقاليد الشرق . وظهرت فى التعليم ، فكانت هنـــاك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ، ومدارس أوروبية للجاليات الأجنبية، أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها .

وظهرت فى المجتمعات وفى سائر شئون الحياة ، فكان هناك مجددون - أو مقلدون للغرب إن شئت - يبغضون إلى الناس قديمهم وتراثهم ، ويصرفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدث طريف ، وكان هنـاك المحافظون فى الأزياء وفى آداب الاجتماع وفى أساليب العيش وأنماط الحياة .

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، وبين التوسط الذى يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب . وبدأ هذا التناقض فى قصر الخديوى عباس ، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء والمترفين . فكان عباس يحتفل فى قصره بشهر رمضان احتفالا عظيما . فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف ، ويحضر مع حاشيته دروس التفسير منذ السنة الأولى لحكمه(١) . ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلا راقصاً فى عابدين كل عام منذ سنة ١٨٩٥ ، يمتد فيه السهر إلى الصبح ، وكان يسمى (ليلة البالو) (٢) . وقد حج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٠٩ (٣) . ولكنه كان يسافر مع ذلك فى رحلة طويلة إلى أوربا كل عام . وقد وضح أثر هذا التناقض فى شعر شوقى، شاعر القصر . فنجد ورد فى ديوانه وصف المرقص والخمر ، مع مدائح الرسول ﷺ وتمجيد الإسلام (٤) .

* * *

كان قوام الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية عدد من أصحاب الثقافة الأوربية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين ، بعضهم من الشاميين المسيحيين الذين استقروا فى مصر ، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٨ (٢) المرجع السابق ٢ : ٢١٣

(٣) المرجع السابق ٢ ب : ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) راجع أمثلة لوصف حفلة البالو فى ديوان شوقى ج ٢ ص ٨ — ١٢ (أثر البال فى البال) ، ١٣ — ١٧ (مرقص) — شوقى شعره الإسلامى : الفصل الثانى (رسالة للماجستير السيد ماهر حسن فهمى — مخطوطة) .

فى أوروبا أو فى المدارس الأوروبية ، ومدارس الإرساليات الدينية التى كان عددها فى ازدياد مطرد[1] .

أما الشاميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى . وكانت صحيفة « الأهرام » تمثل الاتجاه الأول ، بينما كان « المقطم » و« المقتطف » يمثلان الاتجاه الثانى . وكانت هذه الصحف — والصحيفة الأخيرة منها بنوع خاص — دائبة على تعريف المذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب وسائر ضروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شىء من قديم الشرق وتراثه الفكرى . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر فى تاريخها الحافل الطويل . كما كانت تعمل من طريق خفى على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك فى العقيدة، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها — فى حقيقة الأمر — إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم الذين يمتصون دماءهم والذين يحتلون ديارهم ، لكى يسكنوا إليهم ويألفوهم ، من مثل قوله فى مقال عنوانه « الناس إخوة »[2] :

« وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها وإضعاف خلق الأثرة والتباغض وتقوية خلق الإيثار والتواد ، فعلى الذين يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسداً وعقلا أن يسعوا فى إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة ، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة . ولئن كانت الأديان قد فرقت بينهم فيما مضى ، فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن . وإن كان رجال السياسة يسعون إلى إحكام أسباب العداء بين أمة وأمة وشعب وشعب ،

(١) يراجع فى مدارس الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية الفصل الثانى من الكتاب الخامس فى (تاريخ التعليم فى مصر) ٢ : ٨٢١ — ٨٧٥ .

(٢) المقتطف عدد سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٧٢٧ — ٨٢٩ ، ومن المعروف أن فارس باشا نمر كان ماسونيا . ومن مبادىء الماسونية الأساسية إلغاء العصبيات الدينية والوطنية حتى لا يبقى فى العالم إلا العصبية اليهودية دينا وقومية . (راجع فضائل الماسونية لشاهين بك مكاريوس ص ٥٥ — ومؤلفه من كبار الماسون وهو زوج أخت فارس نمر باشا) .

فعلى علماء الاجتماع أن يحبطوا مساعيهم ويسفهوا آراءهم ، وعلى رسل الخير دعاة الأديان أن يجعلوا غرضهم الأول التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض .

ولا يخفى أن الكلام لا يفيد عشر ما يفيده العمل ، وأنه إذا كان عمل المعلم مخالفاً لتعليمه ذهب تعليمه أدراج الرياح . فالمبشر الذى يعلم أن الناس من دم واحد ويقاطع أخته أو ابنته إذا تزوجت رجلا أجنبياً لمجرد كونه من غير أمته ، ينقض بعمله كل ما يقوله بلسانه ، ويثبت للملأ أنه جاهل لا يفهم معنى ما يعلم به ، أو منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر .

ولا مثل الزواج بين الأمم لتمكين عرى الاتحاد ، فضلاً عن تقوية النسل ... فإباحة التزاوج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطة تربط الشعوب . وإذا سلمت من التباغض الدينى والمذهبي وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع ، وأصلحت ما عجزت عن إصلاحه الشرائع والسنن . ولكن اختلاف الأديان — وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين به — يبقى فاصلا بين الأمم وسداً منيعاً يمنع اتصالها » .

والواقع أن مثل هذه الدعوات التى تنادى بالإخاء البشرى تمس قلوب كثير من الناس لأنها تناجى أقدس ما فى الإنسان وأطهر ما تنطوى عليه فطرته . ولكنها تؤثر أكثر ما تؤثر فى الأمم الضعيفة ، وفى نفوس الشباب البرىء منها بنوع خاص ؛ لأن الضعيف وحده هو الذى يحلم بالعطف والرحمة ، أما القوى فهو لا يتحدث إلا عن الفتح والغلبة ، وهو يروج هذه الدعوات بين الضعفاء وهو أولى الناس بأن تستيقنها نفسه . وليس بين دعوات المبطلين شىء يشبه الحق ويلتبس به فى الأفهام كهذه الدعوة إذا انتشرت بين الضعفاء الواقعين تحت عدوان الطامعين وأذى المعتدين . فقد سبقت إرادة الله (سبحانه) وهو الفعال لما يريد ، واقتضت حكمته وهو العليم الخبير ، أن يكون التنافس بين الأفراد والجماعات هو سبيل التقدم . ولذلك خلق الناس شعوبا وقبائل وجعلهم شيعاً وأحزابا . ولو شاء

لجعلهم أمة واحدة . ولو شاء لجمعهم على الهدى . ولكن ليبلو بعضهم ببعض ، وليجد الضعيف نفسه مدفوعا إلى استكمال قوته وحشد كل ما أوتى من مواهب وملكات حتى يتخلص من ظلم القوى . وليتطهر المكافحون خلال كفاحهم من الضعف ومن تحكم الشهوات ، فتسمو نفوسهم ، ويبرز فيهم أشرف ما تنطوى عليه البشرية من عناصر الخير والكمال . ولا يزال الناس فى كفاحهم وجهاد ، وفى تنافس يستهدف التفوق وبلوغ الكمال ، حتى يفنى من وجه الأرض كل ضعيف ويمحى كل مترف فاسق وكل ضعيف متهافت من الأفراد والجماعات والمذاهب . وحتى لا يكون على ظهرها إلا كل قوى صالح من المذاهب والأمم والأفراد : ﴿كذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ ، فأما الزَّبدُ فيذهبُ جفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكُثُ فى الأرض . . .﴾

ذلك هو ما دعانا إلى أن نقول فى مقال المقتطف السابق إنه لا يستهدف إلا ترويض المصريين ، وتمكين الفارس الإنكليزى من مطيته الجامحة بعد أن تسكن وتسلس القياد .

أما المصريون من الداعين إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فقد كانوا من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة حين عاشوا فى البلاد الأوروبية أو نشئوا فى مدارسها المنبثة فى أنحاء الشرق واستمدوا مثلهم العليا فى حياتهم من ثقافتهم التى لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد . فهم يعرفون عن تاريخ إنجلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر مما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامى ، وهم يعرفون أعلام الفكر الأوروبى وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلا . وهم بعد ذلك يعيشون فى بيوتهم حياة تحاول أن تقلد فى مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبيات تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم . وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب ، بينما فترت الصلات الروحية

والمادية بينهم وبين الشرق والإسلام ، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدهما لا يقترن فى أوهامهم إلا بمعاضر الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين ، فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد فى القرن العشرين .

يقول كرومر : « إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى . فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنسانى . ويعدد كرومر ما يراه من معايب الإسلام فيقول بأنه يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد(١) ، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح ، فهم لا يفهمون أن الخلاف فى الرأى ليس موجباً للكراهية والحقد . ثم يأخذ كرومر فى مقارنة بين المسيحية والإسلام يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها ، ويوازن بين أسلوب الشرق وأسلوب الغرب فى الحياة والتفكير ، محاولا تحقير أسلوب الأول وتسفيهه ، فالشرقيون أسرع الناس إلى تصديق الشائعات . وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذى ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم ، وهم لا يكترثون للمستقبل ولا يتبصرون فى العواقب ولايدبرون شيئاً لمن يتركونهم من خلفهم ، وهم يدسون فى الخفاء ولا يعملون فى الضوء ، نتيجة للعصور المتوالية التى عانوا فيها من الاضطهاد

---

(١) عليه صلاة الله وسلامه .

وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدفعهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ المطلق لكل ذى سلطان »(١) .

هذا نموذج مما كان يكتبه ساسة الغرب ومفكروه عن الإسلام والمسلمين . نستطيع أن نلتمس له نظائر فى مثل مقال هانوتو الذى رد عليه محمد عبده فى مقالاته المشهورة سنة ١٩٠٠(٢) . وقد انتهى هؤلاء الغربيين تفكيرهم إلى أن الإسلام والتقاليد الإسلامية وأسلوب الشرق فى حياته وتفكيره — وهو يختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب الغربى — كل ذلك يحول دون إيجاد علاقة مستقرة بين الشرق والغرب ، ويجعل مركز الغربى المستعمر فى الشرق دقيقاً محفوفاً بالخطر ، ويحوجه إلى أن يقف على حمايته بقوة دائمة يقظة . لذلك كان كرومر يحاول ابتداع روابط صناعية مفتعلة لكى تسد النقص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة والعادات والتفكير . وهى الروابط الأساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم كما يقول ، ومن بين ما اقترحه فى هذا الصدد أن يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهات النظر التى تبدى عطفاً معقولا على المصريين، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، لا عن طريق الحكومة . وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة من الحكمة وسعة الأفق — حسب تعبيره — ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص فى تعاون مع الأوروبيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين الذى لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه(٣) .

كل ذلك يفسر لنا ما كان يجد هذا النفر من المفكرين الذين يحتذون أساليب الحياة الغربية من تشجيع ممثل الاحتلال فى مصر ورضاه . وقد قرر كرومر

---

(١) Modern Egypt ٢ : ١٣٤ — ١٥٤ ، وقد فند رتشتين هذه المزاعم فى كتابه Egypt Ruin ص ٣١١ — ٣١٢ من الترجمة العربية .

(٢) راجع ترجمة مقال هانوتو فى تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ — ٤١٤ . وراجع رد محمد عبده ٢ : ٤١٥ - ٤٦٨

(٣) Modern Egypt ٢ : ٥٦٩ — ٥٧٠ .

فى كتابه عن عباس الثانى أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية (١) وهو - مع ذلك - يعترف بأن المتفرنجين من المصريين - وكثرتهم فى رأيه من المسلمين - لم يتشربوا روح الحضارة الاوربية ولم يدركوا إلا قشورها . وهم بذلك قد فقدوا أحسن ما فى الإسلام وأحسن ما فى المدنية الاوروبية كما يقول . فهناك فرق - فى رأيه - بين المتحررين فى أوروبا وبين من تطلق عليهم هذه التسمية فى مصر . فأحرار التفكير الأوروبيون ينسجمون مع من حولهم من المسيحيين ولا يعادونهم . بل هم لا يختلفون عنهم فى أســـلوب حياتهم وتفكيرهم العملى . أما الذين يسمون أنفسهم أحرار التفكير فى مصر فهم يختلفون مع بنى جلدتهم من المتدينين ويحتقرونهم ولا يدركون المدنية الغربية إلا إدراكا سطحيا . فهم لا يعرفون عنها إلا أنها تؤمن بالمادة وحدها . يقرر كرومر ذلك ، لكنه يقول مع هذا إن المتفرنجين من المصريين ، إذا قيسوا إلى مواطنيهم ، كانوا أصلح الناس للتعاون مع الادارة الإنجليزية (٢)

ذلك شأن السابقين الأولين من المصريين الذين دعوا إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . ولكن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا على مر الأيام أن يكسبوا أنصارا من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة ، ويتوقون إلى النهضة بوطنهم ، ويرون أن من الخير أن نستفيد بتجربة الغرب ونسلك الطريق الذى سلكه فى سيره من الهمجية إلى المدنية ، ومن وهدة الضعف إلى قمة المجد ،

---

(١) عباس الثانى ص ٦٧ وراجع كذلك ما جاء فى تقريره السنوى عن سنة ١٩٠٦ بمناسبة تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف حيث أكد هـذا المعنى ص ٨ من الفقرة ٣ تحت عنوان : Egyptian Nationalism

(٢) Modern Egypt ٢ : ٢٢٨ — ٢٣٢ . والمقصود بأحرار الفكر أو المتحررين هم معتنقو مذهب الـ Liberalism الذى لا يتقيد أصحابه بالعقائد والآراء السائدة ، دينية كانت أو غير دينية، وهو مذهب يرتبط أصحابه فى الغرب بقيم العدالة والإنسانية بمفهومها الجاهلى عند الرومان واليونان الوثنيين أكثر من ارتباطها بالقيم المسيحية .

ولا يرون فى ذلك بأساً على الإسلام والمسلمين .

نظر بعض هؤلاء المفكرين إلى الشرق فى تأخره من بعد عزة وغلبة ، وإلى الغرب فى تفوقه من بعد ذل وقلة ، فخيل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين هو أن يأخذوا بأساليب الغربيين فى الحياة والتفكير ، وأن يقتدوا بهم أو ينافسوهم كما يقول حافظ إبراهيم فى قصيدته التى ألقاها فى حفل كلية البنات الأمريكية بمصر سنة ١٩٠٦ (١) :

أىْ رجالَ الدنيا الجديدة ُمدوا ... لرجال الدنيا القديمة باعا
وأفيضوا عليهمُ من أياديـ ... ـكم علوما وحكمة واختراعا
... ليتنا نقتدى بكم أو نجاريـ ... ـكمُ عسى نسترد ما كان ضاعا
إن — فينا لولا التخاذل — أبطا ... لاً إذا ما هم استقلوا الهواعا
وعقولا لولا الخمولُ تولاً ... ها لفاضت غرابة وابتداعا
ودعاةً للخير لو أنصفوهم ... ملأوا الشرقَ عزةً وامتناعا
... قد مللنا وقوفنا فيه نبكى ... حَسَباً زائلا ومجداً مضاعا
وسئمنا مقالهم كان زيد ... عبقريا وكان عمرو شجاعا
ليت شعرى متى تنازع مِصر ... غيرَها المجدَ فى الحياة نِزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحـ ... ـياء فخراً فى الخافقين مذاعا

وينادى هؤلاء المفكرون بأن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول فى انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلا بعد جيل ، حتى انتهى بهم الأمر إلى ما هم فيه من تخاذل وتواكل وفتور ، وأن هذا الاستبداد قد أفسد الدين وقتل كل فضيلة ؛ قتل العلم ، وقتل الطموح ، وقتل الأخلاق ، وأفقد الفرد ثقته بنفسه فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرِّك . وقالوا إن صلاح الأمة بصلاح الفرد، وأن الفرد لا يصلح حتى يتخلص من أسر العبودية ورق الاستعباد وتكفل

---

(١) ديوان حافظ ١ : ١٥٩ .

له الحرية فى أن يقول ما يشاء وفى أن يفعل ما يشاء . وذهبوا إلى أن أوربا لم تحقق نهضتها إلا بتقييد قوى الحاكمين ، وأنها قد وضعت لذلك نظاما يحقق سيطرة الشعب وولايته على شئونه عن طريق الدساتير الحديثة والمجالس النيابية . فنشط الأفراد للعمل حين عرف كل منهم قدر نفسه . وحين تحققوا أن ثمرة جهودهم لا تعود إلا عليهم ، ولا يتصرف فيها الحاكم إلا برأيهم ، ولا ينفقها إلا فيما يرون أنه عائد عليهم بالنفع والخير . عند ذلك قال هؤلاء المصلحون : لماذا لا يكون للمصرى أو المسلم أو الشرقى مثل هذه الحرية ؟ ولماذا لا ينعم بمثل هذا النظام ؟ ولماذا لا يدخل النهضة من الباب الذى دخلت منه أوروبا ؟

وإلى جانب ذلك كله فقد كانت الحياة الاوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تنى ولا تفتر . فتأسست شركة التليفونات الإنجليزية سنة ١٨٨٤ ؛ [1] وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ وافتتح أول خط الترام سنة ١٨٩٧ . ثم أنشىء البنك الأهلى ومنح امتياز إصدار الأوراق المالية سنة ١٨٩٨[2] . وافتتحت الخمارات فى كل مكان ، حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال[3] . وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة فى كل العواصم ، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التى لم يفهموا منها إلا أن على الناس أنفسهم من كل قيد ، لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة .

وتجلى أثر الحضارة الغربية والتفكير الاوروبى فى دعوات كثيرة برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأى العام فى مستهل القرن العشرين . أما الدعوة الأولى فقد كانت تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة . وأما الدعوة الثانية فقد كانت تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ،

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ١ : ٢٦٣ .

(٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ .

(٣) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٨٩ .

على النمط الذى قامت عليه النهضة الأوروبية الحـديثة بعد التخلص من نفوذ الكنيسة ، وتطالب من رجال الدين أن لا يقحموا الدين فى شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغى أن تتجاوز دائرة نفوذه تنظيم صلات المخلوق بالخالق ، أما تنظيم صلات الناس بعضهم ببعض فينبغى أن يترك للساسة وللمتخصصين فى شتى فروع المعرفة . وأما الدعوة الثالثة فقد كانت تنادى بتحرير المرأة — حسب تعبيرهم — وتزعم أن الحجاب قد حال بينها وبين أن تكون عضواً نافعاً فى الحياة ذا أثر فى المجتمع ، على النحو الذى بلغته المرأة الأوروبية .

* * *

أما الدعوة إلى الحرية فقـد شملت العصر كله ، وكانت الأمنية التى يحلم بها الكتاب والشعراء ، لم يكد يخرج منهم أحد على هذا الإجماع . كانوا يطالبون بحرية الفرد فى أن يفعل ما يشاء ، وفى أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وفى أن يدعو إلى الاجتماعات والندوات التى يروج فيها لمذهبه دون قيد .

وكان دعاة الحرية فى كل مكان متأثرين بالثورة الفرنسية خاصة ، وبآراء مفكريها وزعمائها . فالحرية — كما هو معروف مشهور — هى أحد أركان الشعار المثلث الذى اتخذته هذه الثورة ، وهو : (الحرية — الإخاء — المساواة) (1).

وأما المطالبة بالحياة النيابية فقد تزعمها مصطفى كامل ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء ، ولم يزالوا ينفخون فيها من روحهم حتى تقدمت الجمعية العمومية فى مارس سنة ١٩٠٧ بمطالب غاية فى الجرأة ، كان من أهمها طلب دستور وبرلمان (2) ثم نقل كرومر على أثر حادث دنشواى سنة ١٩٠٧ ؛ وقامت من بعد ذلك الثورة التركية ، وصدر الدستور العثمانى فى يوليو سنة ١٩٠٨ ،

---

(1) وهذا الشعار هو شعار ماسونى فى الوقت نفسه . بل هو قد انتقل إلى الثورة الفرنسية عن طريق زعمائها من اليهود والماسون . والكلام فى ذلك يطول ويحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه راجع كتاب (فضائل الماسونية ص ٤ ، ٤٩ ، ٨٩ ، ١٢٣) .

(2) روتشتين ٣٤٥ ، محمد فريد ٥٦ .

فكان لذلك أثر عظيم فى تشجيع المطالبين بالحياة النيابية على المضى فى جهادهم . فقرر مجلس شورى القوانين فى جلسته التى انعقدت فى أول ديسمبر سنة ١٩٠٨ أن يضم صوته إلى صوت الجمعية العمومية فى المطالبة بالحكم النيابى رغم معارضة الخديوى وممثل الاحتلال (١)

وقد قدمت فى الفصل الرابع بعض نماذج من الشعر والنثر فى هذا الصدد . ولكنى أحب أن أشير هنا إلى كتاب ظهر سنة ١٩٠١ وكان قد نشر من قبل مفرقا فى أعداد سنة ١٨٩٩ من صحيفة المؤيد . كان هذا الكتاب من أجرأ ما كتب فى الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية ، وفى محاربة الاستبداد وبيان أثره السيء فى شتى نواحى المجتمع ، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية . وذلك هو كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» للكواكبى (٢) .

يقول الكواكبي فى أثر الاستبداد فى إفساد الأخلاق ، مبيناً أن الإنسان يمتاز بالإرادة ، والاستبداد يفقده الإرادة (٣) :

«لا تكون الأخلاق أخلاقا ما لم تكن مطردة على قانون ، وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس . ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح ، لا نظام ولا إرادة . وما هى الإرادة ؟ هى أم ناموس الأخلاق ، هى ما قيل فيها

(١) روتشتين ٢٣٩ ، محمد فريد ٥٦ — ٦٢

(٢) ولد عبد الرحمن الكواكبي مؤلف هذا الكتاب فى حلب سنة ١٨٤٨ م ورحل إلى مصر حين ضاقت به الحياة فى ظل الحكم العثمانى بعد أن طوف فى كثير من البلاد الإسلامية . وقد نشر فى مصر كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) فى سنتى ١٨٩٩ ، ١٩٠١ . وتوفى سنة ١٩٠٢ . وترجمته الكاملة فى (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) ص ٢٤٩ - ٢٨٠ و (الحركة الأدبية فى حلب) ص ٨٩-١١٢

(٣) طبائع الاستبداد ٩٣

تنظيما لشأنها : « لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة ، هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حتى الحيوانية فضلاً عن الانسانية ، يعمل بأمر غيره لا بإرادته ، ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق في كثير من أحواله ، إنما هو تابع لنية مولاه » .

ويبين الكواكبي الحكمة في احتمال ما في الحرية من مضار لما فيها من مزايا كثيرة . وذلك لأن النهي عن المنكر من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع السليم (١) :

وأقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ . وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة ، وقليل ما هم ، وقليلا ما يفعلون ، وقليلا ما يفيد نهيهم ، لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئا . وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد فيكونون مطلقاً — ولا أقول غالبا — من المتملقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير ، لأن النصح الذي لا إخلاص فيه هو بذر ميت . أما النهي عن المنكرات في الارادة الحرة فيمكن كل غيور أن يقوم به بأمان وإخلاص ، ويوجهه إلى الضعفاء والأقوياء سواء ، ويفوّق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ، ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتحديد النظام ، وهذا هو النصح الذي يُهتدى ويهدي . ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور . أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت أن تحمّل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة

---

(١) طبائع الاستبداد ٩٥ — ٩٦ .

من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية : أى الحرية ».

ويقول فى إفساد الاستبداد للدين(١) :

« والاستبداد ريح صرصر فيه يجعل الانسان كلّ ساعة فى شأن . وهو مفسد للدين فى أهم قسميه : أى الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه فى الأكثر . ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد فى تطهير النفوس شيئاً ، فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقدها فى النفوس التى ألفت أن تتلجلج وتتلوى بين يدى سطوة الاستبداد فى زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق . ولهذا لا يستغرب فى الأسير الأليف تلك الحال أن يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه ، حتى مع نفسه » .

ويقول فى إفساد الاستبداد للتربية(٢) :

« الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس إلى آخره . وينتج من ذلك أنه يربى الناس على هذه الخصال . وبناء عليه يرى الآباء أن تعبهم فى تربية الأبناء التربية الأولى لا بد أن يذهب يوماً عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت تربية آبائهم لهم سدى . ثم إن عبيد السلطة التى لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم ؛ بل هم يربون أنعاما للمستبدين وأعوانا لهم عليهم . وفى الحقيقة أن الأولاد فى عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق ، فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق ، والاعتناء بالتربية حمق مضاعف . وغالبُ الأسراء لا يدفعهم للتوالد قصدُ الإخصاب ، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التى يُحرّمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد

(١) طبائع الاستبداد ١١٢ .

(٢) طبائع الاستبداد ١١٩ — ١٢٠ .

والحماية ، ولذة الإثراء والبذل ، ولذة إحراز مقام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، إلى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت وإلا فزابل النباتات ، ومنحصرة في استفراغهم الشهوة ، كأن أجسامهم خلقت دملا على أديم الارض وظيفتها توليد الصديد ودفعه . وهذا الشره البهيمي الناشئ عن فقدان الملذات العالية المذكورة هو يحمى الأسراء ويرميهم بالزواج والتوالد ، مع أن العرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد ، بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من أعوانهم ، خصوصاً في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها » .

ويقول في بيان أن المجد الصحيح لاينشأ في ظل الاستبداد ، وإنما ينشأ في ظله طبقة من سماهم « المتمجدين » . ووصف التمجد والمتمجدين له بقوله(١) :

« التمجد خاص بالإدارات المستبدة . وهو القربى من المستبد بالفعل ، كالأعوان والعمال ، أو بالقوة ، كالملقبين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل ، وبتعريف آخر : التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الإنسانية . وبتعريف أجلى : هو أن يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وشاماً مشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبيء بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر : هو أن يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم » .

« والمتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة ـ وما يخدعون إلا أنفسهم ـ بأنهم أحرار في شئونهم ، لا يزاح لهم نقاب ، ولا تصفع لهم رقاب . فيحوجهم هذا

---

(١) طبائع الاستبداد ٤٩ — ٥٢ .

المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قِبَل المستبد ، بل للحرص على كتمها ، بل على إظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدّعي خلافها ، بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد ، وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم . وهكذا يكون المتمجدون أعداء العدل ، أنصاراً للجور . وهذا ما يقصده المستبد من إيجاد المتمجدين » .

ويقول : إن الاستبداد يسري في سائر موظفي الدولة المستبدة ، كبيرهم والصغير (١) :

« الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً ، لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار دولته وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه ... إن العقل والتاريخ والعيان ، كل يشهد بأن الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة ، ثم من دونه الوزراء يكونون دونه لؤما ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات .. كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الأمة ، وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء ما لم يتفق معها على المستبد ، وما هو بفاعل ذلك أبداً إلا إذا يئس من إقباله عنده . وإن فعل فلا يقصد نفع الأمة ، إنما يريد تهديد المستبد أو فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره . والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الدولة كما هو في الحكومات الدستورية ... بناء عليه لا يغتر أحد من العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح ، وإن تلهفوا وإن تأففوا . ولا ينخدع النبهاء لهم وإن ناحوا وإن بكوا . ولا يثقوا بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا . لأن ذلك كله ينافي

(١) طبائع الاستبداد ٦٠ — ٦٤ .

سهم وسهدتهم ، ولا ضامن على أنهم أصبحوا يخالفون ما شبوا وشابوا عليه ، بل هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية : أي أموالها . نعم . كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد إلقاء سيفه الأمة لتكسره ، وهو قد ألف عمراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت ، وهو من تلك الأمة التي قتل الاستبداد فيها كل الأميال الشريفة العالية ، حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي ، فلا يكاد يلبس كُمّ ثوبها إلا ويتنمر على أمه وأبيه ، ويتمرّد على أهل قريته وذويه ، ويكظ أسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين أخ أو عدو » .

ويقول الكواكبي إن الاستبداد يفسد الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة ، ويقلب الحقائق في الأذهان وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم(1) :

« الاستبداد يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد . ويجعله حاقداً على قومه ، لأنهم عون الاستبداد عليه ، وفاقد حب وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودّ لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته ، لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها . ومختل الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه ، لأنه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ، ولا شرفاً غير معرض للإهانة ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها . وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها ؟ أين هو من الحياة الأدبية ؟ أين هو من الحياة الاجتماعية ؟ أمّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم ، بعد

---

(1) طبائع الاستبداد ص ٧٨ — ٩١ .

مراتب عديدة ، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم أو كشف الله عن بصيرته . ومثال ذلك الشيوخ ، فإنهم عندما تمسى حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون من أبواب القبور ، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب فى مقتبل العمر ، فى مقتبل الملاذ ، فى مقتبل الآمال » .

« الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فيضنى الأجسام فوق ضناها بالشقاء ، فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة فى الناس . والعوام الذين هم قليلو المادة فى الأصل ، قد يصل مرضهم العقلى إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر ، فى كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التى يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم فى وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم . فيرون ويفكرون أن الدواء فى الداء . فينصاعون بين يدى الاستبداد انصياع الغنم بين أيدى الذئاب ، حيث هى تجرى على قدميها جاهدة إلى مقر حتفها . . . . . . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد . والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الناس الاستبداد فى تسميته النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتوا ، والحمية جنونا ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضا . كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة » .

ويقول(١) : « ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملا ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنون . ولهذا يرسخ الذل بين الأمم التى يكثر أغنياؤها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التى ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك

(١) طبائع الاستبداد ص ٨٣ .

أن ينصب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة ، خوف البُغاث (١) من العقاب ؛ فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار . كأنهم يتوهمون أن داخل رءوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلاً رضاء المستبد عنهم بأى وجه كان رضاؤه » .

هكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحكام وفي المحكومين على السواء ، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن ترد آخر الأمر إلى الاستبداد ، وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع إلى الجهل أو إلى الفقر أو إلى ترك الدين هم بين مغلطين وبين عارفين يمنعهم الاستبداد وخوف الحكام أن يقولوا ما يعرفونه ، وانتهى الكواكبي في آخر كتابه إلى تقديم مجموعة من المشاكل التي تتصل بنظام الحكم ، وضعها بين أيدى المفكرين ، ودعاهم إلى بحثها وتمحيصها ووضع الحلول لها . وختم هذه المشاكل بالمسألة الكبرى وهي : (كيف نتخلص من الاستبداد ؟) . وتناول هذا السؤال الأخير وحده بالتعليق فقال (٢) :

« إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم ، لا تسأل قط عن الحرية ، وقد تنقم على المستبد ، ولكن طلباً للانتقام من شخصه ، لا طلباً للخلاص من الاستبداد ، فلا تستفيد شيئاً . إنما تستبدل مرضاً بمرض كمغص بصداع . وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر . فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يداه إلا بماء الاستبداد ، فلا تستفيد أيضاً شيئاً إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض جديد . إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس ... وتبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به

---

(١) البغاث: صغار الطيور وضعافها .

(٢) طبائع الاستبداد ص ١٧٢ — ١٧٧

الأستبداد ، هو أن معرفة الغاية — ولو إجمالا — شرط طبيعي للإقدام على كل عمل . لكن المعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً ، بل لا بد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الأكثرية .. ثم إذا كانت الغاية مبهمة في الأول ، فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر ، فيفسد العمل أيضاً ، وينقلب إلى فتن صماء وانقسام مهلك . ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص ؛ وإشهارها بين الناس ، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ؛ بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم » .

* * *

أما الاتجاه الثاني الذي تأثر أصحابه بالحضارة الغربية فهو الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . أو فصل الدين عن الحياة وشئونها . ومن المعروف أن ما يسمونه « عصر النهضة » في أوروبا قد جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد التحرر الفكري وبين الكنيسة التي كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعاً شاملاً لا يحد . فسيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدثهم نفوسهم بتجاهل البابا فضلاً عن مخالفته ، ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجوري السابع للامبراطور هنري الرابع ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعلن حرمانه ، وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائبا في « كانوسا » سنة ١٠٨٧ ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش وهو حافي القدمين وسط الثلج في فناء القلعة . ولن ينسى التاريخ من أحرق ومن نكل به تحت آلات التعذيب في محاكم التفتيش من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود . وقد أتاح هذا الصراع الطويل المرير الذي وقفت الكنيسة فيه سداً بين أوروبا وبين التقدم ، وظهر فيه العلماء بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت ، أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكري ، فهدموا الكنيسة وهدموا معها الدين . وانتهى ذلك الصراع الطويل

المرير بانتصار دعاة التحرر Liberalism والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها فى نطاق الدين ، وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وانكمش نفوذ البابا فلم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز ، وأصبحت شئون الدولة وتدبير نظام المجتمع فى يد رجال السياسة . قرأ أصحاب الثقافات الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ . وقرأوا معه فى هذه الكتب أن ذلك قد استتبع تحرير الفكر فنشط من عقاله ، واندفع يرتاد ويكشف فى حرية لا يحددها الخوف ، حتى وضع أوروبا فى مكان الذروة من القوة والمال ونفوذ السلطان والعرفان .

وخيل إلى أصحاب هذه الثقافات أن الشعوب الإسلامية ـ ومصر واحدة منها ـ تعيش فى حالة تشبه حالة أوروبا فى العصور الوسطى، والواقع أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا جزءاً من العالم الإسلامى الذى منى بأسباب التخلف والجهل . وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندر . وقد دفعهم تخلفهم عن ركب الحياة فى كثير من الأحوال إلى التورط فى محاربة بعض العلوم النافعة بدافع من جهلهم لها ، فزعموا أنها تخالف روح الدين .

وقد أدى نظام التوظف الجديد منذ عهد إسماعيل ، وفى عهد الاحتلال الإنكليزى خاصة، إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم فى المساجد ، وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعى فى أيدى أصحاب الثقافة الأوروبية الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه(١) . فكان من جملة ما نقلوه نقلاً أعمى السخرية برجال الدين والاستخفاف بأمر الدين نفسه تبعاً للاستخفاف برجاله .

وكانت هناك قوى خفية غير ظاهرة تؤيد هذا الاتجاه وتمد ناره بالوقود

(١) راجع تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦ (الفقرة ٣ ص ١٨) وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٢٩ .

والخطب ، بما تلفقه من أكاذيب ، وما تزوره من مبالغات ، وماتدبجه من مقالات تلبس ثوب الدفاع عن الحرية ، والرثاء لضحايا الظلم والاستبداد ، وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة في تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيداً لاغتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً ليهود العالم في مقدمة هذه القوى الخفية . فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية - ولا يزال - أن تفسد التفكير الاسلامي والمسيحي على السواء نشراً للفوضى ، التي يظنون أنها هي السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب مايتوهمونه ، وكان الاستعمار الطامع في اقتسام العالم العربي والاستيلاء على ثروته وأسواقه ، شريكا للصهيونية العالمية في هذا التدبير .

ومما يصور هـــذا الاتجاه الفكري ما كتبه عبد القادر حمزه في سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « خطر علينا وعلى الدين » وهو واضح الدلالة في تأثر صاحبه بتاريخ النهضة الأوروبية ، وفي دعوته إلى اقتفاء أثرها . وقد جاء فيه (١) :

« . . . ولقد كنت منذ عامين أحببت أن أكتب الكلمة التي أنا اليوم كاتبها نصيحة لأمتي واحتراماً لدينها . ولكني اعترتني الرهبة ، وخشيت أن استقر ذهنها لدعوة كنتُ لا يزال يعتريني بعض الشك في صحتها ، ففضلت أن أطويها خاطراً في صدري . وتركت الزمن أن ينضجها ، بعد أن تثقف وتصقل في نار البحث والتدقيق . . والآن بعد مرور عامين طويلين ، قلبت فيها تلك الدعوة على جميع وجوهها ، وعرضتها على محل النقد والمناقشة ، لا أجدني أخطأت إلا في عدم الجهر بها إلى الآن ، مع شدة احتياجنا إلى معرفتها والعمل بها ، سيما في هـذه الايام التي شاعت فيها كلمة الدين من أناس اتخذوها تجارة ، فلم يعد همهم إلا أن ترددهـــا أفواههم صباح مساء وسيلة للتغرير ، واحتيالا لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة

---

(١) المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ — ٢٤٠ . وقد رد عليه رفيق العظم في عدد مايو سنة ١٩٠٤ بمقال يحمل العنوان نفسه : « خطر علينا وعلى الدين » ، كما رد عليه محمد كرد علي في العدد نفسه بمقال عنوانه « الدين والعامة » .

ودينها ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل ، فكانت النتيجة وبالاً على المسيحية والمسيحيين » .

ثم عرض موضوعه بعد هذه المقدمة فقال :

« قالوا إن الأمة إذا كانت جاهلة متأخرة ، ثم قدر لها أن تخطو إلى الأمام وتنهض راغبة في التقدم ، فلا بد لها من أدوار كثيرة طبيعية تتناوبها واحداً بعد الآخر . وأول هذه الأدوار أن يكثر فيها الناصحون والمرشدون ، فلا يزالون يقرعون الآذان إيقاظاً للنائم ، وتنبيهاً للغافل ، ولا تزال الأمة تغضى عن أكثر ما يقولون ردحاً من الزمان ، حتى يتأثر مجموعها ، كما تتأثر الصخرة الصماء من قطرات الماء ، فتهم إلى السعى وإتباع القول بالعمل ، وحينئذ يصح أن يقال إنها نشطت من عقالها ، وقامت تنفض الغبار عن أكتافها ، ودخلت في دور آخر هو دور الحياة والعمل .

« فإذا صح قولهم هذا ـ وهو مما لا شك فيه ـ وصح أن الأمة المصرية كانت ولا تزال متأخرة جاهلة ـ ولا أخال مصرياً ينكر ذلك ـ فإنها في الدور الأول من نهوضها . ولذلك تجدها على كثرة الصائحين بينها والهادين فيها ، تكاد لا تفقه كلمة من عشر كلمات يلقيها عليها الناصحون والمرشدون ، وخليق بنا ونحن لانزال في أول الطريق أن نتساءل : إلى أين نساق ؟ ... وأى سبيل نتبع ؟ . . . وهل فيما نحن سائرون إليه نفع أو ضرر حتى لا نرمى بقصور النظر ولا نكون كالتائه في البيداء لا يعلم إلى النجاة أم إلى الهلاك يذهب ؟ . . . دُرْ في البلاد طولها وعرضها واستجل غوامض أفكار أبنائها ، وسل كل من تريد منهم عن أسباب تأخرنا وانحطاطنا ، ثم عن الطريق الذى يؤدى إلى نهوضنا وارتقائنا ؛ وبالجملة عن دائنا ودوائنا تجده ـ مهما أطال في الشرح وعدد من الأسباب ـ لا يحوم إلا حول سبب واحد تنتهى إليه جميع الأسباب . وهـــذا السبب هو الدين . فتركه والجرى على خلافه هما علة ما نحن فيه . والعمل به هو الدواء الوحيد لشفائنا من كل ما أصابنا من الأمراض . دع هؤلاء وراقب معلمى أبناء الأمة ومربى أطفالها

واستطلع خلاصة ما يبثون من النصائح والإرشادات ، تجد أن الدين هو القدوة التي يغرسونها في الأذهان ، مثالا لكل كمال ، ومنبعاً لكل حياة ، وأساساً لكل عمران » .

ويعض الكاتب في استقراء طبقات الأمة المختلفة ، من كتاب وشعراء وصحفيين ، مصوراً إجماعهم على أن إهمال الدين هو علة تأخرنا . ثم يقول :

« هذا كله ، وكثير غيره لا يتسع المقام لإفاضة الشرح فيه ، يدل على مبلغ تسلط الدين على عقولنا ، والخداع أفهامنا انخداعا لا مثيل له لكل ما يأتي من جانب الدين . بل يدل على استسلامنا استسلاما أعمى إلى ماضينا الذي يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد ، إن كنا نريد أن لا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء » .

ويهاجم الكاتب الذين يقحمون الدين في كل شيء تقربا إلى العامة الذين استولى عليهم ما يسميه الكاتب هوساً دينياً ، ويقول : إن الذين ينادون بالدين هم أجهل الناس بالدين ، ولكنهم يتاجرون باسمه ، ويتخذونه مطية للتغرير والتضليل . ويعلل الكاتب ذلك بما ورثناه من الميل إلى تقليد أسلافنا المعروفين بالتقوى والورع . ثم يقدم أمثلة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ماضيها وحاضرها ، وقف فيها رجال الدين الذين أساءوا فهمه في وجه العلم والعلماء واتهموهم بالخروج عليه . ويختم هذا العرض متسائلا « هل في النداء بالدين فائدة ؟ ... » فيقول : إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالي المضر . ثم يقول :

« هذه بلاد أوروبا كان أهلها قبل العصر الذي يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعرى الدين المسيحي ، متشيعين لكل ما يأتي من جانبه . فما زالوا يتغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين برمته في الكنيسة . ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم ، توجههم إلى الحروب الصليبية ، فيعانون المشاق ويكابدون الأهوال

ويملكون ألوفا ومئات ألوف حباً في الدين ، ثم تستأثر بالأموال فلا تجد منهم إلا ملبين خاضعين ، يقدمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين . ثم تستولي على الكتاب المقدس وتحرِّم على غيرها فهمه وتفسيره . فيتلقون أوامرها بالرضى والطوع عملاً بأوامر الدين . ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين . وما زالت على حالهـــا ، تفتئت كل يوم على الدين باسم الدين . والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمى الدين يتفانون في الجهاد غيرة عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان ، وابتدأ دور النهضة ، فقام القسوس وقعدوا ، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ، ينادونها : الدين الدين ! اطلبي الكمال والرقي والنهضة من جانب الدين ، وظلوا يصدعون آذانها بهذا النداء ، حتى تنبهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوَّروه لها ، فنبذه البعض ، وضعفت سلطته على البعض الآخر » .

ويختم الكاتب مقاله مطالباً بأن يُترك الدين بيننا في زيه الحقيقي ، ذلك الثوب الأبيض الطاهر ، وأن لا تنفِّر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً . ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها ، دون تقييد أو تحجير على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين .

كانت الحضارة الاوروبية والثقافة ، تغزو الشرق الإســلامي ، وتغزو تركيا نفسها ، في أشكال مختلفة : معاهد علمية ، وشركات أجنبية ، وبضائع وملابس ، وفرش ، وأثاث ، وقد دأب أبناء الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستوزرين والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب . وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان ، وإعجابا بنظامها المحكم الدقيق وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها الكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى (١)

(١) راجع مشروع اللائحة التعليمية التي كتبها محمد عبده في بيروت سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٩ م) في تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٥٠٥ — ٥٢٢

وكان السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . فالذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد . والذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية ، بوصفه خليفة للمسلمين فى جمع السلطة فى يده ومحاربة أعدائه ، وكان العرب منهم يطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطاناً ، وبأن تكون الخـــلافة أو الولاية الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم أقـــدر الناس على فهم الدين . أما الترك فكان أكثرهم من المتأثرين بالفكر الإلحادى الذى كان يجتاح أوروبا باسم (التحرر Liberalism) وبكتاب الثورة الفرنسية ومفكريها ، وكان كثير منهم واقعاً تحت سيطرة الصهيونية العالمية .

وكان كل ما كتب من هـــذا اللون يطبع فى مصر ، لتعذر نشره فى أى قطر من الأقطار العثمانية . وكانت كثرة هذه الكتب تصدر عن الشام ، ولكنها كانت تطبع فى مصر ، وتقرأ فى مصر ، ولا تكاد تصل فى الأقطار العثمانية إلا بطريق التهريب غير المشروع .

ومن هـــذه الكتب التى طبعها الشاميون فى مصر كتاب (أم القرى) للكواكبي (١) . وقد عالج فيه أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها . ودعا فى آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحا جعل الخلافة فى العرب والسلطنة فى الترك محاولا التدليل على أن الترك يقدمون السياسة على الدين ، وأن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب رعاياهم من

---

(١) طبع فى مصر سنة ١٨٩٩ . ومؤلفه هو مؤلف (طبائع الاستبداد) الذى أشرنا إلى ترجمته فى هامش ص ٢٤٦ .

المسلمين ص ١٦٣) وهو يسوق فى هـذا السبيل جملة من الوقائع التاريخية ، ليثبت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين فى سبيل إدراك كسب سياسى يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم ، (ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧١) فيزعم أن السلطان محمد الفاتح قد اتفق سراً مع فرديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر ، آخر الدول العربية فى الأندلس ، ورضى بما جرى على خمسة ملايين من المسلمين من التقتيل والإكراه على التنصر . فشغل أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين ، وذلك فى مقابل ما قامت له به روما من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية(١). ثم يقول: إنه بينما كان الأسبانيون يحرقون بقية العرب فى الأندلس ، كان السلطان سليم يستأصل آل عباس بعد أن غدر بهم ، مجاوزاً فى ذلك كل حد ، حتى قتل كل حبلى من النساء . ويقول كذلك : إن السلطان عبد المجيد رأى أن من مؤيدات إدارة ملكه أن يبيح الربا والخمور ، وأن يبطل الحـدود . ويزعم أن الترك هم الذين أعانوا الروس على التتار المسلمين ، وأعانوا هولندا على جاوة والهند (ص ١٦٥) ، وتركوا المسلمين أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع ، وتركوا المسلمين عميا بكما عميا ولا مرشد (ص ١٧١) . ويقول المؤلف : إن لقب الخلافة إنما طرأ على العثمانيين فى زمن متأخر ، حين كان بعض وزراء السلطان محمود يخاطبونه بهذا اللقب تفننا فى الإجلال وغلوا فى التعظيم ، ثم توسع الناس فى ذلك من بعد (ص ١٦٧) .

وقد عدد المؤلف فى كتابه هذا مزايا العرب التى ترشحهم لخلافة المسلمين ، فهم

---

(١) المعروف أن محمد الفاتح استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ : وأن فرديناند وإيزابلا لم يعتليا عرش أسبانيا إلا سنة ١٤٧٩ م . وقد توفى محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ومملكة غرناطة الإسلامية لا تزال قائمة . ولم تسقط فى يد فرديناند وإيزابيلا إلا سنة ١٤٩٢ : ولم يتعرض مسلموا الأندلس للتقتيل والتنصير إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . وهذا يصور أن الدعاوى التى جاءت فى هذا الكتاب وأمثاله كانت تقصد إلى التشنيع والإثارة ، ولا تقوم على التحقيق العلمى الدقيق النزيه .

مشرق النور الإسلامى ، فيهم الكعبة والمسجد النبوى والروضة الطاهرة ، وبلادهم متوسطة فى موقعها الجغرافى بين المسلمين . وهى أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسيّة وأديانًا ومذاهب . وهى أفضل أرض لأن تكون ديار أحرار ، لبعدها عن الطامعين والمزاحمين . وأمراؤهم يجمعون بين شرف الآباء وشرف الأمهات ، لبعدها عن اختلاط الأنساب بالإماء من الأجنبيات . . . إلى آخر ما يعدّد المؤلف من مثل هذه الصفات (ص ١٥٤ — ١٥٨) .

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل خلافة المسلمين للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية (ص ١٦٩ — ١٧١) ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها فى شئون السياسة العامة الدينية . فليس من حقه أن يتدخل فى شىء من الشئون السياسية والإدارية فى السلطنات والإمارات . ولكنه يصدق على توليات السلاطين والأمراء احترامًا للشرع . ويُذكر اسمه فى الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يذكر فى المسكوكات . وهو يتولى بعد ذلك رياسة هيئة شورى إسلامية ، تنعقد مدة شهر فى كل سنة ، قبيل موسم الحج فى مكة .

ويبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات ، ويستحسن أن يكون هذا الخليفة قرشيًا (ص ١٦٨ — ١٧٠) .

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة ، مثل ما جاء فى تحديد وظائف الشورى العامة التى لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل فقال فيما قال : « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب . . » (ص ١٦٩) ومثل قوله : والغالب أن الدول المسيحية التى لها رعايا من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من أن يجرجع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حروبًا دينية ، فتعمد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول

هذا الارتباط أساساً ، فما هو التدبير الذى يقتضى اتخاذه أمام تهذر الدول ؟ » (ص ١٧٢) ورد على ذلك بكلام طويل ، فى أن المسلمين المتنورين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة والثبات على العهد ، وأن الجهاد فى سبيل الله ليس محصوراً فى مجرد محاربة غير المسلمين . فكل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً ، وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة فى نفوس الدول الأوربية : « ولدى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة . وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم ، كما أنهم لم ينفروا من الأمم التى حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك ، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله ، لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ . فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية ؛ بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذى قرأته عليك » (ص ١٧٤) .

وكلام الكواكبى هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الأمم الاستعمارية عن الجامعة الإسلامية ، من تخيل الخطر الذى يهدد الغربيين فى اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام الذى يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين ، والذى يعتبر هذا الجهاد ركناً من أهم أركان الدين .

على أن الناظر فى كلام الكواكبى يجده متأثراً بفكرة البابا الذى اتخذ مقره فى روما ، مهد المسيحية الأولى فى أوروبا ، والذى يرأس المجمع الدينى ، ويتوج الملوك رعاية لسلطان الدين . كما أن الناظر فى كلامه يريبه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ، ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم ، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرها تفسيراً غريباً . كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين

ما تكشفت عنه الأيام من حوادث الثورة العرابية بتدبير الإنكليز سنة ١٩١٩ .

ومن هذه الكتب التي طبعها الشاميون في مصر كتاب للبستاني سماه (ذكرى وعبرة — الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده[1]) طبعة سنة ١٩٠٨ ، وصور في شطره الأول فساد الحكم العثماني قبل صدور الدستور الذي أكره السلطان عبد الحميد على إصداره في يوليو سنة ١٩٠٨ ، وصور في الشطر الآخر بعض الآمال التي يعلقها اللبنانيون على العهد الجديد ، الذي وضع — في نظره — حداً للظلم والفوضى والإرهاب .

يقول البستاني في تصوير فساد الحياة الاجتماعية وتحكم الظلم والاستبداد :

« ولكن هذا الجسم[2] على قوته الكامنة ، وإن شئت فقل : على ضعفه الظاهر — لم يقو على تحمل أذية الحكومة الغابرة ، بما انتابته من ضروب الظلم في عصر ليس كالعصور السالفة ، يساق الناس فيه سوقاً ، ويتخذ فيه من دون الله أرباب ظالمون . فألوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتنفتنا من الجهات الأربع . هذا : وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا في ظلمة مدلهمة . . . فمعظم الشكوى إذن ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وإن كانت دولة هذا الحكم قد دالت . وإنما هو من ذلك الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذي أباح الموبقات واستباح الحرمات . استبداد حكم الأنذال برقاب الرجال ، فتنكس الرءوس وتذل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعنت عن هوى تميل به النفس إلى حيث لا تدري ، ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غداً ... الخ ص ١٨—١٩ » .

ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي الحياة ، حتى بات الناس مراقبين في كل حركاتهم . يحصى عليهم الجواسيس

---

(١) وشبيه به كتاب (ما هنالك) الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦ م ولم تصرح باسم كاتبه . والمعروف الشائع أنه هو المويلحي .

(٢) يقصد جسم الدولة العثمانية .

أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق فى دياجى الظلام فيختطفه من بين ذويه ليزُج به فى السجون ، أو يُقذف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يلق به فى مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة .

« وهـــذه القيود والأغلال فى أعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما أثقلتها المعاصم والأقدام . وهذه بنغازى ، وبعض المدن النائية فى أطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هـذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث . فيقذف بها إلى ذويه خشية أن تبيت دفينة فى بطون الحيتان ـ ص ٢٥ » (١) .

ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة من خطر الوشاية فيقول :

« كانوا سجيني فى بيوتهم توجس منهم الخيفة ، إذا تجاوزوا الأبواب ، وعليهم العيون مبثوثة فى المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لصوق الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم فى بيوتهم ، أم جالسون بين خدمهم فى غرف نومهم ومطابخهم لا يجسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يجيل الفكرة طويلا قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تؤول أو تنقل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه . ولهـذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد . حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم ، وطلبوا ملجأ يتقون به شر السفايات ـــ ص ٦٣ » .

ويصور هذه الأداة المخيفة التى كانت تبعث الرعب فى قلوب الناس كبيرهم والصغير ، وهى التى يطلق عليها (الخفية) فيقول :

« أما الخفية عندنا فلم تكن على شىء مما تقدم ، بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل فى تاريخ العـالم . أقيمت لهـا دائرة منظمة فى المابين ، ودعى رئيسها بأسماء لا يدل منها شىء على مسماه ، كقولهم : مدير سياسة المابين

(١) وراجع كذلك مقالا لولى الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا فى مياه البسفور ، وكان نشره فى صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور فى إحدى ليالى الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ — ٧٦)

أومدير السياسة Directeur de la politque du palais Imperial الخارجية . ولم يكن يباح لأحد أن يدعوه باسم رئيس الخفية . . . وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعب العروق فى الجسم ، إذ كان عمالها مبثوثين فى كل دوائر الحكومة ، من الباب العالى ، إلى النظارات المنفصلة عنه إلى كل فرع من فروعها . وهناك شعبة منها لقراءة الكتب والجرائد وترجمة ما كان منها باللغات الأجنبية . وهناك أيضاً عمال مقيمون خاصة لتناول زبدة الأخبار وتقديمها إلى المراجع العليا. وكم كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعدل على هواها ، أو تستنبط من خيلاتها ما لم يكن له أثر فى تلك التقارير ، فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الأعظم . ص ٨٤ — ٨٥ » .

ويصور إسراف عبد الحميد فى التضييق على الصحافة فيقول :

« فكم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزمن محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوروبا ينبىء بمقتل وزير فى الصين أو أمير فى إفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير فى الهواء أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة أمر بتعطيلها ، وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً غير (الإيجاب) ، بل كم من مرة انقضت الصواعق على رأس الصحافى لجهله أن هذه الكلمة أو تلك قد انتزعت بحكم الإستبداد من معجم الألفاظ الكتابية ، كالقانون الأساسى ، والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية ، والديناميت ، والثورة ، والإنصاف ، والحرية أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الإنشاء ، كقولك : العدل أساس الملك ، والظلم مرتعه وخيم ، والحرية منتهى غايات الأمم . بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفاً عرف به علم مشهور ، كعبد العزيز ومراد ورشاد ص٢٢ — ٢٨ » .

ويصور القيود المفروضة على حرية التأليف فيقول : إن هذه القيود لم تكن تحدوها إلا (الإرادة السنية) ولم يكن يباح نشر كتاب من الكتب إلا بعد أن يعرض على (مجلس التفتيش والمعاينة) فى الأستانة نفسها ، فيقرأ حرفاً حرفاً ويتعرض خلال ذلك للتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، ثم تختم كل صفحة

من صفحاته إن أسعد صاحبه الحظ بالموافقة على نشره بعد طول الانتظار، والويل له إن وشى به واش بأنه غير حرفاً أثناء الطبع ، هذا إلى أن التأليف لم يكن مباحاً إلا فى التافه من الأغراض التى لا تغنى شيئاً فى تثقيف العقول أو إعلاء الهمم : وقد كان يبدو للرقابة فى بعض الأحيان أن تصادر كتاباً وتعيد النظر فيه بعد أن يقرأ ويتداول بين أيدى الناس أزماناً ، لكلمة أو لعبارة تذيبت الرقابة إليها بعد حين أو قد يزج بصاحب الكتاب أو بائعه إلى ظلمات السجن ، وكثيراً ما كانت تتعرض المكاتب العامة والخاصة للتفتيش المفاجىء ، وكثيراً ما كان يتذرع الوشاة بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة ، حتى ضاق تجار الكتب وهواتها بها ، وأصبحوا يفرون من اقتنائها (ص ٤٠ — ٤٦) .

ولم تسلم الرسائل بعد ذلك من المراقبة ، حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد إلى صديقه يحسب أن عيناً أثيمة تنظر إلى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل أن يقع تحت نظر صاحبه ، فيودع كتابه من العبارات ما يرد أشر الوشاة وشبهات المتعنتين ص ٥٠ » ، وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الإختام ولو كانت بالشمع، حتى يخيل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الإحاطة بجميع وسائل فض الأختام لرقوا بالبلاد درجات . ص ٥١ ، لذلك كان الناس يفضلون التراسل عن طريق مكاتب البريد الأوربية المنبثة فى سائر الأقطار العثمانية . وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتمتع بحماية الدولة التى يتبعها ، مما يمنع يد الرقابة أن تصل إليه . وقد كانت هذه المكاتب تخدم أنصار الفساد وأعداءه على السواء . فقد كان الثوار والمتآمرون على عبد الحميد يتبادلون الأخبار عن طريقها . وكان رجال عبد الحميد يهربون ما يجمعون من المال الحرام عن طريقها . (ص ٤٧ — ٥٤) :

ثم يروى المؤلف أن الجماعات والأندية كانت خاضعة لمثل هذه الرقابة . فلم يكن يسمح بتأليفها ، إلا ما كان منها خيريا محضا ، حيث لا بحث ولا خطابة . ومن طرائف ما يروى المؤلف فى هذا الباب عن (جمعية المقاصد الخيرية) التى

ألفها وجهاء المسلمين في بيروت لإسعاف الفقراء وتربية الأيتام وإنشاء المدارس ، أن الوشاة وشوا بتلك الجماعة ، فقالوا : تلك جمعية ينم اسمها عن مرمى خفي . ولا حاجة بالجمعيات الخيرية أن يكون لها (مقاصد) . فلا بد من أن تكون تلك المقاصد لأمر آخر . فاقضوا عليها قبل أن تقضي عليكم . (ص ٥٨)(١) .

وبمثل ذلك تناول المؤلف فساد نظم التعليم الذي حرمته الرقابة من كل علم نافع ، وضيقت فيه على العقول حتى حار المعلمون في أمرهم ، وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية أو حسابية صرفة يخشون أن توجس منهم إشارة إلى عدد يوافق أعداد سني الظلم ، أو فتحة أو كسرة تشيران إلى فتح الأعين وكسر القيود — ص ٢٦ ، وقد أدى ذلك إلى أن يلجأ الناس إلى المدارس الأجنبية ، التي كانت متمتعة بحرية حرمت على سواها ، ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال . وبذلك نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياتنا » .

هذه صورة مما آل إليه فساد الحكم كما عرضها أحد الشاميين . ومهما يكن من إنصافه وحياده فيما قال ، أو مبالغته وتحامله ، فذلك ما شاع وما تناقله الناس — وأعان الثوار من الأتراك — والأوربيون الذين كانوا يبيتون النية على اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، على نشره والمبالغة في تصويره والتهويل من شأنه . ولكن أثر ذلك كان محدوداً في الشعر ، وخاصة في مصر ، ولما قدمنا في الفصل الأول من أسباب .

فمن ذلك قول نسيم من قصيدة رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ، ينصحه فيها بالاستجابة لدعوة المصلحين(٢) :

وليت بلاداً حلّق الجور فوقها ... وحطّ عليهـا كالعقاب فنحيا
تنادي فيها الحادثات أديبها ... وتنبذ منهـا الحاذق المتعلما

---

(١) ص ٥٨ من المرجع السابق .
(٢) الديوان ١ : ٢٩ .

إذا لم تداركْها برأي وحكمة   تبيت افتتاح الممالك مغنما
بحيث يكون الملكُ فرما مشذّبا   وحيث يصير التاج نهبا مقسما
هناك يبيد اللهُ شعبك مثلما
أبادت صروفُ الدهر طسماً وجرهما[1]
فهل لك أن تجرى العدالة بينهم   فيابهج بالشكران من كان مسلما
دع العلم ينشر فى البلاد لعله   يكون لإدراك السعادة سلما
وأقص الجواسيس الذين تألبوا   على ضفة البسفور جيشاً عرمرما

ويقول فى قصيدة أخرى[2] :

إلى الله يرفع هذا الأنين   ليضرب فوق يد الظالمين
بلاد غدت ملجأ الطغام   وكهفاً تموج بالفاجرين
فيا عين نوحى على حالة   ستدمى المآقى بدمع سخين
ويا قلبُ صبراً لعل الزمان   يثيخ على العصبة الكاذبين
ويا سيدى أجب الشعب عاما   يلبُّ نداءك طول السنين
فتلك الجواسيس أودت بنا   وهم يلعبون بدنيا ودين
أنصغى إلى الزور من قولهم   وما هو منهم بقول مبين
وتنفى العباد بلا زلة   وما هم من الفئة الآثمين
فراقب إلهك فيما بقى   وإلا فقفا كله بعد حين
ولا ترج تكدير ملك صفا   بظلم كما كدّر الماء طين
فما أيّد الله من مالك   بغير العدالة فى العالمين
ومن أين يعرف سلطانُ قوم   إذا ما تنفى قومه أجمعين ؟...

ويقول حافظ ، من قصيدة بعث بها إلى داود عمون الشاعر اللبنانى ، يدعوه

(١) طسم وجرهم قبيلتان من قبائل العرب البائدة .
(٢) الديوان ١ : ١٢٤ تحت عنوان (أجب الشعب يا أمير المؤمنين) .

إلى الهجرة لمصر(١) :

ورخل أقام بأرض الشآم فباتت تدل على جارها
وأضحت تتيه برب القريض كتيه الوادي بأشجارها
وللنيل أولى بذاك الدلال ومصر أحق ببشارها
فشمّر وعجّل إليها المآب وخلّ الشآم لأقدارها
فكيف امرئ أطلقت المقام بأرض تضيق بأحرارها ؟ . .
وأنت المشمّر إثر الظلا م تسعى إلى محو آثارها

ويقول على لسان بعض المتصوّفة فى محبوب نافر ، معرّضاً بالشيخ أبى الهدى الصيّادى ، الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم فى بلاط عبد الحميد ، مشيراً إلى ما شاع من أمر غلامه (شكيب) ، وصلته المريبة به(٢) :

أخرقُ الدفّ لو رأيت شكيباً وافضُ الأذكارَ حتى يغيبا
هو ذكرى وقبلتى وإمامى وطبيبى إذا دعوتُ الطبيبا
لو ترانى وقد تعمدت قتلى بالتنائى رأيت شيخاً حريبا
كان لا ينحنى لغيرك إجلا لا ولا يشتهى سواك حبيبا
لا تعيبنهُ يا شكيب ديبى (إنما الشيخ من يَدبُّ دبيبا)
كم شربت المدامَ فى حضرة الشيـ خ جهاراً وكم سقيتَ الحليبا ؟ !
فسلوا سبحتى ، فهل كان تسبيـ حى فيها إلا شكيباً شكيبا ؟

ويقول ولى الدين ، مشيراً إلى إلقاء أحد الضحايا فى مياه البسفور ، بعد اختطافه من بين أهله فى ظلام الليل(٣) :

---

(١) الديوان ١ : ١٦٨ .

(٢) الديوان ١ : ١٩٠ ، ويراجع فى قصة أبى الهدى وشكيب وهربه إلى مصر سنة ١٩٠١ واستغلال الخديوى عباس له فى التشنيع بأبى الهدى الصيادى ، وما جرى من مفاوضات لإعادته للآستانة : مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٤٨-٣٥٢ .

(٣) الديوان ص ٦ ، الصحائف السود ص ٧٢ .

في ليلة ليس بها كوكب ... كأنما مشرقها مغرب
يمسي سواداً كل ما بينها ... ففوقها وتحتها غيهب
لا يدرك الفكر بها مطلبا ... فكل ما يطلبه يرهب
جاءوا بمظلوم إلى ظالم ... قالوا له هذا هو المذنب
بكى وفى الدار بكوا مثله ... فكل من فى داره ينحب
وقد رأينا حوله صبية ... يندب حزن أمهم اندب
قالوا اجعلوه مثل أترابه ... من كان من مذهبه يذهب

. . . .

. . . .

واقبل الصبح على أيم ... وصبية ليس لديهم أب
يا بحر لو تنطق أخبرتنا ... ما قال مَن غُيِّب إذْ غيّبوا

على أن مثل هذا الشعر الساخط كان أكثر انتشاراً فى الشام . وإن كان أكثر أصحابه يكتمونه فيتداول شفاها أو ينشرونه بأسماء مستعارة . وكان أكثر ما يذاع منه ينشر فى مصر لما قدمناه فى الفصل السابق من أسباب . فمن ذلك قصيدة للشاعر سليم عنحورى يروى فيها قصة لص دفعته الحاجة إلى السرقة ، فزج به فى السجن . ثم ذهبت زوجته تلتمس نجاته بالرشوة ، فلم يرض المرتشين من الحكام إلا أن يجعلوا إلى الرشوة مساومتها على عرضها (١) .

يقول فى تصوير فقر اللص الذى دفعه إلى السرقة :

صبية بعضهم يسبق البعـ ... ـض هزالا بفضل سوء الغذاء
وبنات مثل الملائك حسنا ... عاريات يندبن حال الشقاء
حول أمّ تقرّحت مقلتاها ... من دواهى الزمان والأرزاء
تشتكى البرد . لا كساءُ يقيها ... لدغة القرّ ، ولا وقود اصطلاء

(١) المقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٠٤ ص ٦٧٩ — ٦٨١ .

كم نهار ، كم ليلة قد قضتها فيه نوح وحسرة وبكاء
ظلمات صواعق وبروق ورياح تهبّ فصل الشتاء
لا بساط ولا فراش وثير لا سراج يُنيل بعض الضياء
شرفات بلا سدول وسقف دامَ بالوكفِ قطراً سيلَ ماء

ثم يقول فى سعى زوجته لإنقاذه :

زوجة اللص بادرت بعد شهر نحو مَغنَى رئيس رهط القضاء
حال دون اللقاء حُجّابُ باب فحتهم بليرة صفراء
أدخلوها مقصورةً ذات عرش فوقه ماكر كثير الدهاء
قبّلت مُذنبَ ثوبه ثم خرّت فرماها بنظرة الكبرياء
سألته فكاك زوج أثيم رحمة بالبنات والأبناء
وحبته بعض المئات نقوداً فاحتواها بغلظة وجفاء
قال هلا أقنعتِ بعض رفاق فقوام العروس بالأعضاء
خرجت تذرف الدموع غزارا نحو عضو يعز بالفحشاء
رام منها لكى تنال رضاه ما إليه نشير بالإيماء

ويختم قصيدته مقارناً بين اللص الصغير السجين واللصوص الكبار الطلقاء.
فيقول :

لزم السجنَ زوجها ورجال البـ ـغى فازوا بسؤدد وعلاء
واللصوص الكبار صاروا قضاة واللصوص الصغار أهل الشقاء
سلبوا المال رشوة واستباحوا الـ ـعرض جهراً وهم من العظماء
وإذا قيل : مَن لنَيْل المعالى ؟ قيل : هذا وذاك ، دون امتراء
وإذا عدّ معشرُ الفضل يوما حسبوهم من أفضل الأذكياء
أبهذا ومثل هذا صلاحٌ ؟ لا ، وربِّ الأنباء والأنبياء (١)

---

(١) تراجع أمثلة أخرى لمثل هذا الشعر فى (شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام) ص ١١ — ١٥ .

هذه صور مما كان يذيعه فريق من الكتاب والشعراء عن اضطراب الحكم العثماني وفساده ، كان لها أثر ملحوظ في مطالبة الناس بتقييد سلطة الحكام ، وبفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

* * *

أما الاتجاه الثالث الذي تأثر أصحابه بالحضارة الأوروبية وهو المطالبة بما سموه (تحرير المرأة) والدعوة إلى تمكينها من المشاركة في الوظائف والأعمال العامة — فقد كان يتصل اتصالا وثيقاً بالاتجاهين السابقين ، لأنه يعتمد أولا على أن الحرية الشخصية قد أصبحت في العصر الحديث حقاً لكل إنسان — ذكراً كان أو أنثى — ثم هو يعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعي من سلطان رجال الدين ، والزعم بأنهم يصدرون فيما يحلون وما يحرمون عن اعتبار التقاليد والأوهام التي ورثناها عن أسلافنا جزءاً من الدين .

وقد كان أهم ما ظهر في هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين — الذي اقترن اسمه بعد بلقب (محرر المرأة) — وهما : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) . وقد طبع الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ . وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد في الصحف طوال نصف قرن .

أما كتاب (تحرير المرأة) فقد انصرف جهد المؤلف فيه إلى التدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني (المرأة الجديدة) فأقام بحثه فيه على الإحصاءات التي تدعمها الأرقام والوقائع ، وتؤيدها آراء لبعض كتاب الغرب ومفكريه .

يرى قاسم أمين في كتاب (تحرير المرأة) أن « الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً يمكن أن يجد في كل زمان وكل أمة ما يوافق صالحها . . .

أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العادات والمعاملات ، فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان . وكل ما تطلبه الشريعة فيها هى أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ص ١٦٩ ، ولكننا ظلمنا الإسلام وعرضناه لأن ينسب إليه الغربيون تأخر المرأة الشرقية . ولو كان لدين من الأديان سلطة على العادات لكانت المسلمة فى مقدمة نساء العالم ؛ لأن الإسلام سبق كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة بالرجل (ص ١١) ، وهو يتناول فى كتابه أربع مسائل وهى : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . ويذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام .

أما الحجاب : فهو يعتبره أصلا من أصول الأدب يلزم التمسك به . ولكنه يطالب بأن يكون مطابقاً على الشريعة الإسلامية (ص ٥٥) . ثم يقول : إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة . وإنما هى فى زعمه عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين ، والدين منها براء (ص ٥٩) . ويورد قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ...﴾ ثم يقول : إن الآية قد أباحت أن تظهر

بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها(١) غير أنها لم تسم تلك المواضع ، وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها وتحديدها إلى ما كان معروفا في العادة وقت الخطاب، واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية . ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخر كالذراعين والقدمين . ويمضي قاسم أمين في التدليل على فساد الحجاب ، فيقول : إن للمرأة حق التعاقد شرعا ، فكيف يتعاقد معها الرجل دون أن يتحقق من شخصها ، ويقول : إن الشرع قد أباح للخاطب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها ، ولكنا ضيقنا على أنفسنا فيما وسع الله . ويرد على الذين يتذرعون بخوف الفتنة فيقول : إن خوف الفتنة يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال، وليس على النساء تقديره، ولاهن مطالبات به. ثم يتساءل متهكما : ولماذا لا يؤمر الرجال بالتبرقع خوفا على النساء من الفتنة ؟... هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر على ضبط النفس ؟...(٢) ثم ينتقل قاسم أمين إلى الكلام عن الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها وحظر مخالطتها بالرجال . فيقول : إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي ، ويستشهد على ذلك بالآيتين : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا . فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ؛ إن

---

(١) آية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ واضحة الدلالة في إطالة الثياب حتى تستر الوجه والأطراف . وقوله تعالى :﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ واضح في ستر شعر الرأس وستر الرقبة وفتحة الثوب في الصدر . فأي شيء قد بقي من أعضاء الجسم حتى يقال إن الآيات أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة ؟ أما قوله تعالى ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ فواضح أن المقصود به هو استثناء ما لا سبيل إلى ستره ، أو ما تقتضي الضرورة إظهاره . وهو لا يمكن أن يتجاوز اليدين والوجه على كل حال .

(٢) رد محمد طلعت حرب على ذلك في كتابه (تربية المرأة والحجاب ص ٨٣) بأن وظيفة الرجل هي خارج المنزل . أما وظيفة المرأة فهي في داخله ، فتكليفها بالتبرقع أقل ضرراً من تكليف من الأصل في خلقته — بمقتضى الحكمة الإلهية — وجوده خارج بيته . هذا إلى أن الرجل والمرأة كليهما مكلفان بغض البصر ولكن المرأة مكلفة — بالإضافة إلى ذلك — بعدم إبداء الزينة والمحاسن وسترها .

ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحيى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما) . و (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء . إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ...) أما نساء المسلمين عامة فهن فى زعمه منهيات عن الخلوة بالأجنبى فقط . ويستشهد على ذلك بما ينقل عن الطبرى من قصة عمر بن الخطاب وقد دخل عليه ضيف فأمر له بالغداء ، ودعا زوجته (أم كلثوم) إلى مشاركتهما(1) .

أما اشتغال المرأة بالشئون العامة ، فهو يقدم فيه بعض الأمثلة التاريخية التى تصور أن عدداً من النساء قد شاركن فى مصالح المسلمين العامة فى صدر الإسلام فيشير إلى مكانة عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما من رواية الحديث ، كما يشير إلى تدخل عائشة رضى الله عنها فى مسألة الخلافة الهاشمى . وإلى غزو أم عطية مع النبى ﷺ سبع غزوات حيث كانت تخلف المحاربين فى رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوى الجرحى وتقوم على المرضى ، وهو يرى أن الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والإمامة والشهادة فى بعض

---

(1) القصة التى أشار إليها قاسم أمين تدل فى حقيقة الأمر على عكس ما ذهب إليه، وهى فى تاريخ الطبرى ج٣ ص٢٦٠، ٢٦٢ (طبعة التجارية ١٣٥٧ هـ - ١٩٢٩م) فهى تدل على أن زوجة عمر رضى الله عنه كانت تلتزم الحجاب . فهى تعتذر عند دعوتها للطعام بأنها تسمع صوت رجل . وتروى القصة كذلك أن نساء عمر قد انزعجن حين ارتفع صوته (لجأن إلى الستر) والنصوص كثيرة جدا فى شعر العرب وفى المأثور من تاريخهم على أن التزام الحجاب قديم فى نساء العرب وليس طارئا كما زعم قاسم أمين . أما أن التشريع خاص بنساء النبى ﷺ فهو زعم لا دليل عليه تكذبه النصوص التاريخية والفقهية ، ولمن شاء المزيد من التفصيل أن يعود إلى مقالين لى عن (المجتمع المختلط) و (الجنس الثالث) فى عددى جمادى الأولى والآخرة سنة ١٣٧٧ من مجلة الأزهر .

الأحوال إنما روعى فيهما عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى الأسرة وحصر الوظائف العامة فى الرجال ، وهو تقسيم طبيعى . على أن الإســـلام قد خول المرأة حقوقا عظيمة فى كل الأعمال المدنية ، ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل .

أما عن تعدد الأزواج فهو يقول : إن الإسلام قد أنصف المرأة فيه ، ولكن الفقهاء هم الذين انصرفوا إلى مناقشة الألفاظ . ويوازن بين ما يسميه تعريف الفقهاء للزواج ، وبين وصف القـرآن له . فيقول : إن الفقهـاء يعرفون الزواج بأنه (عقد يملك به الرجل بضع المرأة) . والله تعالى يقول فى شأنه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . ثم يعلق على ذلك بأن الناظر فى التعريف الأول الذى فاض به علم الفقهاء ـ حسب تعبيره التهكمى ـــ والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله (سبحانه وتعالى) ، يرى إلى أى حد وصل انحطاط المرأة فى رأى الفقهاء ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين. ويبين قاسم أمين أن الإسـلام قد منح المرأة حقوقاً لا تقل عن حقوق الرجل . فالله تعالى يقول : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ويقول : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ويقول جل شـأنه تعظيما لحقهن ﴿ وأخذن منـكم ميثاقا غليظا ﴾ والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » وقد كان صلوات الله عليه يخدم النساء ، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت الركوب . ثم يزعم أن نصوص القرآن فى تعدد الزوجات تحتوى إباحة وحظراً فى آن واحـد فالله تعالى يقول ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى أن لا تعولوا . . . ﴾ .

ويقول : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فلا تميلوا كل

الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ فالشارع سبحانه وتعالى - فى زعمه - قد علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع[1] . ولكن الفقهاء - فى زعمه - هم الذى قصروا ما أوجب الله من العدل بين النساء على النفقة وما شاكلها . ويبين المؤلف أن تعدد الزوجات من العادات القديمة التى كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ومنتشرة فى جميع الأنحاء . وأنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فتكون غالبة فى الأمة التى تكون حال المرأة فيها منحطة ، وتقل أو تزول عندما تكون حالها راقية . ويقول : إن الشعور بحب الاختصاص طبيعى فى المرأة كما أنه طبيعى فى الرجل . أو هـــو على الأقل ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته الحيوانية إلى ما اعد له من الكمال الانسانى ، وأن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ، إلا فى حالات الضرورة ، كالمرض المزمن ومثل أن تكون عاقراً . أما فى غير ذلك فليس تعدد الزوجات ــ فى نظره ــ إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية .

---

(١) العدل الذى صرح القرآن الكريم بأنه غير مستطاع هو العدل القلبى : أى العدل فى المحبة، وهو ما لا يملكه الزوج ولا يستطيعه . ولذلك فهو غير مكلف به . أما العدل الذى يستطيعه والذى هو مطالب به فهو العدل فى المعاملة . وآخر الآية الثانية يدل على المطلوب دلالة واضحة (فلا تميلوا كل الميل) . فالفاء للترتيب ، والذى رتبته الآية الكريمة ــ على ما قررته من صعوبة العدل القلبى التى تبلغ حد الاستحالة ــ هو أن لا يجمع إلى هذا الانحراف عن العدل القلبى انحرافا عن العدل المادى فيما يستطيعه من العشرة ، والمعاملة ، فتصبح الزوجة كالمعلقة ، لا هى متزوجة فتستمتع بما يستمتع به المتزوجات ولا هى عزب تعيش على أمل الزواج . ولو كان المقصود هو تحريم التعدد لكان رسول الله ﷺ - وقد عدد - وصحابته وكثير من السلف الصالح - وقد كانوا معددين - مخطئين فى فهم المقصود من الايات ، أو متخطين لحدود الله عن عمد مع علمهم بالمقصود ، وذلك ما لا يقول به منصف، فكيف يقوله مسلم ؟ والإسلام على كل حال لا يلزم بالتعديد ولكنه يترك ذلك لظروف كل بيئة وكل عصر ، ولضمير كل شخص وظروفه التى هو أعلم بها .

أما الطلاق : فيبين قاسم أمين أنه كان مشروعا عند اليهود والفرس واليونان والرومان ، ولم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن نشأتها . ثم يقول : إن الذين يريدون بالزواج أن لا يحل عقدته إلا الموت إنما يطمحون للكمال المطلق ، ولا يراعون الطبيعة البشرية والضرورات التى تجعل الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر . وهذا الذى دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق . ولكنه يذهب إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها ، ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلا يجب أن ترد إليه جميع الفروع فى أحكامه ، وهو أن الطلاق محظور فى نفسه ، مباح للضرورة . ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث . فالله تعالى يقول : (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وجاء فى الحديث (أبغض الحلال عند الله الطلاق) (لا تطلقوا النساء إلا لريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات) . والإمام على رضى الله عنه يقول : (تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش) . ثم يقول : إن الأصل فى الطلاق الحظر ، والإباحة الحاجة إلى الخلاص . أى أنه محظور إلا لعارض يبيحه . ولكن الفقهاء — فى زعمه — لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل الجليل على طريقة واحدة متساوية ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع . ويورد أمثلة من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها . ثم يقول : إنه لا ينبغى أن يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة ، فاللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية ، إلا من جهة كونه دليلا على النية . وينتهى المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام

القاضى فى وثيقة رسمية بحضور شاهدين ، بعد نصح الزوج أولا ، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانيا . على أن يتقدما بتقرير فى حالة إخفاق مسعاهما فى الصلح(١)

ذلك عرض موجز لكتاب (تحرير المرأة) . يتضح منه منهج المؤلف فى التوفيق بين الإسلام وبين مذاهب الغربيين ، وهو يعرض فى خلال كلامه لبيان المضار الناشئة عن الجهل والحجاب . فالمرأة التى تبيع جسدها ليست مدفوعة بالشهوة ، ولكن الذى يدفعها إلى ذلك هو الجهل والعجز عن كسب قوتها من طريق شريف . والنقص الذى نشاهده فى أخلاقنا ، وما أصابنا من فتور وقلة الكراث ، وما ابتلينا به من بلادة فى الإحساس وفى تذوق الجمال ، كل ذلك إنما هو ناشىء من نقص تربيتنا الأولى التى تقوم عليها الأم ، والتعليم وحده لا يكفى - فى نظر قاسم أمين - لتكوين المرأة تكوينا سليما يجعل منها أداة صالحة للقيام على الأولاد وعلى خلق الرجال ، فلا قيمة للقراءة إذا لم تؤيدها التجربة والمشاهدة . ولذلك فهو ينادى برفع الحجاب ، لأن حجاب المرأة فى منزلها يحبسها فى هذا العالم الضيق، ويحول بينها وبين العالم الحى ، عالم الفكر والحركة والعمل . ويجعلها لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع فى عالمها الضيق من سفاسف الأمور .

ولا يخلو الكتاب من تهكم بما يسميه (جمود رجال الدين) وبعض كلامه يصيب الحقيقة فى مثل قوله مشيرا إلى انصراف المشتغلين بالعلوم الإسلامية عن دراسة العلوم الحديثة « من رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعنيهم وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى إعراب البسملة ما يزيد — من غير مبالغة — على ألف وجه على الأقل. يزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب

---

(١) لا شك أن فى ذلك تقييد لما أطلقه الله ، ويستطيع المتدبر البصير أن يدرك ما يترتب عليه من مضار لا محل للإفاضة فى ذكرها هنا . والمهم فى الأمر هو أن هذه الآراء التى يحتال المؤلف لإلباسها أثوابا إسلامية من نصوص القرآن والحديث ، هى فى حقيقة أمرها آراء غربية . فتصوره للعلائق الزوجية مستمد من العادات الغربية والقوانين الكنسية .

الرزق من غير وجهه . وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة . ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم - ص ١٠٨ » وبعض هـذا التهكم ينطوى على التجنى والتحامل". والذى يطلع على كتب الفقه يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ ، والتفنن فى فهم معانيها فى ذواتها ، بقطع النظر عن الأشخاص . لهذا قصروا أبحاثهم جميعاً على الكلمات والحروف ، وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم : طلقتك ، وأنت طالق ، وأنت مطلقة ، وعلىّ الطلاق ، وطلقتُ رِجلك ، أو رأسك ، أو عرقك وما أشبه ذلك . على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثاً أخرى غير تأويل الألفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق جديدة . وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية ، كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كلّ من له إلمام — ولو سطحى — بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم — ص ١٥٣ » .

من هذا العرض يبدو واضحاً أن الكتاب ليس كتاب فقه ، وأن صاحبه ليس فقيها يعرض لشرح النصوص الإسلامية شرحا نزيها ليستنبط منها (١) . ولكنه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخّر النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، ســواء كان ذلك فى تفسير الآيات القرآنية أو فى النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية . وهـذا الاتجاه الذى يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفا لكل ما هو ثابت متواتر فى تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ محمد عبده متذرعا إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذى زعم أن الفقهاء قد أغلقوا بابه . وهو يدعو إلى الملاءمة

---

(١) بل المعروف المشهور أن مؤلف الكتاب ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية . ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه فى الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أستاذ قاسم أمين .

بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وسوف نعود للكلام عن هذا الاتجاه بعد قليل .

وقد أثار كتاب (تحرير المرأة) موجة من المعارضة كان أكثرها مقالات صحفية . وليس فيها من الكتب إلا كتاب (تربية المرأة والحجاب) لمحمد طلعت حرب ، الذى اقترن اسمه من بعد بشئون الاقتصاد والمال .

ولم يلبث مؤلف (تحرير المرأة) حين واجه هذه المعارضة وأحرجته أن كشف عن أهدافه الحقيقية فى كتاب ظهر فى العـــام التالى وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذى بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً . فالتزم فيه مناهج البحث الأوروبية الحديثة التى ترفض كل المسلّمات والعقائد السابقة . سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع ، على حسب ما يفعله باحثوا الاجتماع الأوروبيون ، وهو ما يسمونه (الاسلوب العلمى) .

طالب قاسم أمين إلى المصريين أن يتخلصوا مما وقر فى نفوسهم من أن عاداتهم هى أحسن العادات ، وأن ما سواهـــا لا يستحق الالتفات . وقال : إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى فى إصدار أحكامه على هـذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعوّد نفسه على أن يجرى نقده الحوادث الاجتماعية على أسلوب علمى (ص ٧٥) . ونبه فى موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمى ، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة صحيحة فى معرفة حقوق النساء فينظر فى الوقائع التى تمر أمامنا ؛ فنتصور نظريتنا مطبقة فى قرية ، ثم فى مدينة ، ثم فى إقليم ، ونتمثل النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن ، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . ونتصورهن فى المدرسة ، وفى البيت ، وفى الغيط ، وفى الدكان وفى المصانع . ثم نستعرض حال النساء فى غير بلادنا . ونقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها (ص ٨٣) . ويبين قاسم أمين فى موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتاب يبنون أحكامهم على الشهوات . وإن وجد بينهم المنصف

كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملة . وأشدهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة ، توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبي مما يزيد طمع الأجانب فينا ، والواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه (ص ١٩٤) . ويؤكد في موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافيا للإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس(١) . ويضرب لذلك مثلا بالذي يثني على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه . ثم يتساءل : فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته ؟ ويؤكد أن خدمة العلم هي عبادة ، لأنها اعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وذلك يقود — حسب زعمه — حتما إلى الاعتراف بعظمة خالقها . هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس وينمي الإحساس الديني ، لأنه يكسب صاحبه الاعتياد على ضبط النفس ، الذي هو من أهم أركان الأدب (ص ٢٠١ — ٢٠٣) .

ويناقش قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة) بعض حجج المعارضين لسفور المرأة ومشاركتها الرجل في الأعمال ، مثل قولهم : إن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وإنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات ، . فيرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية الرجل في الملكات كما يرد عليه بأن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلا ومنصفاً ومستوفياً لشرائط

(١) لم يزعم أحد ذلك ولكن الذي يقوله المتمسكون بالدين والداعون إلى سبيله : هو أن هذا الذي نقله عن الأوروبيين أو الأمريكيين ونثق فيه ثقة عمياء ونسميه (علما) ليس (علما) بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة إلا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب . أما ما يتصل منه بالنفس وبالتقنين الاجتماعي والأخلاق فهو لا يزيد عن أنه فروض لحل بعض المشكلات ، ولتعليل ما غاب عن الحس . ولذلك فهو موضع الخلاف والأخذ والرد بين دارسي الغرب أنفسهم . ولو كانت له حقيقة ثابتة ما اختلفوا فيه . ولا ينبغي أن ننسى أن بعض هذه الدراسات — لا سيما الدراسات النفسية والاجتماعية — وقد أصبحت دراسات موجهة تسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة وبعضها يتذرع باسم (العلم) إلى هدم الدين والأخلاق ومحو الشخصية القومية ، خدمة لأهداف سياسية استعمارية ترمى إلى توهين الجامعة الوطنية أو الدينية .

البحث العلمي المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التي مُنحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة . ويرفض قاسم أمين أن يصدق ما يذاع من أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة ، مما يتذرع به الداعون إلى الحجاب في البلاد الشرقية الحارة ، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمي . ويستشهد بكلام كاتب إيطالي يقول إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وإن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك ، ويعتمد المؤلف على الدراسات النفسية الحديثة وعلى علم وظائف الأعضاء في التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه ، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء . ثم يطبق هذه النتائج العلمية على نسائنا ، فيزعم أن نظام الحياة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشهوات ، لأن سجنها والتضييق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الأعصاب . ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن في القوى الأدبية . ثم يقول : إن زيادة الحجر على البنت كلما تقدمت في السن والتشدد في نهيها عن مخالطة الرجل ، يلفت ذهنها في سن مبكرة إلى ما بين الجنسين من اختلاف . هذا إلى أن الألفاظ والصور المحركة للشهوة التي تستقر في نفس الطفل والصبي من الأحاديث التافهة التي تتوالى إلى أذنه بغير تحفظ من أحاديث الأمهات الجاهلات تترك أثرها العميق فيه .

ويقول قاسم أمين : إن الحرية في الحياة السياسية هي منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته وأساس كماله الأدبي ، ثم يطبق ذلك على المرأة فيقول : عاشت الأمة المصرية أجيالا في الاستعباد السياسي . فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً في جميع مظاهر حياتها : انحطاط في العقول ، وانحطاط في الأخلاق ، وانحطاط في الأعمال . وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسماً ضعيفاً عليلا ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع

بحريتها الجديدة ، . وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء : أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية . ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً ، وترتقي ملكاتها العقلية والأدبية . وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية ، حتى تصير إنساناً شاعراً بنفسه . » ص ٧٠ ، ٧١ ، ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي . فالطفل يحبو قبل أن يمشي . ثم يتعلم المشي بالتدريج مستنداً إلى الحائط أو إلى قائد يقوده ، فإذا استقل بالمشي لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات . فلا ينبغي أن نكون كالأب الأحمق الذي يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشي ، حتى إذا كبر عاش مقعداً مشلول الرجلين .

ويقسم المؤلف مسئوليات المرأة إلى ثلاثة أقسام : (١) ما تحفظ به نفسها (٢) ما تفيد به أسرتها (٣) ما تفيد به المجتمع الإنساني . وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذي يتصل بمشاركة المرأة في الأعمال العامة ، لأن دورها فيه لم يكن في نظره قد جاء وقتذاك . ويقول في القسمين الآخرين : إنه مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة ، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغني عن الأعمال التي تحافظ بها على قوتها الحيوية ، وتمدها القيام بحاجات الحياة الإنسانية وضروراتها ، كما أنها لا تستغني عن الأعمال والمعارف التي تتعلق بواجباتها في الأسرة . ثم يقول : إننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم — حسب زعمه — على الغزو والنهب ، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة . ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد ، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه ، ليشب مقاتلا لا عالماً فاضلا . وصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون — حسب زعمه — عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي ؛ ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل ، لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية قد

تنهوتا تنهياً تاماً ، فقد اتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة إنسان مثل الرجل ، زيّنته الفطرة بموهبة العقل . فن حقها أن تسمو إلى مرتبة الرجل أو ما يقرب منها على الأقل . ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧ ؛ الذى يدل على أن عدد النساء اللاتى يشتغلن بحرفة أو صنعة ٦٣٣١ وهو يساوى ٢ ٪ من جملة النساء ، ولا يدخل فيه الفلاحات التى يشتغلن بالزراعة ، ولا الأجنبيات اللاتى تبلغ نسبة المحترفات فيهن ٢٠ ٪ ، كما لا يدخل فيه النساء اللاتى لا عائل لهن ممن يمشين عالة على أقاربهن ، أو ممن يستعملن لكسب العيش وسائل لا يعترف بها . ولا يدخل فيه الزوجات اللاتى لا يكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن . ثم يتساءل قاسم أمين : أفلا ينبغى لهذا العدد من النسوة اللاتى تقضى عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعينهن فى معركة الحياة ؟... والمؤلف يسلم بأن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد ولكنه يرى أن من الخطأ أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة . ففى النساء من لم تتزوج ، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت ، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله وفى المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد . ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة . فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن ، ويقولون : إن الضرورات تبيح المحظورات . ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة كالخدمة فى البيوت ، وبيع السلع الزهيدة فى الطرقات .

أما القسم الثانى الذى يتكلم المؤلف فيه عن مسئولية المرأة أمام أسرتها ، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال فى القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الموتى من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن ، ويرجع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية .

وهو يقول : إن المرأة المهذبة الحرة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم في أسرتها . أما المرأة الجاهلة المستعبدة ، فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم في البيت . فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها ، ولا يمكنها أن تدير بيتها ، ولا تصلح لأن تربي أولادها . ذلك لأن أعمال الإنسان تصدر عن أصل واحد هو علمه وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقيا كان أثره في كل شيء كبيراً نافعاً جيداً . وإن كان منحطا كان أثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود . ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثر جهل الأم ، مثل منع الطفل من اللعب كي لا يشوش عليها ، ومثل تخويفه بوهمات تثير في ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ومثل وعده بوعود لا تفي بها إذا أرادت مكافأته ، وإظهار الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد ، ثم ضمه وتقبيله وإظهار غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ما أتت .

ويتساءل المؤلف عن علة تأخر الأمم الإسلامية . ويفترض لذلك ثلاثة أسباب ، هي الإقليم ، والدين والأسرة ، ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً . ولأن المسلمين قد برهنوا في ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام تشاركهم في ذلك ، لأن وضع المرأة فيها لا يختلف عن وضعه في الأمم الإسلامية . ويقول المؤلف : إن العلوم التي يتلقاها الأبناء في المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيء إلى باطن نفوسهم ، فتكون داعية العمل حافزة إليه . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم في أول السن ، هذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل ، لا يظهر ولا يقويه ولا ينميه إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها في البيت إلا الأم ، فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل ،

وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة ، وتنفث فيها روح العواطف الكريمة . ص ١٣٨ — ١٣٩ . ويختم كلامه عن هذا القسم بقوله : « ولكن المتأمل إذا روّى فى الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها لنو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الجماعات » . وأن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سيء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من إتيان ما ينشأ من ذلك الضرر ، ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً، وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه ص ١٥٤ » .

وقد اتسم كتاب (المرأة الجديدة) — إلى جانب هذا الطابع الغربى الذى يعتمد على آراء مفكرى الغرب ، ويصطنع أساليبهم فى الإحصاء وفى الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية(١)— بمهاجمة علماء الدين الذين هاجموه من قبل هجوما عنيفاً واتهموه بالتفرنج وإفساد تقاليد الاسلام عند ما نشر كتابه الأول (تحرير المرأة) . وقد جرته مهاجمة رجال الدين إلى القسوة فى الحكم على الحضارة الإسلامية فى بعض الأحيان . فقد كان معارضوا قاسم أمين يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الإسلامية وحدها . فهو يرد على ذلك بأن الحضارة الاسلامية قامت على دعامتين : الأساس الدينى الذى كوّن من القبائل العربية وحدة واحدة ، والأساس العلمى الذى ارتفعت به الأمـــة الإسلامية وآدابها . ثم يزعم أن العلم كان وقتذاك ضعيفاً فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضرباً من الظنون التى لم تؤيدها التجربة . ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت رقابتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص

---

(١) تراجع أمثلة لاعتماد قاسم أمين على آراء الغربيين فى كتاب المرأة الجديدة ص ٨ - ١٧، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٧ .

القرآن والحديث التي يؤولونها. وبذلك حملوا الناس ، حسب زعمه ، على إساءة الظن بالعلم، فنفروا منه وهجروه ، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية . بل قالوا في العلوم الدينية نفسها إنها يجب أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقدمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة ، واستطاع العلم أن يشيد بناء متيناً لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه . وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وينتهي قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانقضى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم . فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري ؟ .. ثم يبين أن كثيراً من ظواهر التمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . ويضرب الأمثلة من نظام هذا التمدن في الحكم ، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات(١) كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الاضمحلال ، وأن الفرق واسع بينه وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الأسرة . ويختم ذلك متسائلا: إذا كانت هذه حالهم ، فما الذي يطلب منا أن نستمده منها ؟ . . . وأي شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟ . . . ثم يقول : « متى تقرر أن المدنية الاسلامية هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت في الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن . وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح ، فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا » ص ١٨٣ .

---

(١) هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة اليونانية الرومانية وترجيح كفة الأخيرة تبين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات المتحررين في أوربا Liberals الذين كانوا يحقرون الحضارة المسيحية ويمجدون الحضارة اليونانية واللاتينية في جاهليتهما الوثنية السابقة على المسيحية .

ويدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . فيقول — بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضي هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز : « هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . إذا أتى ذلك الحين - ونرجو أن لا يكون بعيداً - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصـــلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة . وأن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم . لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلاتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها ، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل[1] هذا هو الذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية) » ص ١٨٥ — ١٨٦ » .

ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث في الشرقيين من شوق إلى مجاراة الغربيين ، بعد أن اختلطوا بهم فتبينوا سوء حالتهم الاجتماعية حين قاسوها بحالة الغربيين . ويقول : « إن الكتاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم لا يترك أثراً إلا إذا وصل إلى النساء ، اللائي هن عماد الزاوية في تربية الأجيال.

---

(١) يشير قاسم أمين إلى اتفاق الأمم الأوروبية في آداب الاجتماع وفي الكتابة بالحروف اللاتينية وفي ارتداد أكثر لغاتها إلى أصول يونانية لاتينية . ومن المعروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة في لغة الأدب وخطة تشبه ثورته الاجتماعية . فننسلخ من لغة القرآن ونكتب آدابنا بلهجتنا العامية على نحو ما انسلخت اللغات الأوروبية الحديثة من أمها اللاتينية . ونعبر في خطنا عن الحركات بحروف تدخل في بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية .

فإذا أراد المصريون أن يصلحوا حالهم ، فعليهم أن يبدأوا الإصلاح من أوله

« وهذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان . وحكم الفقهاء بأنها خترق في الإسلام وعدّها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليـــد الغربيين . بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أماني الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامي ، ومن يعتقدها من المسلمين فليس منهم ، إلى غير ذلك من الأوهام التي يصغى إليها البسطاء ، ويتلذذ باعتقادها الجهـــلاء ، لعدم إدراكهم منافعها الحقيقية . ونحن لا نرد عليهم إلا بكلمة واحدة ، وهي أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا . فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا ، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة . ص ٢١٥ — ٢١٦ » .

* * *

إلى جانب هذه الطائفة التي كانت تحاول النهضة بمصر وبالشرق وبالمسلمين عن طريق الأخذ بأساليب الحضارة الغربية التي هي في زعمهم أكثر ملاءمة للعصر، كان هناك فريق آخر يرى أن الأمم الإسلامية التي سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن تنهض على أساس اعتناق مبادىء الغرب ، لأن هذا لا يؤدى إلا إلى إفناء نفسياتها ، ولا ينتهى إلا إلى إعجابها بمستعبديها ، وسكونها إليهم ، وأنسها بهم . وعند ذلك لا تجد في نفسها ما يحفزها للتخلص منهم ، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها . لذلك نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا .

وقد كان من أشد ما أفزع أصحاب هذا المذهب أن شباب المسلمين — ممن فتنتهم المدنية الغربية — قـد استقر في وهمهم أن النسبة إلى الدين سُبّة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه معرة ، حتى لقـد احتاج أديب من أدباء ذلك العصر وهو الشيخ

طه حسين إلى أن يعتذر عن بدء محاضرة له فى اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال : « سيضحك منى بعض الحاضرين إذا سمعنى أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر(١) » .

وأصبح الإعجاب بكل وافد من الغرب وهماً مسلطاً على الناس ، حتى لقد احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يضربوا للناس الأمثال بزعماء الغرب ممن يحترمون دينهم ولا يرون الوطنية إلا شعبة من الإيمان . وهذا هو محمد عبده ينقل عن بسمارك قوله : (٢) « لو نقيضت عقيدتى بدينى لم أخدم بعد ذلك سلطانى ساعة من زمان . إذا لم أضع ثقتى فى الله لم أضعها فى يد سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن أنظروا إلىّ تجدونى مالكـــاً من موارد الرزق ما يكفينى ، وارتقيت من المناصب ما لا مطامع بعده . فلماذا أشتغل ؟ . . . ولم أجهد نفسى فى العمل ؟ . . . ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ . . . لا يبعثنى على شىء من هذا إلا شعورى بأننى فى جميع ذلك أعمل على لوجه الله ، أسلبونى هذا الإيمان تسلبونى محبتى لوطنى . . اعلموا أننى لو لم أكن مسيحياً عاصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلى يدبر أمر الاتحاد الألمانى » .

واتجه الشعراء إلى تدعيم هذه الفكرة وإقرارها وإحلالها على العقيدة من الشباب ، بتذكيرهم بعهد الإسلام القديم .

يقول محرم : (٣)

تذكر ماضى دينه فتوجعا	وأحـــزنه ما نابه فتفجعا
وأهلكه من قومه أن قومه	بعمياء يأبى غيمها أن يقشعا
وكان دعاهم بالقوافى إلى الهدى	فلو أسمع الصم الدعاةُ لأسمعا

(١) مجلة الهداية عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩١١ ص ٧٦١ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨١ — من مقال له عن (بسمارك والدين) نشر فى صحيفة المنار ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ .

(٣) ديوان محرم ١ : ١١١

لقد زادهم ذاك الدعاءُ ضلالة … فيا ليته لم يسمع الصوت إذ دعا !
وكيف وجُرم المرء أصبح دينه … مهانًا وقد كان العزيزَ الممنّعا ؟
هُمُ ضيعوا ما استودعوا من نفائس … أراها بأيدي القوم نهبًا موزعا
وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا … جوانبه حتى وهى وتضعضعا
...وما كنت أخشى أن أرى الدين ذلةً … ولا أن أراه بعد أمن مروّعا
تصدع قلبي رحمة لمصابه … وليس عجيبًا منه أن يتصدعا !!

ويقول(1) :

هل الدين إلا معقل نحتمي به … إذا دلف العادي إلينا فأسرعا
هو الدين، إن يذهبْ فلا عز بعده … وإن جلّ ساعينا على إثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم … ويصبح منهم موطنُ الغي بلقعا
وحتى يسوغوا الكتاب زمامه … وحتى يكونوا ساجدين وركّعا
هنالك يقوى منهمُ ما تضعضعا … ويلبث من بنيانهم ما تزعزعا

ويقول (2) :

يا داعيَ الله مُدّ الصوت وادعُ إلى … جناته من يريدُ النارَ مسرورا
أما ترى الناس لا يبغون صالحةً … ولا يخافون فوق الأرض محذورا ! ؟
أما تراهم كأنعام مشردة … فوضى تهيم وتمضي جُنّحا زورا ؟ !
يا داعي الله إن القوم قد لبسوا … ليل الغواية فابعث فيهم النورا
أطلع لهم من كتاب الله بيّنة … تجلو اليقين وتمحو الشك والزورا

ويقول (3) :

أما وجلال الله في ملكوته … وآلائه العظمى وآياته الكبرى
لقد فدح الخطبُ الذي نال دينه … فما يملك المحزون من أجله صبرا

---

(1) ديوان محرم 1 : 113
(2) » » 2 : 81
(3) » » 2 : 82

الاّ نهضة بكرّية مُعرّية تعيد إليه عهده تارةً أخرى
وما أنا من رَوْح الإله بآيس وإن ملأ الهم الجوانح والصدرا
فيا ربِّ لا تبعثْ إلىّ منيتى إلى أن أرى البعث المومل والنصرا
وهوّن خطوب الدهر إن حان حينها
وطمّت على الأحيــاء ترهقهم عسرا

ويبين لهم الكاشف أن الغرب لم يتقدم إلا حين أخذ بتقاليد الإسلام فى الكفاح وفى طلب العزة والسعى للمجد ، وأن المسلمين لم يتخلفوا إلا حين تخلوا عما أمرهم به دينهم من ذلك . ولذلك فهو يدعو الشرقيين إلى مجاراة الغربيين فى الأخذ بأسباب القوة ، لأنهم أحق منهم باتباع ما جاء به الإسلام فيقول (١) :

بنى الشرق ! أدعوكم إلى خير منهج يعيد إليكم نضرة العيش ثانيا
لجاروا بنى الغرب الذين تشبثّوا بأجدادكم حتى تنالوا المعاليا
وأنتم بتقليد الجدود أحق من عدَى سلبوكم مظهراً كان زاهيا
أسرّكمُ أن المحارمَ تُستبى ولم تلق فيكم عن حِماها حاميا ؟؟
وأعجبكم أن الطرائق تمتفى ولم نر منكم يا بنى الشرق واقيا
وإن لكم سيفاً من الدين ماضيا يفل إذا جردتموه المواضيا
فأحيوا به نهج النبى وجددوا مقاما لدين الله أصبح باليا
وردُّوه حتى تستعيدوا شبابه نضيرا وإلا عاش ظمآن ذاويا
كفاه اكتئابا ما يعلى من سكوتكم وغفلتكم عن أمره وكفانيا !!
فأرضوه عنكم بانتهاج طريقه فما أجمل الدنيا إذا بات راضيا
هنالك نحيا فى نعيم ونضرة ونأمن عدوان العِدَى والليالـيا

وغذى معظم الشعراء هذا الاتجاه الإسلامى ، بما كانوا ينشرون من شعر يمجد أبطال الإسلام ، ويستنبط الموعظة من تاريخهم ، ويقدم القدوة الحسنة

---

(١) ديوان الكاشف ١ : ٩١ .

للشباب من حياتهم ، وكان شوقي أبرز الشعراء الذين مثلوا هذا الاتجاه في قصائده الإسلامية المتعددة .

فقد أبرز فيها ما يحرص عليه الاسلام من دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة ، وابتغاء العزة واستهداف السيادة ، جرياً على نواميس الكون التي تقوم على التنافس بين الأفراد والأمم .

فيقول في (نهج البردة) التي نشرها سنة ١٩١٠(١) :

قالوا غزوتَ ، ورسلُ الله ما بعثوا	لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلامٍ وسفسطة	فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب	تكفل السيفُ بالجهال والعمم
والشرُّ إن تلقه بالخير ضقتَ به	ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم
سَل المسيحية الغراء ، كم شربت	بالصاب من شهوات الظالم الغلِم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها	في كل حين قتالا ساطع الحَدَم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها	بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُم

ويقول من قصيدة له ، كتبها سنة ١٩١١ ، في استقبال الأسطول العثماني(٢) :

زدتم أميرَ المؤمنين من القُوى	إن القوى عِزٌّ لهم وقوام
الملك والدُّولات ما يبني القنا	والعلمُ لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس وإن علا بمؤيد	حتى يحوِّط جانبيه حسام
خطَّ النبي براحتيه خندقا	ومشى يحيط به قنا وسهام
يا معشر الإسلام في أسطولكم	عزٌّ لكم ووقاية وسلام
سبلُ الممالك جارف من شدة	وقوىً ، وأنتم في الطريق نيام
حب السيادة من شمائل دينكم	والجد روحٌ منه والإقدام

---

(١) الهلال . عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٣١٤ . الديوان ١ : ٢٥١

(٢) الديوان ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ . نشرت في مجلة الهلال عدد يونيو سنة ١٩١١

والعلمُ من آياته الكبرى إذا رجعتْ إلى آياته الأقــوام
لو تقرئون صغاركم تاريخه عرف البنون المجد كيف يُرام !!

ويقول فى قصيدة (الهمزية النبوية) التى نشرها سنة ١٩١٢ ، موجهاً خطابه للرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

وتمدُّ حلمك للسفيه مداريا حتى يضيق بحلمك السفهاءُ
فى كل نفسٍ من سُطاك مهابة ولكل نفس من نداك رجاء
والرأىُ لم يُنضَ المهندُ دونه كالسيف لم تضربْ به الآراء

ويقول فى قصيدة (ذكرى المولد) التى نشرها سنة ١٩١٤ ، متحدثاً عن النبى ﷺ (٢) :

وكان بيانه للهــدىِ سُبْلا وكانت خيلُهُ للحق غابا
وعلّمنا بناء المجـــد حتى أخـــذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيلُ المطالب بالتمنى ولكنْ تؤخـذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

ثم هو يبين ما امتاز به الإسلام من اتزان ، فهو مزاج معتدل من القوة والرحمة ، يقود جهاده وحروبه الخير والهدفُ الشريف ، ويحد من شرتها الإنصاف وتنكُّب البغى . وهو يدعو إلى السلام ، ولكنه يخوض الحروب إن ألجأه إليها السفهاءُ دفاعاً عن هذا السلام.

يقول من قصيدة له فى رثاء عثمان باشا الغازى ، نشرت سنة ١٩٠٠(٣) :

إنمــا الملك صـارم ويَراع فإذا فارقاه ســـاد الطغام
ونظام الأمور عقـــل وعدل فإذا وليّا تولى النظام

(١) الديوان ١ : ٢٤ نشرت فى مجلة المؤيد ، عدد ٧ مارس سنة ١٩١٢ .
(٢) الديوان ١ : ٦٢ نشرت فى مجلة سركيس ، عدد ١٥ فبراير سنة ١٩١٤ .
(٣) الديوان ٣ : ١٤٣ نشرت فى المجلة المصرية ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ ص ٤٩ .

وهيهم ، خلقت الحرب لينا   وسجاياك كلهن سلام !!
فهى فى رأيك القويم حلال   وهى فى قلبك الرحيم حرام
لك سيف إلى اليتامى يفيض   وحنان يحبه الأيتام
مستبد على قوى ، حليم   عن ضعيف ، وهكذا الإسلام

ويقول فى الهمزية النبوية :

الحرب فى حق لديك شريعة   ومن السموم الناقعات دواء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة   ما لم تزنها رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا   فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبراً   وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزوة للرسول كريمة   فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدة   فى إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها   فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام ، وطالما   حقنت دماء فى الزمان دماء

وهو يبين فى أرجوزته الطويلة (دول العرب وعظماء الاسلام) حين يدافع عن عثمان بن عفان ، أن الاسلام لا يتعارض مع الدنيا ، ولا يطالب الناس بالزهد فيها ، فيقول(١) :

فإن تسل ماذا أتى عثمان   مما يرد الدين والإيمان
تجسد دعادى القوم لفقوها   وسلما بالدين نفقوها
ذكروا على الإمام ما لا يزرى   وأركبوه الحسنات وزرا
واستنكروا علوه بالدور   عن دارة الثلاثة البدور(٢)
وقال قوم خالف الأترابا   وحالف الثراء والإترابا

(١) دول العرب وعظماء الإسلام ص ٥٠ ، وقد نظم شوقى هذه الأرجوزة فى منفاه ، خلال الحرب العالمية الأولى .

(٢) يقصد بالثلاثة البدور الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعليا رضى الله عنهم .

ذكروا التصوف والتدينا … وزعموا الدنيا تنافي الدينا
ويحرموا ما لهم وما لهم … طاب وطيب الحلال مثاله
مال كما شاء العفاف والكرم … زكا كهدى البيت أو حلى الحرم
والزهد حال للقلوب والشهى … ما أمر الله به ولا نهى
وهذه الدنيا يد العظيم … وسره في ملكه العظيم
أسكنها العقل فكانت أشرفا … من كل زاه في السماء أشرفا
أحل منها ما صفا مشارعا … وحرم الآفات والمصارعا
وساقها للأنبياء ترشف … هذا سليمان وهذا يوسف
وأين من شأنيهما عثمان … على الذي خوله الرحمن ؟

وإنما رسم الإسلام حكومة قوامها العدل والمساواة، لا معبود فيها إلا الله أمر الناس فيها شورى ، لا يطغى فيها غنى على فقير ، ولا قوى على ضعيف(1) :

داء الجماعة من أرسطاليس لم … يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة … لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده … والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر ، والخلافة بيعة … والأمر شورى ، والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم … لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة … وأخف من بعض الدواء الداء
البر عندك ذمة وفريضة … لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله … حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى … فالكل في حق لديك سواء
فلو ان إنساناً تخير ملة … ما اختار إلا دينك الفقراء

والإسلام يدعو إلى العمل . فالرزق مرهون بالسعى ، والتوكل لا يغنى شيئا إذا صرف صاحبه عن العمل . ويقول شوقى فى السيرة النبوية(2) :

---

(1) الديوان 1 : 26 من الهمزية النبوية وقد نشرت سنة 1912 .

(2) دول العرب وعظماء الإسلام ص 24 ، 25 .

كان رســول الله في شبابه | لا يدع الرزق وطرق بابه
أيُّ رسول أو نبيٍّ قبله | لم يطلب الرزق ويبغ سبله ؟
موسى الكليمُ استوجر استئجارا | وكان عيسى في الصبا نجارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب | الخبزُ لا يُعطى ولكن يكسب
والرزق لا يخرمه عبد سعى | مضيّقا عليه أو موسّعا
لا نالُ لا سعياً ولا اتكالا | لا ينفع التوكل الكسلانا
كان قُبيل البعث ربُّ مال | وتاجرا أميز الأعمال
يضرب في حَزن الفلا وسهله | بمال عمه ومال أهله
مبارك الرحلة والإقامة | مستصحب الجد والاستقامة
والرزقُ بين الناس بحر جارِ | شراعه يرفع للتجار

فاسترزق الله وقف ببابه
واكسب ، فأهلُ الكسب من أحبابه

وكان مما تمخض عنه هذا الاتجاه الإسلامي سنة جديدة جرى عليها الناس منذ سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وهي الاحتفال برأس السنة الهجرية (١) . وكان هـذا اليوم يمر من قبل كغيره من الأيام لا يكاد يأبه له أحد ، في الوقت الذي كانت تحتفل فيه الحكومة رسمياً بعيد الملكة فيكتوريا ، ثم بعيد الملك ادوارد السابع من بعدها(٢) : وقد كان احتفال المصريين العظيم بهذا العيد يضم أعداداً غفيرة من المسلمين وكان الشعراء - قوام هذه الحفلات - يتبارون في إلقاء ما أعدوا من قصائد ، يستعرضون فيها ما مر بالبلاد الإسلامية - وبمصر خاصة - في العام الفائت من أحداث ، مستلهمين العبرة من حياة الرسول ، بما يستنهض

(١) محمد فريد ص ٩١ . والواقع أن هذا الاحتفال متأثر بالتقاليد المسيحي الذي يحتفل برأس السنة الميلادية . وقد فات المقلدين اختلاف الظروف والدلالات في الحالتين لأن أول السنة الهجرية لا يطابق هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد كان ميلاده وهجرته كلاهما في شهر ربيع الأول .

(٢) مصطفى كامل ص ١٠٢ .

الهمم ويدعو إلى العمل والجهاد .

* * *

وأخذ أصحاب هذا المذهب الإسلامى يزيلون من أوهام الناس لما اختلط عليهم من أمر دعوتهم ، إذ ظن بعضهم أن الإسلام الذى يدعون إلى إقامة النهضة على أساسه هو هذا الخليط من خرافات الجهال التى غلب فيها الفاسد على الصالح ، فشرع هؤلاء المصلحون يبينون للناس أن الإسلام فى جوهره وفى حقيقته يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال ، وعما انتهى إليه أمره بعد أن أقحم عليه ما ليس منه. فاتجهوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام وما خالطه من معتقدات مفسدة، ليقدموه للناس فى صورته الصحيحة ، وليبينوا لهم أن الاسلام سهل يسير بعيد كل البعد عن التعقيد الذى أقحم عليه لجعله شيئاً صعباً لا يفهمه إلا المحترفون ،ولا يطيقه إلا أولو العزم من الزاهدين . وأخذوا فى الوقت نفسه يهاجمون البدع والأدعياء الذين يستغلون الدين ويتاجرون باسمه ويروجون الأباطيل بين الجماهير الجاهلة استجلابا للنفع وتصيداً للمغانم .

من ذلك مقالان لمحمد عبده نشرا فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ . هاجم فيهما أساليب الأدعياء المفسدين من مشايخ الطرق فى الموالد . وقد صور فيهما ما يصحب الأذكار من ضرب الطبول ومن هياج الذاكرين المفسدين يهيمون هيام المغاليه، ويتجردون من ثيابهم،ويأتون أعمالا هى أدخل فى الشعوذة منها فى الدين،من مثل أكل النار والزجاج . وندد محمد عبده فى مقاله بما يحدث فى الموالد من اختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم فى بيوت الله ، هاجم بدعة (الدوسة) التى ينطرح الناس فيها على الأرض مصطفين أحدهم لجنب الآخر . ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد الآخر حتى ينتهى إلى آخرهم. متعجبا من أن يجرى هذا بين مسلمين من أهل الإيمان ، قد أمر الله بتكريمهم،وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعى(١) .

(١) راجع المقالين فى تاريخ الأستاذ الإمام ٢:١٣٣ فى مقال عنوانه (إبطال البدع فى نظارة الأوقاف العمومية) ، ٢:١٣٦ وفى مقال عنوانه (بطلان الدوسة)

وتابع عبد الله النديم من بعد ذلك الحملة على هذه البدع الفاسدة فى مجلة (الأستاذ) فندد بهذه الطوائف والتى تبتدع أموراً تضحك السفهاء وتبكى العقلاء، وتمتثل لمطامعها اليومية بما جلب العار على الأمة، وسلط عليها الأجنبى، يزرأ بديننا ويقبح أعمالنا، ظنا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين». وهو يتساءل «أين تصفية الباطن التى هى مدار الطريق؟ وأين الخمول مع هذا الظهور؟ ... وأين التواضع من ركوب الخيل والبغال، يقدمها الطبل والمزمار، كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد؟ ... وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية؟ ...»

ويعجب النديم لما يدعيه جهلاء هؤلاء المرتزقة من علم ما أنزله الله، زاعمين وصوله إليهم من طريق الفتح أو الإلهام، ولهجومهم على تفسير القرآن بما لا يقوله إلا مجنون، ضالين فى كل ما يقولون ومُضلين، ويقتطف الكاتب من كلام السلف الصالح من رجال الطريق، أمثال الرفاعى والجيد والخواص والبسطامى وذى النون والجيلانى والسهروردى، ما يؤكد أن الطريق الصحيح فى التمسك بالقرآن والسنة(١).

ويهاجم الجهال من خطباء المساجد الذين يصرفون الناس عن الجد وعن طلب العزة وعن الإعداد للعدو بما يُبدعون فيه ويعيدون من الدعوة إلى الانصراف عن الدنيا، فيقول(١):

«ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول: العز فى الخمول، والسعادة فى العزلة، والفضل فى الزهد فى الدنيا والبعد عما فى أيدى الناس. فإن من توكل على الله كفاه، وهذا الفريق متخلل بين العامة، برغم أنه من الهداة، وهو من المضلين. فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته، وفتش فى سياسته السماوية والأرضية ... فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم

(١) مجلة الأستاذ عدد ١١ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٨٦ (الطرق وما فيها من البدع)، عدد ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٢٨ (الطرق وإصلاحها).

(٢) الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ تحت عنوان (أتنقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن نحن؟).

يسوّلت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما دروا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بعواطف الدين والملك معا . ومن هذا القبيل الذين دونوا دواوين الخطابة ، وجعلوها قاصرة على التزهيد فى الدنيا ، والتحذير من المال وجمعه ، والفرار من الجامع والظهور ، والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة . . . فلو تصدّت أوربا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس . . . وقطعت دهوراً فى اختراع طريق تصل به هذه الغاية ، ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء من تحويل الخطابة عن عهدها النبوى إلى ما قاله المتملقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة .

ونحن نستفتى هؤلاء المثبطين ، إذا كانت الدنيا يحذر منها فلمن خلقت ؟ ... وإذا كان الاشتغال بها بهتاناً وضلالاً ، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا فى أيدى المتغلبين ، ونَعُد الرضا بذلك ذنبا ومعصية ؟

ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضاربا لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة فى صميم الحياة ، تتصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وهاجم الكواكبي المبتدعة من غلاة المتصوفين فى كتابه (أم القرى) مهاجمة عنيفة فقال(١) :

إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب آراء المدلسين وغلاة المتصوفين ، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله . وذلك أن الدين يُعرّف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم فى الأمة مقام الأنبياء فى الهداية إلى خيرى الدنيا والآخرة . ولا شك أن لمثل هذا المقام فى الأمة شرفاً باذخاً ، يتعاظم على نسبة الهمم فى تحمل عنائه والقيام بأعبائه . فبعض

(١) أم القرى ص ٢٧ - ٣١ . وتأثر هؤلاء الكتاب جميعا بمحمد عبد الوهاب وابن تيمية من قبله واضح فى هذا الموضوع .

ضعيفي العلم وفاقدي القوم تطاولوا إلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم ، وحسدوا أهلها المتعالين عنهم . فتحيلوا المزاحمة والظهور بمظاهر العلماء والعظماء بالإغراب في الدين ، وسلوك مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليـــل المال إلى زينة اللباس والأثاث . فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله حكم النظم الكريم . فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً مملوءاً بغلط لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادّعوها ، وعلوم لدنيات ابتدعوها ، وتقسيم مقامات اخترعوها ، ووضع أحكام افتروها ، وترتيب قربات زخرفوها » .

ثم يبين الكواكبي بعد ذلك تأثر رجال الطرق ببدع اليهودية والنصرانية وبطقوس الكنيسة ، ويرد كثيراً من تقاليدهم ورسومهم إلى نظائرها في النصرانية وفي التقاليد الكنسية ، ويقول إن عبادتهم الله قد أصبحت أشبه شيء بعبادة مشركي العرب التي وصفها الله تعالى بقوله ﴿ وماكان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ أي صفيراً وتصفيقاً . وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقاً وشهيقاً ، وشـــلاحة ونعيقاً ، وسحروا بهذه الخزعبلات عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء من النساء وذوى الأهواء والأمراض العصبية ، بتزيينهم هذه الرسوم التي تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة ، التي تستصعب تحصيل الدين من طريق العلم الشاق الطويل . ثم يقول : « وقد قام لهؤلاء المدلسين أسواق في بغداد ومصر والشام وتلمسان قديما ، ولكن لا كسوقها في القسطنطينية من أربعة قرون إلى الآن ، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها لا الإسلام ... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيما به أفسدوا كثيراً في الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة ، وبه حولوا كثيراً من الجوامع جوامع للبطالين الذين ترتج من دوي طبولهم قلوب المتوحشين ، وتكفهر أعضاؤهم . فيلبسهم نوع من

الجهل يظنونه حالة من الخشوع . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم ، مما يسمى فى البلاد العثمانية (دعاكوطلمية)[1] » .

ويسرى أثر هذه الدعوة فى الشعر ، فرأينا بعض الشعراء يرددون هذه المعانى السابقة ، فمن ذلك قول الكاشف فى تصوير جهل الجماعات التى تتبع كل ناعق ، فلا تلبث أن تنقاد لمن يزعم أنه المهدى المنتظر (الديوان ١ : ٨٠) :

كل يوم نرى ونسمع مهدي	اً ينادى فى قومه : اتبعونى
موهماً أنه رسول من الل	ـه أتى يستعيد مجد الدين
وهو خال من التجارب والقو	ة والعـــلم والهدى واليقين
فإذا التف حوله الناس أغرا	م بإيقادهم كل شرّ كمين
وادّعى أنه بذلك مأمو	رٌ من الوحى كالنبىّ الأمين
ومتى قام فى جماعته يطـ	ـلب إعلان سره المكنون
فعلى مورثاً عشيرته كُـ	ـلّ بلاء مرّ وذكر مهين
وهى ذكرى للمسلمين فهلا	خذلوا كل كاذب مفتون ؟!
ورأوا أن دينهم فى غنى عن	دعوة من مضلل مجنـــون

وقوله فى تصوير استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم القدرة على كل شىء (١ : ٨٠ — ٨١) :

ومريد لشيخه نافذ عهـ	ـلا ضنيناً به إليه تقرب
كلما قدم الطعام له كبّـ	ـر مستبشراً به وتأدب
وسطا اللص فى الدجى فتلقا	ه ابنه قاتلنى وما نال مأرب
ودرى الوالد الجهول بما كا	ن فأثنى على الولى وأطنب
قائلا : إنى رأيت مغيثى	فى منامى على جواد أشهب

(١) وراجع كذلك ١ — ٦٤ من المرجع السابق .

حارساً منزلى يرده مغيرا   بالحسام المنصور فى كل ضرب
فأمان ابنه بلسبته الفضـ   ـل إلى شيخه البعيد وأنصب
فنأى عنـه تاركا بل مبيحاً   داره بعـده لمن يتوثب
وأتى اللص ثانيـاً ومضى بالـ   ـعجل لا يتقى خفيراً ويرهب
ثم هب المريد لا يجد العجـ   ـل وعاد ابنه إليه وأنّب
فدعا أهـله وقال لهم ما   أخذ العجلَ غيرُ شيخى المحبب
فلقد خاف أن يفاجئنا اللـ   ـص فلم يرض أن نهان ونسلب
وأرانيه وهـو يأكل فى مر   عاه فى صادق المنام ويشرب

ومن ذلك قوله فى تصوير ما يسيطر على الناس من جهل حتى إنهم ليتعلقون بكل معرد مجنون وكل أحمق يغلب عليه ضعف العقل فيجعله غريب الأطوار مختلف الحال وهم يظنون لسوء فهم الدين أن هذا المجنون هو دليل الولاية والقرب من الله (١ : ٨٢) :

فى قريتى كان فتى مجنون   يضحـك من أحواله المجروب
كأنه القـرد إذا ما يطرب   والأرنب الوحشى حين يلعب
فظنه قوم وليـاً هاديا   يكتشف الغيب ويدنى النائيا
ويعـلم الواقع والمستقبلا   فاتخذوه مرجعـاً وموئلا
وما كفاهم طاعة لحكمه   حتى دعوا من يولدون باسمه
يعطيـه كل منهمُ إن نذرا   له جميع ما اقتنى وادخرا
وناب للقوم بعـيراً مرض   فأسرعوا إلى الفتى وركضوا
فأحضروه ورجوا أن يدركه   بسره وروحـه والبركة
فطاف بالبعـير ثم صاحا   هاتوا له الجزار والسلاحا
فأوسعوه بالعصى ضربا   وأشبعوه حسرة وكربا
لا يُقبَلُ النصح من النبيه   فكيف بالمخبول والمعتوه
وقد يُهان ذو الحجى إن ذكّرا   فكيف بالجاهل حين أنذرا

هذا وعندى أن من تعلقا   بمثل ذا الأحمق كان أحمقا

ومن هذا الشعر الهجائى الساخر قوله أيضاً فى تصوير نفاق الذين يدعون الولاية من المشعوذين (١ : ٨١) :

هاجه الوجـد فقالا   بذكر الله تعالى
مرغيا كالجمل المصـ   ـعب إذ حـل عقالا
قلت هل تبغى بهذا الـ   رقص بالله اتصالا
قال هذا خير ما ارتا   ض به الراجى كمالا
تترك النفس به الـ   جسم أغلالا ثقالا
فهوى ديناره منـ   ـه وقد تاه اختيالا
ورآه أحـد القو   م فأخفاه احتيالا
وأحس الشيخ بالحا   دث فاعتل اعتلالا
ودعا بالغوث حتى   أتعب القلب ابتهالا
قلت يا هذا أيبكى   زاهد مثلك مالا !؟
لم لا يلهمك الذكـ   ـرُ عن الحزن اشتغالا !؟
فتجرد من دعاو   يك تخفى منك الخبالا
إنما نفسك من جسـ   ـمك لا ترضى انتقالا

ويقول محرم فى الأدعياء من بعض علماء الدين، وتكالبهم على الدنيا، وإذلال أنفسهم لأصحاب السلطان، يرضونهم بكل سبيل، ويفتونهم بما يحبون(١) .

أرى علماء الدين لا يحفظونه   ولا يعرفون اليوم رتبته العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه   سبيلا إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة   هم شرعوا فيها الضلالة والغيّا
إذا المفسد استفتا يريد تماديا   أتوه بأعلام الهدى تحمل الفتيا

---

(١) ديوان محرم ٢ : ٨٠

أيعجب قوما من أولى العلم أنهم يسيرون بين الناس فى نوره عميا ؟
ألا هل أرى من جلة القوم شافياً لشعب مريض لا يموت ولا يحيا ؟ !
عتتـــه عوادى الدهر إلا بقية من الدين والدنيا لمن يؤثر البقيا

* * *

وظهر بين هاتين النزعتين (الغربية والاسلامية) اتجاه ثالث يرمى إلى التوفيق بين الإسلام وبين حضارة الغرب . وهو الاتجاه الذى أشرت إليه عند الكلام عن دعوة قاسم أمين وأرجأت الكلام فيه إلى هذا الموضع من الكتاب .

وتزعم الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه الجديد الذى عرضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الإسلام كليهما — كما يقول كرومر — وإن كان سخط الأولين أقل من سخط الآخرين .

وحقيقة الأمر فى حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغانى الذى اقترن اسمه به فى الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التى توضح موقفهما وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولها من أخبار . فبينما ينزله رشيد رضا — ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام — منزلة الاجتهاد فى الدين ، ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذى لا تشوبه شائبة ، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يتهمونه بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيره لخدمة العدو . فإذا تركنا هؤلاء وهؤلاء ممن قد يجد الطاعنون سبيلا إلى رميهم بالتحيز والمحاباة ، أو التحامل والتزمت ، وجدنا كثرة من النصوص فى كتب ساسة الغرب ودارسيه تصور رأيهم فيه وفى مدرسته وتلاميذه ومكانه من الفكر الحديث . وهى جميعاً تتفق على تمجيده والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربى من خدمات بإعانته على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين ، وهو عداء يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التى لا تفتر

ولا تنقطع(١) :

وإلى جانب ذلك كله نجد إشارات صريحة فى كتاب لأحد كبار رجال الماسونية فى مصر — ومن المعروف أنها دعوة تخدم اليهودية العالمية — تؤكد أن جمال الدين الأفغانى هو مؤسس (محفل كوكب الشرق) ورئيسه . كما تؤكد أن محمد عبده كان عضوا فى هذا المحفل . إذ يقول :

(وقد ظهرت الماسونية فى سورية فى مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ ، فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم ، ودعوهم إلى محافلهم ومنازلهم وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقانى وحسن بك الشمسى وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى وغيرهم يحضرون معنا فى محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفسية وأحاديثهم الطلية . ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الأمريكى الذى حضر إلى محفل لبنان(٢)) .

ومما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا — وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصبا له — قد أيدها فى كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام(٣)) .

ومهما يكن من أمر فى حقيقة حركة محمد عبده فمن الواضح فى آثاره الأدبية — وأكثرها مقالات صحفية — أنها تنقسم إلى قسمين ظاهرين اتجه فى أحدهما

---

(١) راجع التقارير السنوية لممثل الاحتلال الانكليزى فى مصر سنة ١٩٠٥ الفقرتان ٧ ، ٩٨ ، سنة ١٩٠٦ الفقرة ٣ (ص ٦ - ٨ منها على وجه الخصوص) Modern Egypt ٢ : ١٧٩ -١٨١ Whither Islam ص ٦٩ ، ١٦٣ ، ١٧١ - ١٧٢ (يراجع الجزء الثانى من هذا الكتاب . الفقرة ٢ من الفصل ٣) - Great Britain in Egypt ص ٦٥ ، ١٧٦ - Islam in Modern History ص ٦٣ - ٦٧ الاتجاهات الحديثة فى الإسلام ص ٦٤ - ٧٢ ، ٨٤ - التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر : المقدمة ، الفصل الخامس (زعماء الإصلاح فى الأزهر)

(٢) فضائل الماسونية ص ١٢٤ ، وراجع كذلك مقدمة الكتاب .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨١٩ ، ٨٧٢ .

إلى تدعيم الدعوة للجامعة الإسـلامية ، بينما اتجه فى القسم الثانى إلى تقريب الإسلام من الحضارة الغربية والتفكير الغربى الحديث .

وكان من أهم ما اتجه إليه فى القسم الأول من هذه المقالات — أيام اتصاله بالأفغانى — محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستبداد ، ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجرى عليهم لأنه من قضاء الله . يقول فى إحدى مقالاته عن القضاء والقدر (1) :

« مضت سنة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الأعمال البدنية . فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها ، على ما بينا فى بعض الأعداد الماضية . ورب عقيدة واحـدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس . ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة ، فيعلق بها عند الاعتقاد شىء مما تصادفه . وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها . وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ فى الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فينشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد . ولا كيف يصرفه اعتقاده . والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة . ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم وقع التحريف والتبديل فى بعض أصول الأديان غالبا ، بل هو علة البدع فى كل دين على الأغلب . وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال حتى أفضى بمن ابتلاهم

---

(1) نشرت فى العروة الوثقى عدد أول مايو سنة ١٨٨٤ ، ونشرت بعد ذلك مرة أخرى فى مجلة (الأستاذ) عدد ١٦ مايو سنة ١٨٩٣ (تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٥٩ — ٢٦٧) .

الله به إلى الهلاك وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة ، استنادا إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة » .

« من ذلك عقيدة القضاء والقـــدر ، التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة . كثر فيهما لغط المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنهما ما تمكنت من نفوس قوم إلا سلبتهم الهمة والقوة ، وحكّمت فيهم الضعف والضعة . ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطوارا ، ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر » .

ثم يأخذ محمد عبده فى بيان الفرق بين الجبرية الذين يزعمون أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، وبين الاعتقاد بالقضاء والقدر الذى ترشد إليه الفطرة . فيقول بأن « كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان » ، « والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها . إن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة » . ويقول إن الافرنج الذين ينسبون تأخر المسلمين إلى القضاء والقدر يجهلون حقيقة هـذه العقيدة ويخلطون بينها وبين مذهب الجبر ، الذى انقرض أصحابه فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فالاعتقاد بالقضاء والقـــدر إذا تجرد من شناعة الجبر . تتبعه صفة الجراءة والإقدام ، ويبعث على اقتحام المهالك ومقارعة الأهوال ، وعلى الجود والسخاء . ذلك لأن الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، وأن الأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعـــلاء كلمة أمته وملته ؟ . . . وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى سبيل تعزيز الحق وتشييد المجد ؟

ثم يبين محمد عبده أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذى دفع المسلمين الأولين إلى أن يفتحوا العالم فى مدة لا تتجاوز ثمانين عاما . ويقول : إنه لم يظهر فى التاريخ

قائد عظيم ، إلا كان مؤمناً بالقضاء والقدر . ويضرب الأمثال لذلك بكورش الفارسي ، والإسكندر اليوناني ، وجنكيز خان التترى ، ونابليون الفرنسي[1] .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له نشر في العروة الوثقى عن النصرانية والإسلام وأهلهما[2] : « إن المسيحية قد بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القصاص ، ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغلب والتفنن في اختراع أدوات الغلبة والقتال . والإسلامُ قد بنى على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ، ومع ذلك نرى الأمم التي تدين به متهاونة بالقوة متساهلة في طلب لوازمها . ثم يتساءل هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ ... هل استبدت الأبدان فيهما على الارواح ؟ ويستعرض الكاتب حال المسلمين منذ اتصالهم بالمسيحيين ، فيرى أن المسلمين كانت لهم في الحروب الصليبية آلات نارية فزع لها المسيحيون ، فكانت السبب في انهزامهم . ويرى أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين ، وهم أصحاب حرب وفروسية . ثم يرى أن المسلمين إنما وهنت قوتهم بسبب ما دخل عليهم من بدع ليست من الدين ، حين انتشرت قواعد الجبر ، وحين أدخل الزنادقة والسوفسطائيون والكذابون من نقلة الحديث ما فيه السم القاتل لروح الغيرة ، الموجب لضعف الهمم وفتور العزائم .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له عن (الأمل وطلب المجد)[3] :

« ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الفضل ، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو عما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته

(١) راجع مقالا آخر لمحمد عبده في الموضوع نفسه نشر في المؤيد سنة ١٩٠٢ (تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩١)

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٧ - ٢٤٣ .

(٣) العروة الوثقى العدد ١١ - ١٩ يونيه ١٨٨٤ (تاريخ الأستاذ الإمام ٢٩٠ - ٢٩٧) .

في سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة . فيسوق إليه ما يجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاق مشقة . إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، وحرك لها في المشاق والمتاعب. وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تنفذ بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد ، فضلا عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بقاء الحياة من صدمات حوادث الكون » .

ويمضى محمد عبده في بيان أن الميل للرفعة أمر فطرى . فكل واحد يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر . لذلك يتزاحم الناس في الآمال والأعمال ، حتى يكونوا جميعاً شرفاء بما يأتون من أعمالهم . حكمة من الله ، ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ثم يقول إن بعض الناس تضعف هممهم حين يتوالى عليهم الصدام فيصيبهم الانحطاط الذى قد يؤول الى اليأس والقنوط ، وعند ذاك يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، إذ يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من إهانة ، فينزل إحساسهم إلى مرتبة سفلى ويرضون بما ترضى به البهائم . وهم مع ذلك لا يستريحون بذلك من النكد . فهم إن تركوا العمل لأنفسهم سلط الله عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم . فيكونون كالنحل العاملة ، لا تستفيد مما تعمل شيئاً ، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح .

ثم يبين بعد ذلك أن السبب في ضعف الهمم هو ضعف الإيمان فيقول :

« عجباً . . . كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ، والأمل وحب الكرامة طبيعيان في الإنسان ؟ بعد إمعان النظر تجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال ، وأن قوته هي سلطان أعماله ، وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول ، ورجع إلى قدرته فوجدها فانية ،

وقوته قرأها واهنة . فيعترف بوهنه . ويسكن إلى عجزه فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل . اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته متى كانت قوة المانع أعظم من قوته ، فلا سبيل إلى العمل ، لاستحالة قهر المانع . فينقطع الأمل ، فيقع فى الشقاء الابدى » .

« أما لو أيقن بأن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة ، يخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه ، يصرف عباده كيف يشاء ؛ لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتغتال آماله غائلة القنوط . فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته ، لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة فيركن إليها فى أعماله ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقاً . فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا فى مدافعتها ، معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلق قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ويشق البحار ويمكن الضعفاء من نواصى الأقوياء ... ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ بما حكى عن قول نبيه إبراهيم : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ . فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ، ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة ؟ » .

ويختم محمد عبده مقاله هذا بالتوجه إلى المسلمين . يخاطبهم بقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

هكذا مضى محمد عبده فى هذه الفترة من حياته ينبه الغافلين ويوقظ النائمين ، ويبين للناس أن الدين ليس كلمات تقال فى صلاة أو تقليداً يتبع فى صوم أو ترديداً غافلا للشهادتين فحسب . ولكن الإسلام مع ذلك كله بل قبل ذلك كله عقيدة تهيمن على كل تصرفات المسلم وتوجهه فى كل أعماله ، وكان من أخطر

ما صنعه محمد عبده فى هذه المقالات العنيفة الثائرة ، أن خرج على الناس بجملة من الآيات القرآنية ، كان الناس قد صرفوا عن تدبرها ، وأهملوا الاستشهاد بها والتأمل فى معانيها ، حتى بدت حين عرضها محمد عبده على الناس ، وبثها فى ثنايا مقالاته ، يربط بينها وبين الظروف التى تجتازها الأمم الإسلامية ، كأنها شيء جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التى كان يستشهد بها الوعاظ فى خطبهم ومقالاتهم منذ شدد الاستبداد قبضته على الناس ، لم تكن تتجاوز ما يتصل بما أعد الله من حسن الثواب للمتقين ، أو ما أعد من العذاب للعصاة والمفسدين ، ولكن محمد عبده أبرز فى مقالاته جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة . فهو يكتب عن امتحان الله المؤمنين (١) ، فيصدر المقال بالآية : ﴿ آلم . أحسب الناسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾. ويبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ، ثم لا يسهل عليهم الإيمانُ احتمالَ المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله . ليسوا بمعزل عن المنافقين . ويستشهد بالآية : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم ، فهم فى رَيْبهم يترددون ﴾ . ويختم مقاله بقوله : « إن امتحان الله المؤمن سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن ، إلى أن تنقضى الدنيا . فى كل قرن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أولى بأس شديد . فإن يطيعوا يؤتهم أجراً حسنا . وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما . فميزان الله منصوب إلى يوم القيامة ، وهنالك الجزاء الأوفى .

وفى مقال آخر له عن أسباب حفظ الملك(٢) ، يصدره بالآية : ﴿ أفلم يسيروا

---

(١) تاريخ الإمام ٢ : ٣١٧ — ٣١٩

(٢) المرجع السابق ٢ : ٣٢٠ — ٣٢٥

فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . فإنها لا تعمىَ الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) . ويطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك الله من شعوب ، ومن أباد من قبائل ، وما دمر من بلاد ، للاعتبار بأسباب هلاكهم . ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد ، مستشهداً بالآية : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) و (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم) . ويذكر منها عدم الاعتماد على الأجنبى ، مستشهداً بقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) . وقوله (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم ، لا يألونكم خبالا . ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدت البغضاءُ من أفواههم . وما تخفى صدورهم أكبر) . ويذكر منها انصراف الناس عن التوغل فى الشهوات ، مما يَشغِل قلوبهم عن الفرائض المفروضة عليهم ، ويصرفهم عن القيام بواجباتهم مستشهداً بالآيات (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها . فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلا . وكنا نحن الوارثين) و (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هُمْ يجأرون ، لا تجأروا اليوم ، إنكم لا تُنصرون) (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) .

ويذكر منها الشورى ، مستشهداً بأمر الله نبيه ، وهو المعصوم من الخطأ ، بقوله : (وشاورهم فى الأمر) ، وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين فى قوله : (وأمرهم شورى بينهم) . ويذكر منها إعداد القوة صوناً للأمة من أطماع الطامعين ويستشهد بالآية : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . ويختم المقال بحث العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، وعلى أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ـ ووعده الحق ـ فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(1) .

(1) راجع كذلك مقاله فى العروة الوثقى (سنن الله فى الامم) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٢٥ — ٣٣١ .

واتجه محمد عبده بعد عودته من المنفى إلى التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية واتخذ اتجاهه هذا أشكالا مختلفة . فظهر أحيانا في صورة مقالات أو مشاريع أو برامج تدعو إلى إدخال العلوم العصرية في الجامع الأزهر . وظهر تارة أخرى في صورة تفسير لنصوص الدين من قرآن أو حديث يخالف ماجرى عليه السلف في تفسيرها ، ليقرب بها إلى أقصى ما تحتمله ـ بل إلى أكثر مما تحتمله في بعض الأحيان ـ من قرب لقيم الغرب وتفكيره ، لكي يصل آخر الأمر إلى أن الإسلام يساير حضارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه .

وصحب الحركة الداعية إلى إدخال الدراسات العصرية في الأزهر حملة تحاول أن ترسم صـــورة قاتمة لما آل إليه أمره ، مشنعة بما تتضمنه بعض العلوم التي تدرس فيه من سخف ومن تفاهة ، داعية إلى التحرر من الآراء السائدة المقررة التي يتوارثها الخلف عن السلف (وهو ما سمّته التقليد) والتفكير بما يلائم ظروف الحياة الجديدة (وهو ما سمته الاجتهاد) . وكانت هذه الحملة تنقب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتبه لتعرضه على الناس . وقـديما قالوا « من فتش عن عيب وجده » .

فمن ذلك ما كتبه رشيد رضا في وصف حياة طالب العلم في الأزهر، إذ يقول(١):

« كانت أمكنة الجامع الأزهر من صحنه إلى مقاصيره إلى أروقته إلى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ ، ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية . فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكرات والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقامات الكنس من مواضع النوم أكواماً . وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفض تنظيف . وبين هـذا وذاك كثير مـن البصاق والنخامة . ثم إذا ذهب إلى جهة الميضأة وجـد حواليها أمثـال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول

(١) المرجع السابق ١ : ٤٨٠ — ٤٨١ .

تقوم فى مائها ، وهى تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . (بل كان بعضهم يستنجى بمائها من جوانبها، وقد أخبرنى الأستاذ الإمام أنه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الأزهر ، بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمى بالسلسور على قلته ، ويتوضأ منه ، وكانت ميضأة الجامع الأحمدى أقذر من ميضأة الأزهر، ولا سيما أيام الموالد الثلاثة . كان النساء يغسلن أولادهن من العذرة فيها، حتى ترى سابحة وراسية فيها. ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون إبطال الميضأة المكشوفة واستبدال الأنابيب بها (الحنفيات) من سيئات الإصلاح الذى ذهب (ببركات الأزهر)[1] وإذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الأدران ، وشم منها ما لا تحتمل الأنوف والأبدان »[2] .

« وإذا وصل إلى غرف السكنى فى الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويريق الماء بين يديه . فيمنعه الكسل أن يمضى بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان يسوّد وجه الحائط وداخل المسكن . وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس . فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات ، هذا إلى ازدحام السكان فى الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين . رأس الواحد عند رجل أخيه ، ومعهم فيها - على ضيقها - متاعهم وفراشهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود » .

« وإذا طاف الطائف فى جوانب الجامع وحول الأساطين وفى الأماكن التى يسمونها بالحارات ، وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفاً بلا نظام . تجرى بينها لقذارتها الفيران ؛ حتى يخالها الرائى لقدم عهدها من آثار الأقدمين . وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح العفن وعفن الخبز ، فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا إلى

(١) العبارة التى بين القوسين منقولة من الهامش .

(٢) كذلك وجدت العبارة فى النص : ولعل الصواب (ما تحمل من الأنوف والأبدان) .

حيث يلتهي به انفرار » .

ويقول في وصف ما آلت إليه حالهم الخلقية والعلمية(١) :

« ولقد كان محمد عبده ، على شدة عنايته بالأزهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته في تكريمهم ، شديد الاحتقار لهم في نفسه ، إلا أفراداً منه . وكان للأزهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص ، عند شدة تألمه من فساد حالهم . وهي : الاصطبل ، والمارستان ، والمخروب (بهذا اللفظ العامي) . . . وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم من شهادة الزور ، حتى من قضاة الشرع والمفتين ، الذين لقب المحقق ابن القيم امثالهم (بالموقعين عن رب العالمين) . وكان قد اطلع على ما لم يطلع عليه أحد من عارفيهم بعمله في إدارة الأزهر ، وتفتيشه للمحاكم الشرعية ، كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى ، وعلى ما هو أشد ضرراً منه ، وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو المعدّ لهذه المخازي كلها ، وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم . . . وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شنائعهم البذيئة الموروثة ، التي لا تبقي في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ولا عزة الإيمان المكتسبة . . . دع تأثير القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم » .

« وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والأوهام من أكثر القـــوم ، حتى أن الشيخ حسونة ، الذي كان يعده الأستاذ الإمام أمثلهم ، كان يقبل يد أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيأمنونه على نسائهم ، حتى إنهن كن يدخلن معه الحمام !! وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد المبتدعة ، ومشاركتهم سدنة القبور المعبودة فيما يُنذر لها من المال والفول النابت وغير ذلك » .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٩٥ - ٤٩٧ .

ويقول(١) : « كان طلبة الجامع الأزهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والإنشاء . وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له ولم يفده ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسّر الخطوط ناقص الحروف . وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبّر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به » .

« هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من الأكابر إلى اليوم . وإني لأعرف واحداً منهم كان عن دعاهم المرحوم الشيخ الإنبابي إلى الإفطار عنده في رمضان ، فاعتذر إليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلها الراءون ، إذ كتبه إليه في ورق من أوراق العطار . والكتابة فيها غير منتظمة الشكل . والخط لا يقرأ إلا لمن تعود قراءة هذه الخطوط . والأربعة الأسطار التي كتبها اعتذار الشيخ ، كان فيها أكثر من عشر لحنات نحوية لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية ، ولو مع التأويل الذي تعودوه . وهذه الرقعة من عالم كبير إلى عالم أكبر » .

ومهما يكن نصيب هذه الصورة من الصدق أو المبالغة ، فالذي لا شك فيه أنها صورة مظلمة تنفر القارىء من الأزهر ومن كل ما فيه ومن فيه . وربما تفرقه من الإسلام نفسه ، لأن مفهوم الإسلام في الأذهان مرتبط بعلمائه ومؤسساته ، أراد الناس ذلك أو لم يريدوه : وذلك هو ما دعا باحثاً أوروبياً مثل جب لأن يقول :

« وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون ، حتى في حياته يظهرون بمظهر واضح صريح . وقد كان هو نفسه في مادة العقيدة يعارض قبول كل شيء دون مناقشة ، أي يعارض (التقليد) كما يقال في الاسلام : وهذا الرأي يعتبر لبنة في بناء الحركة المتمدنة ، أو خشبة الخلاص في حركة التحرر العلمانية(٢) » .

---

(١) المرجع السابق ١ : ٤٤٩ — ٤٥٠ .
(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٧٢ .

ويقول كذلك فى موضع آخر :

« إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التى أنشأت إنشاء أوروبيا ويضمون للحلقات العلمانية ... ومن ناحية أخرى مهد الشيخ محمد عبده قد صنع جسراً فوق الهوة التى تفصل التعليم التقليدى عن التعليم العصرى الخاضع لمذهب العقليين الذى غزا الشرق من الغرب (١) » .

والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة كانت لا تزال تباكر الناس وتراوحهم عن طريق دروسه فى الأزهر ، ومن طريق الندوات التى كان يعقدها فى منزله أو فى منازل بعض مريديه ، ومن طريق المقالات التى كان ينشرها فى الصحف . وقد كان تفسيره للقرآن أحفل هذه الدروس وأكبرها تأثيراً . لأنه كان يجمع عدداً من أصحاب الثقافات الإسلامية والغربية — أو الدينية والمادية كما يقولون — على السواء علماء من الأزهر وأساتذة المدارس الثانوية والعالية وكبار رجال القضاء الأهلى والوجهاء ورجال الحكومة ومنهم محافظ القاهرة . وكان يلقى بعض هذه الدروس فى دار أحمد تيمور ، وهناك التقى به كثير من الأساتذة الذين اشتهروا فى الحياة العامة أو شغلوا مناصب كبيرة فى الدولة ، مثل الشيخ أحمد إبراهيم وحافظ إبراهيم ومحمد كرد على وأحمد فتحى زغلول ورفيق العظم وقاسم أمين وعبد العزيز جاويش بعد عودته من أوروبا (٢) . وكانت جرأته فى الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ، ومعارضته علماء الأزهر فى عصره ، سبباً فى كثير من الحملات التى خاضت فيها الصحف ، متهمة إياه بتسخير الدين لخدمة المستعمر الغاصب . وقد أعان على ذلك عداوة الخديوى عباس ، الذى بلغ من كراهيته له أن غضب على الذين شيعوه بعد موته (٣) .

---

(١) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام ص ٨٤

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٩ ، ٧٧٣

(٣) راجع فى ذلك مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٤ — ٣٧ ، ٣٩ وتاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩ .

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة ما عرف فى ذلك الحين بالفتوى الترنسفالية . فقد كانت من أعظم ما شنع به خصومه ومعارضوه . وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين فى الترنسفال أرسل إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه فى ثلاثة أمور ، أولها لبس البرانيط ، وثانيها أكل اللحوم التى يذبحها نصارى الترنسفال على طريقة المسلمين، إذ يضربونها بالبلطة ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين . وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة التى سأل عنها الترنسفالى . ولكن المسألة التى أثارت عليه الشغب خاصة هى المسألة الثانية ، التى أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى ، مستنداً إلى قوله تعالى ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتابَ حِلٌ لكم ﴾ فقد قال الله هذا بعد تحريم الميتة . وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ، ويعلم ما يعتقدون بعزير والمسيح . ورأى محمد عبـــده فى فتواه أن المضروبة بالبلطة هى غير الموقوذة التى حرّمها الله فالوقيذ والموقوذ هو الذى يُقتَل بغير محدد من عصا أو حجر(١) .

ومن أمثلة هـذه الفتاوى الجريئة ما أفتى به من جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، وذلك حين استفتاه بعض مسلمى الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين ، مستعينين فى ذلك ببعض الأجانب وغير المسلمين ، وقد جاء فى هذه الفتوى(٢) :

« إن ما يفعله أولئك الأفاضل دعاة الخير هو الاسلام . ومن أجلّ مظاهر الإيمان . وإن الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله ، وخرجوا عن أحكام دينه القويم . . . بق أن بعض المتشددين ربما تعرض لهم الشبهة فى فهم قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا إلى آخر الآية . وبعد أن أورد المفتى جملة من الآيات التى تصرح أو تشير إلى

---

(١) راجع التفاصيل فى تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ٦٦٨ — ٧١٦

(٢) المرجع السابق ١ : ٦٤٨ — ٦٦٦

المنع من موادّة المؤمنين لغير المؤمنين قال : « على أنه لا شبهة لهؤلاء الجهلة فى مثل هذه الآيات تسوغ لهم تفسيق إخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء فى الآية المحكمة من قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهُم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ . وبعد ما جاء من القصص الذى قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة ، إذ قال : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ . وبعد ما أبان أن لنا فى آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات . ولا يكون نكاح فى قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة . ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة » . ثم أورد محمد عبده فى فتواه أمثلة كثيرة لاستعانة النبى ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمويين والعباسيين بغير المسلمين من الذميين .

مثل هذه الآراء قد تبدو فى ظاهرها ولا بأس بها ولا غبار عليها ، بينما هى فى حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر (liberalism) الذى يذهب فى التسامح الدينى إلى درجة تكاد تنمحى معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنحل .

ولهذه النزعة أمثلة كثيرة فيما خلفه محمد عبده ، مثل قوله فى ختام بعض دروسه فى المنطق يحض على التفكير المتحرر (liberal) الذى لا يوقر رأيا ولا ينتهى عند الحدود التى يخشى معها الزلل ، فيما يستعصى على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته(١) :

« ما الذى يعتق الأفكار من رقها ، وينزع عنها السلاسل والأغلال ، لتكون حرة مطلقة ؟ . . . الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور . ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٢ — ٧٦٣

يرجع إليها كل ما يقال، وهي (الشجاعة). الشجاع هو الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم. فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته، وإن خالف فى ذلك الأولين والآخرين... لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس إلا الذى لم يأخذ إلا بما قال الناس. ولا يمكن أن يأتى هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة، وإن استعمال الفكر والبصيرة فى الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف. فإنّ فكر الإنسان لا يستعبده إلا الخوفُ من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم، أو الخوفُ من الضلال إذا هو بحث بنفسه. وإذا كان لا بصيرة له ولا فهم، فما يدريه، لعل الذى هو فيه عينُ الضلال».

ومن أمثلة هذا الاتجاه أيضاً قوله فى تزيين البحوث الإسلامية التى كتبها مفكرو الغرب ممن يسمونهم (المستشرقين)، وهى بحوث متحررة لا تصدر عن تقديس الإسلام أو توقير السابقين المقدمين من رجاله:(1)

«إننا لو أردنا أن نكتب فى تاريخ علم الكلام مثلا فلا يوجد فى تواريخنا مادة تفى بالغرض. يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة، واعتزل مجلس الحسن البصرى. ولكن ما سبب ذلك؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد؟ وكيف انتشر هذا المذهب؟ وما الذى حدا بالشيخ أبى الحسن الأشعرى للقول بأن الوجود عين الموجود؟ ومتى دخلت الفلسفة كتب العقائد؟. وماذا كان غرض العلماء من إدخال الفلسفة على المعقول مع العقائد فى وقت واحد؟... كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا. ويمكننا أن نعرف كثيراً من شئون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية. فإن فيها ما لا نجده فى كتبنا. إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حالُ هذا العصر إلا إذا كان متقنا للغة من اللغات الأوروبية، تمكنه من الاطلاع على ما كتب

---

(1) المرجع السابق 1 : 927

أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم ، وغير ذلك من العلوم » .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الذي يبرر الحضارة الغربية تبريرا إسلاميا قوله في إباحة الصور والتماثيل (١) :

« الرسم ضرب من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع . والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في الوقائع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً » . وبعد أن أفاض في بيان مزايا التصوير قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية ؟ هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ . فأقول لك إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة . فإذا أوردت عليه حديث (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين . والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور في الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به . فإذا زال العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٤٨٩ — ٥٠٢ وراجع رأيا آخر كذلك في إباحة التصوير في مجلة الهداية عددي يونيو ويوليو سنة ١٩١١ ص ٤٨٩

تصوير النبات والشجر . . . ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فإنى أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ . . . على أن المسلمين لا يسألون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها . وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الاولياء ، أو من سماع بعضهم بالاولياء ، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة ، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد خشية، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عناية الله سبحانه وتعالى . ولا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية » .

ويذكرنا ذلك كله بما جاء فى تقرير اللورد كرومر فى صدد مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى وضعه محمد عبده مع آخرين بتكليف منه حيث قال :

« كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون كالى حاكم البوسنة لتبادل الرأى فى الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل — بفضل مساعدته ومساعدة خلفه — على معلومات وافية عن الكلية التى أنشأتها حكومة النمسا والمجر فى ساراجيفو لتخريج القضاة (يقصد قضاة الشرع المسلمين) وهى كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه . وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتى الاكبر السابق ، بقصد وضع خطة مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها . وقد أتمت اللجنة عملها فى شهر يونية السابق ، ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة . وهى الآن قيد البحث فى وزارة العدل (الحقانية وقتذاك) . وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحررى of a liberal character . لا تحصر الطالب

في الدراسات الدينية الخالصة(١) .

على أن هذه الفترة التي تلت عودته من المنفى لم تخل من أثر اتجاهه الأول في بعض ما دافع به عن الإسلام ، وقد كان أشهر أعماله فيه رده على هانوتو ، الذي كتب مقالا عن الإسلام في معرض الحديث عن سياسة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، قارن فيه بين الإسلام والنصرانية ، ونشرت ترجمة مقاله سنة ١٩٠٠ ، فرد عليه محمد عبده رداً طويلا في ثلاث مقالات ، كانت حديث الناس وشغلهم في ذلك الوقت .

تكلم هانوتو في مقاله(٢) عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية ، وحقائق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر . وقال إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام ، بل صارت صدر الإسلام وكبده ، فالإسلام يحيط بها في أفريقيا ، ويمتد في آسيا إلى الصين ، وهو قائم بأوروبا في الأستانة ، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض » . ثم قال إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتجهون إلى الكعبة . وتجمعهم رابطة واحدة ، وانهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلهم ، فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث حلوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن . وقال إن المتعصبين من المسلمين (مثل السنوسي) ، تقوم عقيدتهم على مبدأ كفاح ضد المؤمنين ، وعلى كراهية المدنية الحاضرة . ولقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين المسيحية من علاقات . وانتهى من هذا الاستعراض إلى قوله : « توجد بالأستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف » .

---

(١) تقرير سنة ١٩٠٥ الفقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الإنكليزي .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ — ٤١٤ .

ثم دخل هانوتو فى موازنة بين الدينين ، فقال إن المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر ، والمغفرة ، والحساب . وقال: إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل فى اتجاهين : « ا » اتجاه يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، ويجعل الإنسان فى حضيض الضعف ودَرَك الوهن . « ب » واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القرب من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات . ثم قال هانوتو : إن نتيجة الاتجاه الأول هو تعريض الانسان على إغفال شئون نفسه ، ووضع القنوط فى قلبه وتثبيط همته . أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى فهو يؤدى إلى الجلاد والعمل . ومثل للاتجاه الأول بالديانة البوذية ، كما مثل للاتجاه الثانى بالثقافة اليونانية . ثم قال : إن المسيحية هى الوارثة لآثار الآريين ، وهى منقطعة الصلة بالمذاهب السامية ، وإن كانت مشتقة منها . أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامى ولذلك فهو ينزل بالانسان إلى أسفل الدرك ، ويرفع الإله عنه فى علاء لا نهاية له . وأصول الثالوث السرى مشتقة من ضرورة وجود إله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ، ويحمل المسيحى على إتيان الأعمال التى تقربه من الله . أما الاسلام فهو يتمسك بالوحدانيـة ، ويرفض ذلك ، فيجعل المسلم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ، ولا يملك فى ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات . فلفظ الإسلام معناه الاستسلام المطلق لإرادة الله .

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيين الفرنسيين فى تصور العلائق التى تربطهم بالمسلمين . فالمسيو كيمون يعتقد أن « الاسلام جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا . بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء . وهو يرى المسلمين وحوشاً ضارية . ويعتقد أن الواجب إبادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » (١)

---

(١) صلوات الله وسلامه عليه .

فى متحف الوفر . (٢) والمسيو لوازون (القس ياسنته سابقا) ، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحى محسّناً ومحوّرا . فهو يعتبر الإسلام أرق مبدأ وأسمى كعبا من المسيحية . (٣) وهناك فريق ثالث يتوسط بين الفريقين ، ويقول إن الإسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية.

ثم قال هانوتو إن هذه الآراء المتباينة هى التى أحدثت التناقض فى أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية . وطالب بأن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام . ثم قال إن الإسلام دين وسياسة ، وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطنُ عندهم فى الإسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالوهية . فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار هانوتو إلى نجاح فرنسا فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق ، دون أن تثير ضجيجاً أو تذمراً . فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . وتسربت الأفكار الاوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدى . وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الاسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض . ودعا فى آخر مقاله إلى أن تتخذ تونس مثالا يقاس عليه ، ونموذجا ينسج على منواله .

ورد محمد عبده على مقال هانوتو فى ثلاث مقالات .

أما المقال الاول فقد اتهم فيه هانوتو بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين ، وإثارتهم على حرب المسلمين ولفت إلى ذلك نظر الشباب المصرى الذى يتعصب للثقافة الفرنسية . وقال محمد عبده إن أصل التمدن الآرى هو الهند . وهم يعتقدون بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشئون المعاش . وقال إن الاسلام هو الذى حمل إلى أوروبا مدنيات العالم ، من فارس ومصر واليونان والرومان ، بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الأندلس . ثم تساءل بعد ذلك عما يعنى

هانوتو من المقارنة بين المدنية السامية والمدنية الآرية ، فليس هناك علاقة بين الدين المسيحي وبين المدنية الحاضرة . فالإنجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها . ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قيصاً أن يعطوه الرداء أيضاً . وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر . ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغنى في ملكوت السماوات، فهل تقوم المدنية الأوروبية على هذا الأساس ؟ ثم قال: إن الفينيقيين من الساميين، وهم أساتذة العالم في الصناعة والتجارة ، بل القراءة والكتابة . ومنهم الآراميون . وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض في المدنية، لا فرق في ذلك بين آرى وسامى . ثم أشار محمد عبده إلى ما قرره هانوتو من أن الدين الاسلامي يراد به التوحيد، والدين الآرى يقصد به ما يقابله . وقال إن هذا خطأ واضح ، لأن التوحيد هو دين عبراني فقط ، عرف به إبراهيم وبنوه ، ومنهم عيسى .أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس فقد كانوا وثنيين مشركين[1] .

وتناول محمد عبده في مقاله الثاني[2] مناقشة مسألة القدر والجبر عند الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين . فقال : إن الآرية والسامية لا دخل لها في هذه المشكلة ، فقد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم . ثم قال إننا لا نعرف يهودياً استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالا على القدر . ولكن نعرف ذلك في الأديرة وبين الرهبان . ونعرف بين المذاهب اليونانية ما يذهب إلى أن الأشياء توجد بالاتفاق والمصادفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب ، وذلك الاعتقاد أدخل في باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون . ثم بين أن النبي وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوة ، ولم يكتفوا بالتسليم للقدر

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٤١٥ - ٤٢٠ .

(٢) المرجع السابق ٢ : ٤٢٠ - ٤٢٤ .

فى إتمامها : قائلين إن الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . كما بين أن الآريين الذين دخلوا فى الإسلام - من فرس ورومان ، هم الذين أفسدوا العقائد الاسلامية ، فأدخلوا فيها ما ليس منها . وأن الأوهام التى يبثها المتصوفة فى الدين ترجع إلى أصول فارسية وهندية .

أما المقال الثالث ، فقد تناول فيه التوحيد والتنزيه . وتجسد الألوهية والتشبيه(١) فقال : إن الوثنية وتوهم السلطان الإلهى ظاهراً فى بعض الموجودات المادية ، كان عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية . لم يدخلوها ولم يتوسطوا معازلها . وكلما ارتقى الانسان فى العلم . تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الأعلى . وقد كان هذا شأن اليونانيين ؛ حتى جاء سقراط وأفلاطون وأرسطو . وكذلك كان المصريون ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد . غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم . واستبقوا صور العبادات الأولى. ثم بين أن أهل التشبيه قسمان: قسم يعتقد بألوهية بعض الموجودات المشهودة . وقسم آخر يعتقد أن بارىء الكون يظهر فيها . وبين هذين قسم ثالث ، يعتقدون بالوسائط ، ويقيسون الله على الكبراء وأهل السمو منهم ، فيتخذون بعض من يظنون بهم القرب من الله شفعاء ، يلجأون إليهم ليقربوهم منه سبحانه . وهؤلاء قد استعبدوا أنفسهم للسادن والكاهن والوعاظ ووارثيهم ، واستسلموا لهم فى جميع شئونهم. ثم قال إن ربط هارتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل، لأن المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية . وكان التنزيه قوام دعوتها، ولم تظهر آثار التشبيه إلا بعد قرون من نشأتها، وقال إن من المسيحيين الآن — مثل بعض طوائف البروتستانت — من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر . ومن غير المعقول أن تجاهد المسيحية من حولها من الوثنيين ، لتخرجهم من ثنية إلى وثنية . أما الإسلام فقد دعا

(١) المرجع السابق ٢ : ٤٢٥ — ٤٣٢ .

إلى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام ولم ينكر الاسلام أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه . وذكر أن منهم مَن مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجوع لأصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويُعتق من سلطة الرؤساء والوعاء ، الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وروحه . وبهذه العقيدة التى تدعو إلى التوحيد فتح المسلمون الدنيا ، وجالوا فى علوم السماوات والأرض ، فنبغوا فى مختلف فروع العلوم . وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها . ورد محمد عبده على ما توهمه هانوتو ، من أن الاسلام قد قطع الصلة بين العبد وربه فقال إن الاسلام قد أفضى بالعبد إلى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه . ثم قال : إن ثورة المستعمرات لا ترجع إلى أن فرنسا مسيحية ، فلو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها ، ثم كانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد فى الجزائر ومدغشقر ، لما أحبها أهل المستعمرات ولا مالوا إليها .

وبعد هذا المقال ، انبرت جريدة (الأهرام) لمناقشة محمد عبده والرد عليه زاعمة أنه بنى رده على ترجمة محرفة لكلام هانوتو . ولما اطلع هانوتو على ما جاء فى النسخة الفرنسية من الأهرام ، كتب مقالا جديداً نشرت المؤيد ترجمته ، حاول فيه الاعتذار عما رمى به من إغراء دولته بالمسلمين . وقال إنه لم يحاول فيما قال إلا الإصلاح وإقامة السلام . ثم نشر (الأهرام) بعد ذلك حديثاً لصاحبه مع هانوتو قال فيه : إنه روى آراء كيمون ليعرف المسلمون ما يقول عنهم ، وهو لا يعتقدها . وقال إن أوروبا لم تتقدم إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية . ونصح الشرق بأن يحذر حذر أوروبا . ورد بعض مفاسد الشرق إلى أسلوب الحكم العثمانى . كما رده إلى ما يتوهمون من أنهم يستطيعون تحقيق النجاح باستغلال ما بين الدول الأوروبية من تنافس ومن خصومة ، وبإقامة البراهين على عدالة قضيتهم . والواقع أن الدول الأوروبية لا تهمها العدالة ، ولكن تهمها مصالحها

الاستعمارية . ونصح الشرقيين بأن ينهجوا نهج أوروبا كما فعلت اليابان ، فيعملوا على نشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وعلى إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب . وقال إن العبرة ليست فى إقامة المدارس ونشرها ، ولكنها فى وضع مناهج الدراسة السليمة . وختم مقاله بأن السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوروبا الأولى فى سياستها ، وبها تقدمت وتمدنت ونهضت[1] .

ورد محمد عبده على هذا المقال الأخير فى ثلاث مقالات أخرى شرح فيها حال الأمم الاسلامية . ورسم الطريق لعلاجها[2] .

وقد ظل أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون بما يلقون من تشجيع الإنكليز الذين كانوا يمكنون لهم فى إدارات الحكومة وفى مناصب الدولة الكبرى[3] ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التى تشد أزرها الصحف والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلون ويضعفون بمناوأة الانكليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم . حتى أصبح اسم محمد عبده مقترنا فى أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه مقترنا بالتزمت وضيق الأفق المفسد لسماحة الاسلام .

وقد ظهر صدى ذلك فى الشعر الذى قيل فى رثاء محمد عبده . فقد أشاد الشعراء الذين شاركوا فيه بفضله على النهضة الاسلامية . فن ذلك قول حافظ إبراهيم فى رثائه ، مشيرا إلى منهجه الجديد فى التفسير وإلى توفيقه بين العلم والدين ، وما لقى فى ذلك من أذى[4] :

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا مكانك حتى سوّدوا الصفحات

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٤٤٠ — ٤٤٨ .

(٢) المرجع السابق ٢ : ٤٤٩ — ٤٦٨ .

(٣) راجع ما جاء فى تقارير كرومر السنوية بمناسبة تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف تقرير سنة ١٩٠٦ . الفقرة ٣ تحت عنوان (Egyptian Nationalism) ص ٨ .

(٤) ديوان حافظ ٢ : ١٤ .

رأيتَ الأذى فى جانب الله لذة ورُحْتَ ولم تُهْمُمْ له بشكاة
لقد كنتَ فيهم كوكباً فى غياهب ومعرفةً فى أنفسٍ نكِرات
أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرّقتَ بين النور والظلمات
ووفّقتَ بين الدين والعلم والحجا فأطلعتَ نورا من ثلاث جهات
وقفتَ (لهانوتو) و(رينان) وقفةً أمدّك فيها الرُّوح بالنفحات

ومن ذلك رثاء الكاشف ، الذى أشار فيه إلى ما ذهب إليه محمد عبده من أن صلاح الأمة بصلاح الرعية لا السلطان ، وإلى ما غرس فى المسلمين من روح التسامح الذى يتفق مع حقيقة الاسلام ؛ كما أشار إلى عبارته المشهورة « لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل » ، ودافع عما اتهمه به خصومه من موالاة الانجليز . فقال (١) :

فأريتَ أهل الشرق أن صلاحهم بنفوسهم لا بالملوك مؤكّد
وأبنته للمغلوب علة عجزه ومراسَ غالبه فهمٌّ يقلد
من بعد ما أمضى الليالى خائفاً مترقباً أو ذا شكاةٍ يجهد
وأضله نفرٌ يرون نجاته فى أن يسبّوا من بغى ويعربدوا
يتطلب الدستورَ أقوام ، ولو ولِّيتَ حكم شعوب قيصر أخلدوا
وقصدا يورد فسلاته وحماته لو أطلقوا لك أمرهم وتقيدوا
وقضيته فيهم مستبداً عادلا (٢) لجمعت شملهمُ وأنت المفرد
... أنصفتَ حتى ما يُسر لمسلم متعصّر حقداً ولا متودد

---

(١) ديوان الكاشف ٢ : ١٢٢ — ١٢٤ .

(٢) راجع مقاله (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل) تاريخ الاستاذ الإمام ٢ : ٣٢٩ . وقد تمنى فيه أن يحكم مصر دكتاتور صالح لمدة خمس عشرة سنة، وهو سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح، وينمو تحت رعاية الوالى الصالح الذى يحملوا الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة

ما قنعتَ بالاصلاح إلا بعد ما قدَرْتَ قدرة من يكيد ويفسد
وجعلت عفوك عن عداتك سنة الفاسدين بها إليهم تعهّد
ما الحربُ تقتيل العدا ، لكنها نزع الحكيم من الورى ما عوّدوا

* * *

وظل صدى دعوة محمد عبده فى كثير مما كتبه تلاميذه ومعاصروه . فمن ذلك ما كتبه رفيق العظم (وهو أحد تلاميذه) رداً على مقال عبد القادر حمزة : « خطر علينا وعلى الدين » الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل . فدعا فى مقاله إلى تنقيح الدين وتهذيبه على غرار ما حدث فى أوروبا قبيل ما يسمونه عصر النهضة فى القرن السادس عشر ، حتى يصبح — حسب زعمه — ملائماً للعصر وصالحاً للحياة (١) . بين رفيق العظم فى مقاله أن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب ، وأن الذين يطالبون بعدم إقحام الدين فى شئون الحياة لا يفرقون بين الدين فى حقيقته ، وبين الدين كما انتهى إليه أمره . ولا يميزون بين المصلحين من علماء الدين ، وبين المتنطعين من الجامدين الذين يدافعون عن بدع مستحدثة وعادات بالية فاسدة يسمونها الدين . ثم رد على الذين يزعمون أن سبيل الإصلاح هو فى اتباع الغربيين الذين نبذوا الدين . فقال : « رب قائل يقول : ما أغنى هؤلاء المصلحين عن إصلاح الدين ، وأحراهم بالدعوة إلى إصلاح أمر الدنيا ، وبيان وجوه الخير والسعادة ، التى تم بها سعادة الأمم الراقية التى نبذت الدين . فالجواب عن ذلك أن المرض إنما يزول بزوال سببه ، وإذ علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذهم البدع والعوائد دينا . وهى ليست من الدين ، واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين ، لزمنا أن نسعى بإزالة السبب . ومتى زال وتنشطت العقول من عقال الأسر للعوائد ، والإغراق فى الاستسلام لكل ما يقال إنه من الدين ، حق وقتئذ على العقلاء والمصلحين أن يحولوا وجهتهم إلى الإصلاح المدنى ؛ إذ يجدون

(١) المقتطف عدد مايو سنة ١٩٠٤ ص ٤٠٢ — ٤١٠

يومئذ كل الامة آذانا مصغية لما يقولون ، قلوباً واعية لما به ينطقون » .

ومضى الكاتب فى بسط نظريته التى تقوم على أن الاصلاح المدنى ، يتبع الاصلاح الدينى . وأن المجتمع القوى الناجح لا يقوم إلا على أساس العقيدة السليمة ، مؤيداً رأيه بالنظر إلى تاريخ النهضة الأوروبية نفسها ، التى يدعو بعض المسلمين إلى اقتفاء آثارها . فقد بدأت هذه النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى بالاصلاح الدينى الذى دعا فيه لوثر إلى ترك البدع الدينية ، وتطهير العقائد من شوائب العصور القاتلة للعقول . ثم كان الاصلاح المدنى من بعد نتيجة لهذا الاصلاح الدينى الذى أطلق العقل من قيود السيطرة الجائرة ، بمثل ما كان الاصلاح السياسى نتيجة للثورة الفرنسية .

ثم تتبع رفيق العظم تاريخ دخول البدع على الدين مما استدعى ظهور طائفة من المتشددين ، فرأى أن الاسلام كان فى أوله سهلا يسيراً ، لايزيد على أن يلقن الداخل فيه كلمة التوحيد ، ويعلم أركان الصلاة ، ويؤمر بحفظ شىء من القرآن ، ثم يقال له : هذا هو الاسلام فى بساطته ويسره . وكان المتفقهون قلة من الصحابة ولم يكونوا يجاوزون فى فقههم واقع الأمر الذى يعين على معرفة أحكام الدين . فلما دخل كثير من الوثنيين وأهل الكتاب فى الدين ، نقلوا معهم جملة من الآراء الفلسفية والبدع العقلية ، مثل بدعة معبد الجهنى وغيلان الدمشقى فى القول بالقدر واختلف أرباب المقالات بين جبرية وقدرية ومشبهة ومالا يعد من الفرق التى جمعها الاسلام ، وفرقتها الوثنية والابتداع » . « ورأى ذلك فريق آخر من الامة فهالهم ما رأوا . فنادوا : واغيرتاه على الدين . وبالغوا فى الانذار والتحذير ، وقول : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا يمس الدين ، وهذا تقليد الوثنيين وهذا يشكك المسلمين ، حتى أحرجوا صدر الامة ، بإلصاقهم كل شىء بالدين . فالقيام والقعود والأكل والشرب والتخاطب والتعامل والعلم والتعلم كله بالدين ومن الدين وللدين . وبالجملة لم يدعوا شيئاً من العوائد إلا أدخلوه فى الدين » .

وخلص رفيق العظم من كلامه إلى الإجابة على السؤال الذى ختم به

عبد القادر حمزه مقاله (هل فى النداء بالدين فائدة ؟ . . . فأجاب على ذلك بأن الكاتب قد أخطأ حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على مادخله من الحشو واللغو المضر . فنحن فى حاجة إلى النداء بإصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقاً كما ظن . « وإنما ينفع النداء بالدين ، إذا امتاز تجار الدين والمتعصبون للتقاليد ، عن علماء الدين والإصلاح الغيورين . وتركوهم وشأنهم فى الدعوة إلى تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذى تلبس به سواد الأمة ، فأصبحوا بعيدين عن قبول السعادة المدنية بُعْدَ الأرض عن السماء » .

وتابع عبد العزيز جاويش أستاذه الشيخ محمد عبده فى منهجه . فأنشأ مجلة (الهداية) سنة ١٩١٠ . وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه . فى تقريب الإسلام من قيم العصر وثقافته ، التى هى فى حقيقة أمرها مستمدة من قيم الغرب وثقافته . وأفسح من صفحات مجلته للمترجم من الثقافات الغربية الحديثة فى التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره ونثره .

أما ماكان ينشر فى المجلة من مقالات إسلامية فبعضه يستهدف تقريب الدين من الثقافة الغربية الحديثة . وبعضه يستهدف تقريبه من المدنية الغربية ليطابق أنماط الحياة السائدة . فما نشرته المجلة فى تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوى الجوهرى فى التوفيق بين الإسلام وبين مذهب دارون فى التطور ، يقول فيه(١) :

« إنى قرأت تلك المحاورات . وعلمت ما فى تلك القضيات ، ولم أر شيئاً يغاير الدين ، ولا فكراً يضر بعقائد المسلمين . فالإسلام يأمر الناس باليقين ، ولا يقين إلا بالعلوم التى يسميها الناس عصرية ، وهى فى الحقيقة علوم إسلامية » .
ثم يقول :

« إن الإيمان بالله تعالى قضية كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ، ولا ينافيها منهج من المناهج . فإذا قلت إن الله وضع العالم منظما مرتبا سائراً على القانون

(١) الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ ص ٥٨٣ — ٥٩٦ .

والترتيب والحكمة والتناسق ، كما هو القضية الأولى(١) ، أو قلت إن الخيل والجهد تولد بينهما بغل ، فلا كفران ولا خسران . كل ذلك حكمة إلهية وعجائب حكمية . وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون فى العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء . فإن عقولهم لا تسع نظاما وترتيباً وإلها قادراً حكيما . ومثلهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير فى الأمراض ، ويكتفون بالإيمان، وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه » .

ثم رد نظرية دارون فى التطور إلى علماء المسلمين فقال :

« قدعلمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين،وهما لا ينافيان الألوهية(٢) فدلالة العالم المنظم على الله قضية كلية لا يختلف فيها المحققون، وإن غفل عنها الكثيرون. ولقد كانت هذه القضية الناموسية سراً مكنوناً عند علماء الاسلام ، كم أخفوها عن العوام . وتسمى عند علمائهم (دائرة الوجود) وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر، وتسمى فى القرآن بالميزان. وورد الترتيب النظامى بذكر الإنسان فالحيوان فالنبات فالسماوات وكواكبها وشموسها فى سورة النحل ، رجوعا بالعوالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب . وقد قال الغزالى رحمه الله : لا يعرف هذا السر إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم » .

ودعا طنطاوى جوهرى علماء المسلمين وشبابهم إلى الاستعانة على توثيق إيمانهم بدراسة العـــلوم . « فقراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم العصرية ، ودراسة الحيوان والنبات والانسان ، أجل عبادة . وهى أفضل من سائر القربات كما شرحه العلماء . وهى أفضل من صلاة النافلة والإحسان للفقراء .

---

(١) رد الكاتب فى مقاله مذهب دارون إلى قضيتين ، أولاهما هى أن العوالم العضوية من النبات والحيوان والانسان متشابهة منتظمة متناسقة ، يتصل أولهـا بآخرها ، وثانيتهما هى أن الأجناس العليا مشتقة من الأجناس الدنيا . ومسألة القرد والانسان جزء من آلاف من تلك القضية . وترجع كلها إلى التوالد الذاتى من الجماد .

(٢) القضيتان اللتان أشرت إليهما فى الهامش السابق .

ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون ، وما أحاطت بهم عاديات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثان(١) .

« ورد على ما يزعم الزاعمون من أن دراسة العلوم الطبيعية يورث الزيغ عن الدين وزعزعة اليقين فقال :

« إن أولئك الملحدين أحد اثنين . إما رجل جهل الطبيعة ودرس قشورها فهو من الشاكين . وإلى رجل ضعفت قوته الحاكمة ، فلأ عقله بالمفروضات وليس له من قوة الحكم من نصيب . إن بعض الشرقيين أسرعوا إلى الالحاد لقلة بضاعتهم من العلوم (علوم الطبيعة يقين الحكماء ، شك لمن دونهم) فما مثلهم إلا كالخفافيش أو الفتراش يبهرها ضوء الشمس ، أو كالفقير أصابه الغنى فجأة ، أو كثيران الأسبان يهيجها بعد حبسها حمرة الألوان . هذه طبائع بعض الانسان. ومن الناس من يحل من هذا الكلام ، إما لفسوق فيه ، وإما لكبر وخيلاء ، لئلا يقوله الناس رجع عن رأيه . وإما ليتظاهر بأنه أعلم ممن حوله من العالمين وما درى المسكين أن الانكار أسهل شيء على الجاهلين وليس يعوزه إلا العناد الذى ما له من نفاذ » .

ومما نشرته (الهداية) فى التوفيق بين الدين وبين حضارة الغرب التى تغاير حضارة المسلمين وأنماط حياتهم مقال لعبد القادر المغربى فى حجاب المرأة (٢) ، بين فيه أن الغرض من الحجاب فى الإسلام هو صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض . وأن الاسلام لم يحدد له صورة خاصة وكيفية يعينها ، وإنما نهى عن التبرج وعن الخلوة بالأجنبى . ولكن المسلمين جروا فى حجاب نسائهم على طرائق اختلفت باختلاف بيئاتهم وأقطارهم وعمرانهم وأمزجتهم وسائر المؤثرات

---

(١) راجع أم القرى ص ٣٧ — ٣٨ ، طبائع الاستبداد ص ٣٤ — ٣٦ فى بعض الأمثلة على ما يستفيده علماء الدين من العلوم الحديثة فى فهم دينهم ، وما كشفت عنه العلم الحديث من بعض أسرار القرآن .

(٢) الهداية : عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ص ٧٠٩ — ٧١٤

التي تحيط بهم . وأورد أمثلة كثيرة على جواز السفور منها أن النبي ﷺ شهد وليمة عرس ، وكانت العروس نفسها تقدم المدعوين . ومنها أن زوجة عبد الله بن عمر كانت تنزل إلى المسجد فتصلي الفجر غلسا . ومنها أن أبا بكر كان يجتمع بالنساء الأجنبيات ويحادثهن . وأن سفيان الثوري وأضرابه كانوا يزورون رابعة العدوية ويسمعون كلامها . وأن عائشة الباعونية (في القرن الحادي عشر من الهجرة) كانت تقرأ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق ،وكان يحضر درسها العلماء والصلحاء وعامة الناس . وأن عمر بن الخطاب كان إذا رأى امرأة مرخية قناعا على وجهها كشف القناع ونظر إليها فإن وجدها جميلة أقرها ، وإلا ألزمها بالسفور وترك القناع . وأن عائشة بنت طلحة كانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها (أي أنها تشعر من نفسها بأنها أعظم من أن يحدث نفسه بها فاسق) وأن سكينة بنت الحسين كانت تجالس الجلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ، وتأذن للناس إذنا عاما حتى تغص بهم الدار ، فتأمر لهم بالطعام، ثم تسأل الشعراء وتنقد أعمالهم .

ومما كتبه عبد العزيز جاويش في تدعيم هذا الاتجاه خطابه الذي ألقاه في المؤتمر المصري سنة ١٩١١ ونادى فيه بوجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق الشريعة الغراء . وقد جاء فيه(١) .

« ألا ليهدأ روع أولئك الذين يتقدون غيرة على الدين كلما عرضت حال يدعو فيها داع إلى الاصلاح ، واهمين أنه لا يكون شيء من ضروب الاصلاحات إلا حيث يكون المساس بأحد أصول الدين . وإذا لم يكن بد من أن يغار ، فإن أحق ما تحقق عليه غيرة المؤمن ، بل أولى ما تسكب عليه حبات القلوب دما من المحاجر ، هذا الشرع الذي لحق به الوهين ، وتلك الأمة التي كادت تكون في الغابرين . ليهدأ روعهم ، وليخففوا عنهم بعض ما بهم . وليعلموا أن من

---

(١) الهداية عدد مايو سنة ١٩١١ ص ٢٩٧ — ٣١٢ ، مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ص ١٢٥ — ١٣١

الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التي قررها نفر من أهل العلم، دون رعاية للمصلحة العامة، التي هي أصل من أصول الشرع الشريف . . .

لقد سمحت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة، حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار . بل رخصت أن يعدل عن النص، إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول، وكانت المصلحة التي تنتج من اتباع النص أقل مما ينتجه هذا العدول » .

ثم ذهب الكاتب إلى أن قوانين الشرع عامة كلية، وأن الذي نُص عليه فيها من أحكام التعامل قليل، وأن الباقي ترك لاستنباط ما يناسب الضرورات والحاجات التي ستجد للناس . كما زعم أن تقيد الناس بآراء الفقهاء الاقدمين، الذين استنبطوا من الأحكام ما يناسب أحوال زمانهم، قد أوقع الناس في حرج لا مسوّغ له من الشرع، واضطرهم إلى الأخذ بنظم الأمم الغربية . وقدّم في مقاله أمثلة لعدول النبي ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله عن قاعدة الشرع رعاية للأصلح . منها أن النبي ﷺ نهى أن تقطع الأيدي في الحدّ في حالة استثنائية هي الحرب، ومنها أن عمر رضي الله عنه نهى أن يجلد في حدّ من كان يباشر الحرب . ومنها إسقاط الحدّ في عام المجاعة . ودعا الفقهاء إلى الخروج عن عزلتهم، وإلى دراسة المجتمع، ليتعرفوا أعراضه وأطواره، كما دعاهم إلى الاختلاط بسائر طبقات الأمة ليعرفوا عناصر الحياة الاجتماعية، ومم تتركب، وكيف تتدرج، وما يطرأ عليها من التغيرات، وكيف تترقى . وطلب إليهم أن يرجعوا لأهل الرأي من الأمة ليستعينوا بهم على مراعاة المصلحة العامة، فيكون تقريرهم مجمعاً عليه، لانطباقه على الحاجات المتنوعة والضرورات المتعددة .

وأخذ عبد العزيز جاويش في تفسيره القرآن يسير على منهج الشيخ محمد عبده في ربطه بالظروف القائمة متنقلا في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة . فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت أن لا يلي الأرض

إلا الصابرون وذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك !!. قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ . وقد جاء في تفسيره(١) :

« كيف تكفرون بالله بعد إذ أرادت الملائكة أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون البشر ، وذلك لمكانتهم من الله تعالى . واعتكافهم على عبادته وتسبيحهم بحمده وتقديسهم له . فبين الله لهم أن شرائط الخلافة في الأرض ليست تقطيع الليل في التسبيح والتهجد ، ولا إنفاد الأعمار في الخفوف من حول العرش . وإنما شرائط الاستيلاء على الأرض ، والاستمتاع بما على ظهرها ، والتصرف فيما تضمنه بطونها ، لا تكاد تخرج عن وجود العقل المفكر . وما زود الله به بني آدم من الجوارح والنظام البديع . . . لو أن عمران الأرض واستحقاق الخلافة فيها كانا معقودين بمجرد طاعة طائفة من عباده ، وانهماكهم في تسبيحه وتقديسه ، (والتزامهم) لقواعد عرشه الرفيع ، لاختص الله من عباده بذلك ملائكته المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكنه تعالى سبقت حكمته أن لا يرث الأرض إلا العاملون ، الذين يستخدمون مواهبهم العقلية والجسمية فيما خلقت له ، والذين لا يطلبون الغاياتِ إلا من طرائقها الطبيعية ... وإذا كانت هذه هي سنته القديمة وتعاليمه التي هدى إليها الأخيار من ملائكته ، فعلام يستند جهال المسلمين من خاصتهم وعامتهم ، إذ يحاولون أن يدفعوا عنهم غارات المغيرين بتلاوة الآيات ورمي الجمرات واستصراخ الأموات ؟ وإذ يقابلون تهاطل الرصاص وتقاطر القلل وانفجار كرات (الديناميت)

---

(١) الهداية عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٦٨ — ٧٦ .

بقراءة السور ومدارسة البخارى والابتهال بالدعوات ، وقطع الأوقات بالركعات والسجدات . وتأبط (الجلجلوتية) وحزب البحر وأشباهها ، مما لم يأت به من الله سلطان ، ولا يتقبله عقل إنسان ؟ ... علام يستند أولئك الذين عطلوا سنة الله القهارية . واستمسكوا بسخافات الخرافات ، وتربصوا خوارق العادات ، وما لم يأذن به الله من المنجيات ؟ ... وليت شعرى ماذا أفادتهم اللحى الكثة المرسلة ، أو السبح الغليظة المتدلية ؟ ثم ماذا أفادتهم يقظات الاسحار ، وقد استغرق منامهم سائر النهار ؟ وهل ينفعهم التعفف عن الدرهم والدينار ، إذا تركوها لأعداء بلادهم ودينهم يحاربونهم بها . ويملكون رقابهم بحكم أطواقها ؟... لقد والله ذل من يغني أعداءه ويفقر نفسه ، كما ذل من يترك لخصومه ميادين المنافسة . ينفردون فيها بالمكر والغير ، والنهى والأمر ، والتصرف فى كل شأن » .

ومن ذلك إبرازه لما ينطوى عليه الإسلام من تسامح ، وذلك فى تفسير قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . إذ جاء فى تفسيره(١) :

« وما كان الله أن يظلم هؤلاء ليهوديتهم ولا أولئك لنصرانيتهم . اللهم إلا إذا أشركوا به غيره ، أو أنكروا اليوم الآخر ، أو هجروا صالحات الأعمال . فأولئك لا يأجرهم الله ولا يؤامنهم من الفزع والخوف . أما الذين آمنوا من قوم إبراهيم واليهود والنصارى والصابئين الذين ليسوا على دين من تلك الأديان ، فإن الله لا يفرق بين أحد منهم ، ما داموا يؤمنون بتوحيده وبالحياة الآخرة ؛ ويأتون من الأعمال صالحاتها ، فما الله بمفضل قوماً على قوم حتى يقيموا توحيده وتطمئن نفوسهم إلى دينه . فإن فعلوا ذلك ، ثم أتوا من الأعمال ما يصلح الحياتين الدنيوية والأخروية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، لا ينقصهم منه شيئاً » .

« أما الأعمال الصالحة ، فقد سبق أن المراد بها كل ما يكسب الانسان

---

(١) الهداية عدد فبراير ومارس سنة ١٩١٢ ص ٨٢ — ٨٣ .

قوة في الدنيا وازدلافا إلى الله في الآخرة . فن صالحات الأعمال كل ما يفضى إلى غنى الامم وعلو مكانتها . كما أن من صالحات الاعمال كل ما يخفف ويلات أصحاب الويلات ، ويؤدى إلى إصلاح الشئون العامة ، اجتماعية كانت أو علمية أو اقتصادية . ومن البديهى أنه ما عنيت امة بذلك إلا ذهب الخوف والفزع عن نفوسها ، وملأ السرور والفرح صدورها » .

« ولقد خالفنا المفسرين في تأويل قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ذلك أن القرآن الكريم سمّى إبراهيم بالمسلم ، ودعا دينه الإسلام ﴿ إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ والمراد من هذه الآية بيان أن الدين عند الله الإسلام . وأنه ﴿ من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

« أما معنى الاسلام الذى كان دين إبراهيم الخليل فإنه توحيد الله تعالى بالربوبية واختصاصه بالعبادة . ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ . على تلك القاعدة بنى دين إبراهيم ومن تبع سنته من أهل مكة ، كما بنى دين سيد الكائنات محمد المصطفى وأهل مكة : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا . والله ولى المؤمنين ﴾ » .

* * *

انقسم زعماء الاصلاح كما رأينا إلى فريقين : فريق ينظر إلى قديم المسلمين والعرب يتغنى به ويستوحيه . وفريق آخر ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق يزينه للمسلمين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه . وسرى هذان الاسلوبان في كل شئون الحياة ، فأصبحنا أمام فريقين متقابلين : فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضى ، ويدفعهم إلى الجديد دفعاً لا رفق فيه ولا هوادة . ويحملهم عليه حملا لا تدرج فيه . وفريق آخر يقول : إن علة تأخرنا هى موت ضمائرنا وفتور عزائمنا . وذلك ما لا سبيل إلى إحيائه إلا بالاسلام الذى يعلم المسلم أن حمل أعباء الحياة أمانة وأن الجهاد لإعزاز المسلمين وتحريرهم فريضة .

وكان المعتدلون من دعاة الحضارة الغربية لايعارضون فى تنقيحها وتهذيبها واستبعاد ما يتعارض منها مع ديننا وتقاليدنا . وكان المعتدلون من دعاة الإسلام لا يعارضون فى إصلاح عاداتنا وتقاليدنا واستبعاد الضار منها مما أقحم على الإسلام وليس منه ويرون أن التمسك بالدين لا يتعارض مع الأخذ بالنافع من المخترعات والجديد من الدراسات التجريبية والتطبيقية التى تلزم النشء لكى يساير النهضة الصناعية ، ولكنهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة والثقافة التى تتصل بالعقائد والعادات والتقاليد والأذواق وآداب المجتمع وأساليب الحياة وأنماط العيش . فيعارضون أشد المعارضة فى أن تكون حضارتنا وثقافتنا صورة من حضارة الغرب وثقافته أو امتداد لها .

ولكن المتطرفين من الفريقين كانوا يبالغون فى تطرفهم الشطط فى كثير من الأحيان . فكان فى المجددين من يبلغ فى دعوته حد التهور والخروج عن القومية والارتماء فى أحضان الغرب ، وكان فى المحافظين من يبلغ فى محافظته حد الجمود والتنطع ومحاربة كل جديد مهما ثبت نفعه ، والتمسك بكل قديم مهما تبين بطلانه وضرره .

كان بعض دعاة التجديد الذين ينادون باقتفاء الحضارة الغربية يبالغون فى الاستخفاف بعلماء الدين ، حتى يجرهم ذلك الاستخفاف بالدين نفسه . كالذى نجده فى بعض مقالات ولى الدين يكن ، حين يجاهر بالإفطار فى رمضان مستخفاً بالصائمين ، يتهمهم بالنفاق وبالإفطار سراً ، أو بضيق الأفق والتضييق على الناس فى حريتهم الشخصية(١) ، فيقول فيما يقول :

« فى البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر إلى أن يأتى اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان أكثر المفطرين يدعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين ، حتى لقد بلغ أمر التكذب أن يضرب المفطر فى بيته من يدخن بجانبه سيكارته ، وقد خرجت بها ذات يوم فى رمضان ورداء أمرعرض

(١) راجع مقاله الذى نشر فى المقطم (أكذوبة إبريل ، وأكذوبة رمضان) الصحائف السود ص ٢٣ — ٣٨ .

أريد قضاءه . فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الأجانب على رءوسهم القبعات وبأفواههم سيكاراتهم ، والناس ينظرون إليهم شزراً . ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أحد أولئك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكارتي معي فنسيت أن اليوم من أيام رمضان . فأخرجت سيكارة جعلتها في فمي ، وأقمت أنتظر أن يمد إلى أحد الجالسين شيئاً أشعلها به . فشع في عيون الركب ، وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيراً إلى بلحظه . ففطنت لموضع خطئي ، وقلت : أداويه لكم أيها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بغتة كمن تذكر شيئاً كان نسيه وقلت : لعن الله الشيطان . كدت والله أدخن سيكارتي وأنقض صومي» .

ويصور بعد ذلك احتقاره الشديد لعلماء الدين وقد التقى بأحدهم عند بعض أصدقائه فيقول :

« .. فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى المكان المعد للتدخين دنا مني أحد المعممين ، وهو رجل كالجرادة ، له لحية كقائمة الجراد ، وعينان كزيتونتين . فنظر في وجهي ملياً ثم قال لي : لم لا تصوم ؟ . . . قلت : لا أدري . قال : كيف لا تدري ؟ . . قلت : كل من لا يدري . فغلب الضحك على الرجل ، وتنحيت أنا جانباً كي لا يطير في وجهي رشاش من فيه . فقال : مالك تنأى عني ؟ أغول أنا فتخافني ؟... قلت : كلا ، بل فمك رائحته منتنة فلا أقدر أن أشمها » .

ونجد مثل هـــذا الاستخفاف في مقال آخر له ، يسفه فيه ذبح الأضاحي في العيد فيقول(١) :

« ومن أرهفت الشفار ، وشمر الجازرون عن سواعدهم ، وجيء بالأضاحي التي أحنيا مقتنوها وطلوا فراءها بالحناء وبالورس ، وفيهم من موهوا بالذهب قرونها ودهنوا بالزعفران آذانها . فأكب أهل الصناعة على صناعتهم ، فمن مكبر ذابح ، ومن نافخ ضارب ، ومن سالخ جاذب . ومن مقطع ناصب . وعلى أبواب

---

(١) راجع مقاله (الإسراف الإسراف !) الصحائف السود ص ٨٢ — ٨٥ والعجب للكاتب ، يضيق صدره بذبح الخراف ، ولا يضيق بذبح الأوروبيين للديكة الرومية مثلا في أعيادهم .

البيوت الأقيال وأبناء الأقيال من الساسانيين وقوفاً صفوفاً ، أو جثياً قعوداً ، يراقبون من كل باب مصراعه ، وكأن البدر سيطلع عليهم في موكبه السماوي ، أو كأن سينجاب غشاء الأبصار فتبدو من ورائه القمم » . ثم يقول في استخفاف :

« لا أدري حكم الاضاحي فيما يرجع إلى الدين . فلا أتعرض له بشيء مجانبة للشطط . ولكن ما هذا الإسراف ؟... ألنا ثأر عند الغنم فنثأر ؟ أم الغنم كثيرة فنريد أن تقل ؟... ما روى لنا أحد المؤرخين أن جد الغنم نطح أبانا آدم ، فنجعل عداءنا محمولا على هذا السبب(١) » .

وكان المحافظون من دعاة الإصلاح الإسلامي يهاجمون الفريق الأول، ويتهمونهم بالتفرنج وبهدم الاسلام . فمن ذلك قصيدة لمحرم ؛ يهاجم فيها قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة فيقول(٢) :

أغرك يا أسماء ما ظن قاسم ؟!	أقيمي وراء الخـــدر فالمرء واهم
تضيقين ذرعاً بالحجـاب ، وما به	سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق في الشرق كله	إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تقـذف بجيشك تبتغي	بقومك والاســلام ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقية	تلوذ بها أعراضنا والمحارمُ
أسائل نفسي إذ دلفتَ تريدها	أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
... أتأتي الثنايا الغر والطُّررُ العلى	بما عجزت عنه اللحى والعمائم ؟
فلا ارتفعت سفن الهواء بصاعد	إذا حلقت فوق النسور الحوائم
عفا الله عن قوم تمادت ظنونهم	فلا النهج مأمون ولا الرأي حازم
ألا إن بالاسلام داءً مخامرا	وإن كتاب الله للداء حاسم

ومن ذلك مقال كتبه عبد الله النديم بأســلوبه الواقعي الساخر في مجلة

(١) راجع كذلك أمثلة لاستخفاف الكاتب بعلماء الدين في ديوانه ص ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ .

(٢) ديوان محرم ٢ : ٦٣ — ٦٥

(التنكيت والتبكيت) ، يصور فيه أحد أبناء الريف ، وقد عاد من أوربا بعد أن أتم تعليمه فى بعثة حكومية فقال(١) :

« ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط، وتركه يلعب فى التراب وينام فى الوحل، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم إلى الغيط ، يسوق الساقية ، ويحول الماء ، وكان يعطيه كل يوم أربع جنديلات وأربعة أغانج بصل، وفى العيد كان يقدم له اليخنى ، ليتمتع بأكل اللحم والبصل ، وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار ، فقال لأبيه : لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنسانا . فأخذه وسلمه إلى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى (أوروبا) لتعلم فن عينته له . فبعد أربع سنين ركب الوابور وجاء عائداً إلى بلاده . ثم فرح أبيه حضر إلى الاسكندرية ووقف برصيف الجمرك ينتظره ، فلما خرج من الفلوكة(٢) قرب أبوه ليحتضنه ويقبله ، شأن الوالد المحب لولده . فدفعه فى صدره » .

ثم يحكى النديم الحوار فى لهجته التى دار بها . فالابن ضيق بهذه العادة التى يراها شيئاً قبيحاً . ويتمنى لو فعل أبوه مثلما يفعل الغربيون ، فيضع يده فى يد ابنه ويقول فى رقة (بون آريفى) . والأب لا يفهم ما يقوله ابنه ، ويظن أنه يعيره بأنه (ريفى) . فيضيق الولد قائلا (أنتم يا أولاد العرب كالبهائم لا تفهمون) . ويتكرر هذا الموقف حين يلتقى بأمه وتقدم له غداء من اللحم والبصل . فيظهر الضيق الشديد بالطعام ويعنف أمه لأنها أكثرت من الـ د ... ويبدو كأنه يبحث فى ذاكرته عن اسم (البصل) فلا تسعفه إلا التسمية الفرنسية (أونيون) . ولا تفهم أمه عنه ، فتظل تستوضحه ويظل يصفه لها حتى يقع عليه حين يقول : (الذى تدمع منه العين) فتقول أمه (تعنى البصل ؟) فيقول بلهجته الفرنسية

---

(١) العدد الأول ٦ يوليو سنة ١٨٨١ - سلافة النديم ص ٨٢ مقال بعنوان (عربى تفرنج) .

(٢) الفلوكة فى اللهجة العامية بمصر قارب يلحق بالسفينة لنقل راكبيها إلى الشاطىء كأنه مشتق من (الفلك) بضم الفاء وسكون اللام وهي : السفينة .

الغالبة عليه (سى سا . بصل . . . بصل) وتعجب أمه ويعجب أبوه من أمره . كيف نسى البصل وقد كان كل طعامه منه ؟ !

ويختم الكاتب هذا الحوار باستنباط العظة من القصة قائلا :

« وشكاه مغيظ لأحد النبهاء ، وقال : ولدى توجه إلى أوروبا ، وحضر يذم بلاده وأهله ، ونسى لغته . فقال له النبيه : ولدك لم يتهذب صغيراً ، ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية . فهو وإن كان تعلم علوما إلا أنها لا تفيد وطنه شيئاً . فإنه لا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم . على أنه أصبح كالغراب لما أراد أن يقلد الحجل فى مشيته ، وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عوده لطبيعته الأولى ، فأصبح يقفز قفزاً . وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية . ولا يفعل فعل ولدك إلا لئيم جاهل بوطنه . فكم من شبان تعلمت فى أوروبا ، وعادت محافظة على مذهبها وعوايدها ولغتها ، وصرفت علومها فى تقدم بلادها وأبنائها ، ولم ينطبق عليهم عنوان (عربى تفرنج) » .

وإلى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاه ثالث يريد أصحابه أن يجمعوا بين الاتجاهين وأن يوفقوا بين الطرفين . فنادوا بأن الإسلام هو الأساس الذى يجب أن يقوم عليه الإصلاح ، ولكنهم فسروا نصوصه تفسيراً جديداً يقبل معه كثيراً من أساليب الحياة والتفكير الوافدة من الغرب وقد كان هذا الاتجاه الأخير — ولا يزال — مثار كثير من الجدل فى تقديره والحكم عليه . وسوف أعود الكلام عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله ؟

تم الجزء الأول بحمد الله

قائمة

بطبعات الكتب التي أحلت عليها في هوامش الكتاب (١)

(ا)

الاتجاهات الحديثة في الإسلام تأليف و . ا . ر . جب ، ترجمة كامل سليمان طبع بيروت ١٩٥٤

أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي الطبعة الأولى (على نفقة محمود طاهر صاحب جريدة العرب).

(ت)

تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع لجورجي زيدان الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ م (مطبعة الهلال بالفجالة . مصر) .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الأول) لمحمد رشيد رضا الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثاني) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثالث) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ التعليم في مصر (٣ أجزاء) لأحمد عزت عبد الكريم الطبعة الأولى ١٩٤٥ م مطبعة النصر بمصر

التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر (ألفريد بلنت) - ٥ أجزاء) العدد ٦٩ من سلسلة « اخترنا لك » .

تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد الطبعة الثالثة ١٩١٢ م مطبعة التقدم بمصر .

تاريخ المسألة المصرية (ترجمة العبادي وبدران) تأليف تيودور روتشتين الطبعة الثانية ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م لجنة التأليف .

تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده تأليف تيودور روتشتين وتعريب علي أحمد شكري ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م .

تاريخ المفاوضات المصرية (الجزء الأول) لمحمد شفيق غربال ١٩٥٢ م مكتبة النهضة المصرية .

تحرير المرأة لقاسم أمين الطبعة الثانية ١٩٤١ م مطبعة روزاليوسف .

---

(١) رتبت هذه القائمة ترتيباً أبجدياً حسب أوائل أسماء الكتب، وسقطت منها الصحف والمجلات لعدم الاختلاف في طبعاتها .

تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب مطبعة الترقى ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) .

(ث)

الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بمصر

(ح)

حرب البلقان الاولى تأليف يوسف البستانى المحرر بالجريدة ١٩١٣ م .
الحركة الادبية فى حلب تأليف سامى الكيالى معهد الدراسات العربية ١٩٥٦

(د)

دفاع المصرى عن بلاده (خطب ومقالات مصطفى كامل) فى صيف ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م مطبعة اللواء بمصر .
دول العرب وعظماء الإسلام لأحمد شوقى ١٩٣٣ م مطبعة مصر .
الدولة العربية المتحدة (الجزء الثالث) لأمين سعيد ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ م مطبعة عيسى البابى الحلبى .
ديوان إسماعيل صبرى ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ مطبعة لجنة التأليف .
ديوان البارودى (حرآن محمود سامى البارودى) طبعة المقصورى .
(لآخر حرف اللام) مطبعة الجريدة ديوان حافظ (الجزء الاول) (محمد حافظ إبراهيم) الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م مطبعة دار الكتب .
ديوان حافظ (الجزء الثانى) حافظ إبراهيم) الطبعة الأولى ١٩٣٧ م مطبعة دار الكتب .
ديوان شوقى (الجزء الأول) (أحمد شوقى) ١٩٢٥ م مطبعة مصر .
ديوان شوقى (الجزء الثانى) « « ١٩٣٠ م مطبعة مصر .
ديوان شوقى (الجزء الثالث) أحمد شوقى ١٩٤٦ م مطبعة دار الكتب .
ديوان شوقى (الجزء الرابع) « « مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية مع مقدمة لمحمد سعيد العريان .
ديوان صالح مجدى ١٣١٢ هـ — ١٨٩٣ م مطبعة بولاق .
ديوان عبد الحليم المصرى (الجزء الأول) (عبد الحليم حلمى المصرى) ١٩١٠ م (مع مقدمة لمحمد صادق عنبر) .
ديوان عبد الحليم المصرى (الجزء الثانى) ١٩١١ م
ديوان عبد الحليم المصرى (الجزء الثالث) ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م مطبعة المعارف بالفجالة — مصر .
ديوان عبد المطلب (محمد عبد المطلب) الطبعة الاولى . مطبعة الاعتماد بمصر .
ديوان الغاياتى (على الغاياتى) الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ مطبعة عطايا بمصر

ديوان الكاشف (الجزء الاول) (أحمد الكاشف) الطبعة الثانية ١٣٣٢ - ١٩١٤ م مطبعة الترقي بمصر .
ديوان الكاشف (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م مطبعة الجريدة بمصر .
ديوان محرم (الجزء الأول) (أحمد محرم) الطبعة الاولى ١٩٠٨ مطبعة الجريدة بمصر.
ديوان محرم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠ م مطبعة الفتوح بدمنهور.
ديوان نسيم (الجزء الاول) (أحمد نسيم) ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م مطبعة الإصلاح .
ديوان نسيم (الجزء الثاني) « ١٩١٠ م مطبعة الهلال .
ديوان ولي الدين يكن الطبعة الأولى ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤ م مطبعة المقتطف بمصر .

(ذ)

ذكرى وعبرة (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) لسليم البستاني . الطبعة الأولى ١٩٠٨ مطبعة الاخبار .

(ر)

روتشتين (راجع تاريخ المسألة المصرية) .

(ز)

زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٤٨ م نشر مكتبة النهضة المصرية .

(س)

سلافة النديم (الجزء الاول) بقلم عبد الله النديم الطبعة الأولى ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م المطبعة الجامعة بمصر .
سلافة النديم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ مطبعة هندية بمصر.

(ش)

شعراء العصر لمحمد صبري ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م مطبعة الأمة بمصر .
شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام لأحمد الطرابلسي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦
شوق (راجع صداقة أربعين عاما) .
الشوقيات (مجموعة شعره من ١٨٧١ - ١٨٩٨ م) الطبعة الثانية ١٣٣٠-١٩١٢ م مطبعة الإصلاح بمصر .

(ص)

الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠ م مطبعة المقتطف بمصر .
صداقة أربعين عاماً لشكيب أرسلان ١٩٣٦ م مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

(ط)
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، لعبد الرحمن الكواكبي الطبعة الأولى مطبعة المعارف بالفجالة بمصر .

(ع)
عباس الثاني (ترجمة فؤاد . . .) تأليف اللورد كرومر . مطبعة التوفيق بمصر .
عبد الحميد ظل الله على الأرض (ترجمة راسم رشدى) تأليف الدكتورة الماوتاين ١٩٥٠ م دار النيل الطباعة بمصر .
عصر الخرافة — جزآن (ترجمة أبو ريدة ، محمد بكير خليل) تأليف جستاف شتلنبر سلسلة الفكر الحديث (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(ف)
فضائل الماسونية تأليف شاهين بك مكاريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة مطبعة المقتطف ١٨٩٩ (ومنه نسخة فى مكتبة جامعة الاسكندرية رقم ١٥٦٠٨)

(ل)
ليالى سطيح تأليف محمد حافظ إبراهيم الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م مطبعة الإصلاح بمصر .

(م)
ما هنالك (لأديب فاضل من المصريين) مطبعة المقطم بمصر ١٨٩٦ م
مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول ١٩١١ المطبعة الأهلية بمصر .
محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ مطبعة لجنة التأليف
مذكرات عرابى (جزآن) بقلم أحمد عرابى ، كتاب الهلال فى فبراير ، مارس سنة ١٩٥٣ م
مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الأول : من ١٨٧٣ — ١٨٩٢ م) الحاج أحمد شفيق (باشا) الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م مطبعة مصر .
مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الثانى أ : من ١٨٩٢ م — ١٩٠٢) الطبعة الأولى ١٩٣٦ م — مطبعة مصر .
مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الثانى ب : من ١٩٠٢ — ١٩١٤ م) الطبعة الأولى ١٣٥٥ — ١٩٣٦ م مطبعة مصر .
المرأة الجديدة تأليف قاسم أمين الطبعة الثانية ١٩١١ م مطبعة الشعب .
المسامير تأليف عبد الله النديم (عنى بطبعه الشريف ى . ن . هـ . م) .
المسئلة الشرقية تأليف مصطفى كامل . الطبعة الأولى ١٨٩٨ مطبعة الآداب بمصر.

مصر للمصريين تأليف سليم نقاش (نشر منه ٦ أجزاء من ٤ - ٩) ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م
مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية .
مصر والاحتلال الإنجليزى (مجموعة أعمال مصطفى كامل من ١٨٩٥ - ١٨٩٦ م)
١٩١٣ م مطبعة الآداب .
مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال تأليف عبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية
١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م مطبعة الفكرة بمصر .
مصطفى كامل تأليف عبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م
مطبعة لجنة التأليف .
معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز
١٩٥٠ م مطبعة لجنة التأليف بمصر .
معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز
١٩٥٢ م مطبعة لجنة التأليف بمصر .
المنتخبات (جمع إسماعيل مظهر) بقلم أحمد لطفى السيد . نشر مكتبة الأنجلو المصرية
منتخبات المؤيد (السنة الأولى ١٨٩٠ م) ١٣٢٤ هـ مطبعة المؤيد .

(هـ)

هـ . ج . ولز (راجع معالم تاريخ الانسانية) .

(و)

وطنيتى (راجع ديوان الغاياتى) .

مراجع إنجليزية

1 — Great Britain in Egypt (F. W. polson Newman 1928
2 — Islam in Modern History (W.C.Smith) princeton 1957
3 — Modern Egypt (The Earl of Cromer) 1908
4 — Reports by His Majesty's Agent and Consul General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan.
5 — Whither Islam ? edited by H. A. R. Gibb 1932

فهرس الموضوعات

الفصل الأول ـ الجامعة الإسلامية

(ص ١ ـ ص ٤٩)

الفصل الثانى ـ الجامعة المصرية

(ص ٥٠ ـ ١٠٦)

الفصل الرابع — تيارات سياسية

(ص ١٣٤ — ص ٢٢٣)

الفصل الخامس — نزعات إصلاحية

(ص ٢٢٤ — ٣٤٨)

فهرس الأعلام

رقم الإيداع ٣١٣٤ / ٣
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-241-089-4